السطح الأملس

القصة الفائزة بجائزة نادى القصة
التى تنظمها وزارة الثقافة سنة ١٩٨٦

تأليف

خيرى حداد عافية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٦ / ١٩٩٠

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابورى بالحلمية الجديدة

إهـــداء

إلى العزيز الراحل والدى ، طيّب الله ثراه . .

إلى أعز ما فى عالمى . . والدتى . .

إلى الحبيبة زوجتى . . أول من قرأت لى ونقدتنى وكابدت من أجلى . . وما زالت . .

إلى أولادى الأحباء . .

مقدمة

للمكاتب القصصى الكبير الأستاذ سعد حامد

أسعدنى الحظ بأن أقرأ رواية « السطح الأملس » للأستاذ خيرى حماد عافية مرتين ، وفى كل مرة وجدت نفسى أقف إزاءها مأخوذاً ، فقد شدنى الكاتب إلى روايته بسرده الرائع ، وتصويره البديع لأحداث وشخصيات روايته ، وتحليله لنفسياتهم ، وأحسست بموهبته الفذة ، وقدرته الفنية الملموسة .

وقد قرأتها مرة قبل أن أتعرف إليه أو أراه ، واستولت على إعجابى ، ثم التقيت به ، ورأيته شابا هادئا وديعاً على وجهه مسحة من الحزن ، وفى عينيه نظرات حزينة ، ، وأحسست أنه مفرط الحساسية ، وأنه عاش حياته يعانى من هذه المشاعر المرهفة ، وأن التجارب المريرة التى مرّ بها ما زالت ذكراها تطارده وتلح عليه ، وأنه دائم البحث عن معنى لكل ما يراه فى الحياة ، وهو حائر بين القيم التى يقدسها وبين بشاعة الواقع ومرارته ، ويبحث عما يريحه ، فلا يجده ، فيقول فى روايته : « لمن تسكون الحياة ؟ للسفيه والمنافق والحقير . ص ٥ » ثم أشعر بأن قلبه يتمزق فى صدره وهو يقول : « إن أكثر ما فى هذه الدنيا ، الخزى والعار والضعف الانسانى ، وإن أندر ما فيها ، الأخلاق والإنتماء والأوفياء بربهم . ص ١٦ » .

ومن هنا رأيت مسحة الحزن الواضحة التى تغشى وجهه . . إن

تجارب الحياة المريرة التى عاشها الكاتب أو الصور والأحداث التى رآها ، وانفعل بها ، وهزته من الأعماق ، هى التى رسمت على وجهه الوسيم وفى عينيه العميقتين تلك المسحة من الحزن ، وهى أيضاً التى جعلت بطل روايته يذرف الدمع فى كثير من مواقف الرواية ! !

وقد صور لنا الكاتب فى هذه الرواية أحداثا واقعية من صميم الحياة ، ولعله عاش بعضها ، وما أظن أن كاتبا يؤثر الصدق — وهو أهم ما يكتب للعمل الفنى البقاء والخلود — إلا وهو يصور نفسه ، وتجاربه فيما يكتب ، فالكاتب الفنان هو الذى يصور الأحداث من خلال معاناته لها ، ويصور الناس على ضوء معرفته بهم ، ووعيه بعواطفهم ونزعاتهم ، وصراعهم مع أحداث الحياة .

والرواية تصور لنا حياة شاب مصرى رحل إلى بلد أوروبى بحثا عن المال ، وما عاناه من شقاء وتعاسة وعذاب ، وتعبر أيضا عن غربة الإنسان فى هـــذا العالم الغربى الغارق فى الرذيلة والجنس والمخدرات ، والانطلاق فى عالم غريب من الفساد والسقوط باسم الحرية . . وينسى أنه جاء يبحث عن المال ليرضى طموحه ، ويرفع من مستوى حياته ثم ينسى رومانسيته وأحلامه الشرقية ، وينحدر إلى دروب الحب المظلمة ، ويخوض تجارب عدة تسلمه امرأة إلى امرأة ، ويتنقل بين أذرع نساء جميلات لا يبحثن عن الحب ، ولكن يبحثن عن الجنس فحسب . . . وعندما يفيق من ضياعه على الحقيقة المريرة يكون الوقت قد ضاع ، وضاعت معه حياته وأحلامه الجميلة . . ويدرك أن حياة الغرب . . هـــذا السطح الأملس الجميل ليس تحته

إلا التيه والزيف والسقوط والضياع ، وأنه مخدع بمظاهره الكاذبة وبريقه الخاطف للبصر ..

ولم يكتف الكاتب بنقل الواقع وتصويره تصويراً بارعاً بكل صدق بل ناقش مشكلات عدة بين صفحات روايته .. ناقش مشكلة الحياة ، ومشكلة الحرية ، ومشكلة الحب ، وحلل تحليلا دقيقاً مشاعر الحب والبغض من خلال نماذج بشرية التقى بها ، وصورها لنا تصويراً غاية فى القوة والصدق الفنى فى أسلوب بديع وسرد خلاب لا يجعلك تترك الكتاب حتى تنتهى منه ، وهو يكتب الحوار ببساطة وانسياب ، وينقل لنا أدق المشاهد التى لا تراها إلا العين الفاحصة المدققة ، ورغم أن هذه الأحداث قد جرحت نفسه ، وآلمته أشد الألم إلا أنه لم يهرب من الواقع ؛ بل تأمله ملياً ، تأمل الفنان والمفكر وسجله فى روايته ، حتى الشخصيات الثانوية يقدمها لنا بوضوح مذهل ، فلا نكاد ننساها مع أحداث الرواية المتلاحقة ..

وأينما مضى فإن الناس كانوا مادته الخام ، ومدار تفكيره وتساؤله وحيرته وعذابه .. إنه يستغل تجاربه مع الناس والأماكن التى رآها أو التى عاش فيها .. الحجرات والحانات والطرقات ومحطات المترو ، والنساء الضائعات الباحثات عن الحب والجنس ، وحمامات السونا المختلطة التى تجمع بين النساء والرجال ، وإحساسه بالغربة ، ودموعه الغزيرة ، ومخاوفه الملحة ، وتجارب الحب التى عاشها أكثر من مرة .. كل هذا يسجله صورة بعد الأخرى من صور الحياة .. وهو يناقش المواقف التى عاشها مناقشة فلسفية ، ويكتب رأيه

فى الحب « ليس الحب وحـــده هو الحياة . . والحياة كلها ليست الحب . . الحب هو الفعل الخلاق الذى يضيف للإنسانية معانى نبيلة . لكن هـذا الفعل لا يستطيع كل النـاس القيام به . الحب ليس فعلا عادياً . الحب فعل استثنائى يقوم به بعض الناس عند حالة معينة من التوافق ، وقد يحدث مرة أو مرتين فى حياة الإنسان . ص ١٩٤ » ، ثم يكتب رأيه فى الحرية « هذة الحرية خدعة للنساء . ص ٣٥ » .

والأستاذ خيرى حداد عافية كاتب موهوب ، ومتمكن جداً من كتابة الرواية ، وروايته جديدة فى كل شىء ، وأحداثها منتقاه من الواقع ببراعة ، وأعتقد أنه سيحتل عن قريب - بإذن الله - مكانا بارزاً بين مشاهير كتاب الرواية فى مصر . . ؟

سعد عامر

الجزء الأول

— كان دعاؤنا إلى الله كثيرا .. حتى الذين يخطئون يقبلُ الله دعاءهم.

— إن السماء لا تُنزِّلُ على البشر موائد من الطعام وهم قاعدون .

— لم نكن نستطيع أن نذهب إلى نبي ، في زمان خلا من الصالحين. ليخلِّصنا من متاعبنا وأهوالنا . ولو وجد نبي فإنه لن يفعل للذين يبحثون عن الحياة شيئا . . إن النبي يفعل للذين يتطلعون إلى ما بعد الحياة . إنه يضع يده مع مجاهدين وليس طلاّب حياة . . نحن نريد الطعام والبيت والكساء . . لا نعرف الله إلاّ بالكلام عنه . . نحن منصرفون إلى العيش .. والذين يحكمون إذا انصرفوا أيضا إلى العيش، انصرف الناس عن الله .. وإذا حكموا بالعدل ذهب الناس إلى الله ..

تعالوا نتنزل إلى تحت . . حتى تفهموني وتعرفوني . . تعالوا معي نتحدر . . كنت أريد العيش في بلادي ، لكن . . كيف أعيش بلا بيت ! بلا امرأة ! بلا مال ! . . أدنى هذه الحاجيات تعذّر الحصول عليها ، ذهبت إلى كل مساجد العاصمة أبحث فيها عن نفسي فلم أجدها . لأني أردت الحياة . . كان الضعف يأخذني إلى تحت . . وبقدر الضعف منحني الله قوة . . حين بلغ الظلم مداه . .

لم أجد حداً فاصلاً بين الظالم والمظلوم . .

ما هو الضعف الإنساني ؟ . .

أين الحب بين الناس ؟ . .

من الذى أتى بدوائر الضياع التى ملأت الفراغ الفسيح حولنا ؟ ..

من كان أبى ؟ .. شيخ وقور .. ملأ الحياة حوله طيلة ثمانية وسبعين عاماً .. حباً وسلاماً ورفقاً وحياءاً بين الناس .. أين هو الآن ؟ .. فى مقبرته .. مع عالم الموتى الذى لا أعرف عنه شيئاً ..

وأمى التى ترمّلت من بعده .. هدّها الزمان .. ودهمتها الأحزان على فراقه .. لا تبرح غرفتها فى بيتنا الصغير .. جمعت كل ملابس أبى بعد غسيلها ووضعتها فى دولابها الصغير .. وكل يوم تعيد ترتيبها وتنظيمها .. وتقول والدموع السخينة تجرى على خديها : آه يا شيخ حداد .. أين أنت الآن ؟ لِمَ تركتنى وحدى ؟ .. ولا ينقذها من أحزانها إلا أن تقوم للصلاة .. ومزيد من الصلاة ..

تذهب كل يوم جمعة .. مع صديقة لها تدعى أم نجاح لصلاة الجمعة فى مسجد الشيخ سليمان .. لتتزودا من التقوى .. وهذه حقيقة الزاد ..

لم أكن مثل أبى وأمى .. لأنى أردت أن أذهب إلى كل هذا العالم لأرى نفسى .. أحبُّ هذا العالم أو أكرهه ..

وجدت العبيد سادة !..

والسادة حفاة !..

أقدر رجال العالم على عمل الحب المنحوت أو صناعته - إن جاز التعبير - هم رجال «كان» - لأنهم لا يستطيعون أن يقدموا للمرأة حباً فى بيت .. هو ذلك الزمان وحكمه .. إن أقدر شباب عالم المعمورة على صناعة تماثيل الحب هم شباب «كان» أيضاً فى ذلك الزمان .. الحب المنحوت خير من لا شىء .. إنه قدرة يا سادتى ..

دعونى أهبط بكم ..
ـ المذلة للأحرار .. الفضـــيلة خيانة ..
ـ الحرية كلام مصبوب فى قوالب لا يصحْ الخروج منها ..
الحرية كقوالب الثلج .. لماذا يخافون الحرية ؟ .. لأنهم ظالمون ..
ـ لمن تكون الحياة ؟ .. للسفيه والمنافق والحقير ..
من يقبض عليها ؟ ..
انقلب البنى آدم إلى شيطان ليكون سلطاناً ..
والصحيح أن ينقلب البنى آدم إلى إنسان .. حتى يكون مؤهلا للسلطنة .. كثير وكثير ..
خرجت من كل هذا العالم المقلوب .. لأبحث عن نفسى فى مكان آخر فى هذا العالم ، لأجد فيه ضالتى ..
نبيع الجرائد فى العراء فى الليل والفجر . وعز النهار .. نغسلُ الصحون وننظف دورات المياه ، نجمع القنانى وتمشى على أربع كالحمار ..
وغمزنى سيد بسيونى من كتفى ونحن نخرج من مبنى الجريدة .. وكلٌ منا يحمل جرائده، ولما التفتُ إليه قال :
ـ علينا أن نتحمل حتى نحصل على الطعام .. أن أكون أرنباً أو حتى كلباً يستأجرنى صاحب بيت لأقول هوّ .. هوّ فى الليل ، المهم عند الصباح يعطينى السيد مالاً أدبر به نفسى ..
وردّ رؤوف قائلا ـ لا يصحُ هذا يا رجل ..
سيِّد : إذا كان كلامى ليس سليماً .. فلماذا أتيتَ إلى هنا ؟ ..
رؤوف : من أجل العمل ..

سيِّد : وهل يصح أن تخرج أنت من بلادك وأنت حاصل على بكالوريوس علوم مالية وتجارية لتعمل بائع جرائد ؟ . .

وسكت هنيهة ثم قال :

— دعني أفعل ما أريد . ما دمت لا أعمل شيئاً مهيناً لكرامتي ورجولتي . . أي عمل شريف مهما كان حقيراً . أريد النجاح في رحلتي . . ورجولتي . . وأنا أريد النجاح يا عزيزي . . .

سيِّد : أمي تنتظرني وسبعة أخوة أرانب في حاجة إلى الحياة . .

رؤوف : هيه . . لا يهم ماذا نعمل ، هذه أمور لا يحق لمثلنا مناقشتها . .

سيد : نناقشها مع أنفسنا ، لكن لا نجعلها عائقاً بيننا وبين العمل .

رؤوف : ناقشنا أموراً كثيرة في مؤتمرات ترفع شعارات براقة في سرادقات وقاعات تكلفت الكثير في بلادنا . ولم نصل إلى شيء . . وهم يعرفون أنهم لم يصلوا إلى شيء . . المهم الشكل والمظهر . . وكأن الإطار في ناحية والمضمون في ناحية أخرى . .

سيِّد : إنَّ ما يدعو للأسف . . أن المؤتمرات تعقد تحت شعارات . . عيب أن نقول مؤتمر تحت شعار . . ما معنى شعار ؟ . . إنهم يفضحون أنفسهم ولا يدرون ، قد يحسبون الناس في غفلة . .

رؤوف : علينا أن نسعد بعملنا هذا لأنه يحقق المضمون الذي أتينا من أجله . .

سيد : عمل كريم لأنه يحقق لنا الحياة الكريمة . . أنا سعيد لأني أتعلم كل يوم جديداً وأعرف ما لم يعرفه السلاطين . .

رؤوف : الناس هنا لا ينظرون إلى بائع الجرائد على أنه عمل حقير .. فى بلادنا يفعلون ذلك لأنهم واقفون فى مكانهم . . يعانون عقداً وأمراضاً نفسية . . ما زالوا فى أول طورهم بالحياة الحديثة . . رغم أن هناك كثيرين الآن بدأت نظرتهم تتغيّر . .

سيد : الحياة الحديثة كالحياة القديمة . . كل إنسان لديه بعض القيم والمبادىء . . عميق فى تفكيره . . لا يعتبر هذا عملاً راقياً وآخر حقيرا ، لأنه يبحث عن المضمون وليس عن السطح . .

رؤوف : كل منا سيد نفسه الآن . .

سيد : مازال الوقت طويلاً . . نحن فى بداية الطريق . . ثم تنهد قائلا . . أبى سمانى سيداً . . لأنه كان يعمل حارساً لإحدى العمارات وأخطأ فى التسمية لأن الناس حين ينادوننى به أشعر بالحرج مع نفسى ، لأننى لو لم أسافر إلى هنا لاضطررت أن أعمل مساعداً لأحد حراس العمارات من أصدقاء أبى رحمة الله عليه . .

رؤوف : حمداً لله . . لكننا مهما جنينا من المال وعدنا إلى بلادنا فإننا سنظل أرانب مثل اخوتك . . وأنا سعيد أن أظل أرنبا لأن أبى كان أرنبا . ولا يمكن أن يتحول الأرنب إلى أسد .

أبناء الأسود يتحولون إلى أسود . . وإذا تحوّل أرنب إلى أسد فذلك لأنه حديث فى اللصوصية .

سيد : يجب أن تكون طموحاتى أقل مما أتخيّل . . وأن يكون لى مثل ما أتخيل ، فتلك مهاترات غير واردة فى واقع ذلك الحاضر . . لكنى ضربت ذلك على سبيل الرجوع إلى الخلف والنظر إلى المستقبل

أزيد من أحد أن يمزقني أو يوقظني .. لا تأخذ كلامي دائما مأخذ الجد ولا تحاسبني عليه .

وسكت هنيهة ثم قال :

- حين خرجت من الجيش ونزلت إلى واقع الحياة العملية في مدينتي ، أحسست كأن شيئا في رأسي قد سقط .. لم أستطع الحصول على شيء كان موجوداً وفقدته .. شيء ولدت به وذهب .. أريد منك في حديثي إليك .. أن تدعني أقول .. أو تترك أنت شيئا يمر .. إن ذاكرتي لم تعد تحتمل كل أحداثي .. ولست وحدي مسئولا عنها .

رؤوف : وهل نعيش في عالم مجنون ؟ .

سيد : العالم المجنون هو هذا العالم .. أنا وأنت ..

رؤوف : وهل هذا العالم الآخر فقد ما ولد به .. وهل يدعون شيئاً في حديثهم يمر ؟ .

سيد : أكثر من شيء واحد يتركونه ويجعلونه يمر .

رؤوف - نحن إذاً في عالم مفقود ..

سيد : العالم قد يكون مفقوداً أو نحن افتقدناه ..

رؤوف : أنت توصلني إلى فراغ قوي وكبير ، قد يأخذني .. ذلك إلى شيء يدمرني ..

ونظر رؤوف إلى سيد بعين جاحظة يخالط بها الغيظ والحيرة وقال : يجب أن نلتقي على عمل .. وإلا ندخل في حوار جاف ومرير .. على كل منا أن يمر في حياته دون الآخر .. يجب أن تذهب دون أن أراك ولا تراني أنت أيضاً ..

وأمسك رؤوف ذراع سيّد وضغط عليه . ثم استطرد قائلا :
لم نأت لنتفلسف . . لعنة الله على أمك

وضحك سيّد بصوت عال وأومأ برأسه دلالة على الموافقة . وتركني وركض نحو التبة العالية . . ونبح سيد نباح كلب صغير . . وتلفت حولي لأجد كثيرا من الباعة يسمعونه ويضحكون . . وهرولنا جميعاً إلى رصيف محطة الأوبان.. وبينا باعة الجرائد يدخلون عربات الأوبان لتقلهم إلى داخل المدينة ، يكون الليل قد أسدل أول خيوطه ، وتتلألأ المدينة بأنوارها .. وتهرع الطيور إلى أعشاشها، وهنا تقرع أجراس الكنائس .. وبعد ذلك علت قطط فينا بموائها ونبحت الكلاب الصغيرة . . عند هذا الحد أو بعده قليلا يكون كل بائعي الجرائد في أماكنهم يصيحون :

« كرونا ! كوريو ! كرونا زيتون ! . . كوريرا ! . . » .

ـ كان أجدر بالناس أن يطالبوا بقـــدر من الحريه ولو سجنوا مدى الحياة . .

ـ لم يفكّر الناس معاً ولم يتحدوا . . ليسوا أبطالا أو أصحاب مبادىء . .

ـ فكروا فرادى . . أراد كل منهم إنقاذ نفسه فانتحد معها : وكأنّ كل واحد منهم عزم أن يكون مستقلا عن بلاده .

ـ وإلى المدى الذى يفعله الله لكل البشر، مدّ يد العون لنا . لأننا نريد أن نعيش ... من أجل لقمة العيش يمدُّ الله يده ليساعد الناس جميعا . كنا نريد أكثر من لقمة عيش .. ومع ذلك مدّ الله يده .

ركبنا زورقا صغيرا متين الصنعة من خشب قديم نادر . وقال لنا رجل يصحبنا فى الرحلة : « إن المهربين وسارقى النوابيت والآثار يأتون فى ساعة يغيب فيها الحراس .. ويسرقون الخشب من مقبرة توت عنخ آمون » وسكت الرجل هنيهة ثم قال :

« إن الحراس يغيبون بناء على أوامر » . .

ورد رجل آخر قائلا : من يقدر على الأسد ؟ . .

وكانت مضيفة الطيران النمساوية تطوف على الركاب بالطعام . . والطائرة تمخر فى السحاب .. كما تشق الباخرة عباب البحر .

وقال شاب صغير :

وماذا يفعل توت عنخ آمون بالخشب فى مقبرته ؟.. أنفع للإنسان أن يأخذه ليستعمله .

وقال رؤوف :

هو خشب من قبيل المجوهرات والتحف الثمينة .. ملك لكل المصريين . . إن الذين يأخذونها أناس يبيعونها لحسابهم الخاصة . . إنهم لا يعرفون كيف يستعملونها . .

ورد الشاب الصغير ببراءة :

ـ وماذا يفعل الحراس ؟ .

ـ الحراس يحجبون أعين الناس عنها : . أنا وأنت .. لكنهم لا يمنعون اللصوص . . إنهم لا يستطيعون .

كنا نطير فى الجو بعض الوقت . . ثم ننزل لنسبح فوق سطح الماء . الأمواج عالية والمراسى بعيدة . . والرياح عاصفة والسحب كثيفة . . نتأرجح بشدة ، والسطح صغير .. وفى لحظات الخوف تمنيت

لو كنت على الأرض وتارجحت طول عمرى .. أخاف غرق البحر أو سقوطى من السماء .. كان علىّ أن أموت ألف موتة حتى أصل .. وهذا هو الفرق بينى وبين القاعدين .

فى مغرب يوم السبت الرابع عشر من أكتوبر سنة ألف وتسعمائة وست وسبعين وصلت بى الطائرة مطار فينا ..

وعندما نقلنا « الباص » من الطائرة إلى مبنى المطار ، كنت وعدد من الكائنين لا يتجاوز عشرة من بين ركاب كلهم من البيض .. ركبوا من العاصمة وأتينا .. وأضفى علىّ جو أناس غالبيتهم يرتدون المعاطف الجميلة والياقات المنشاة وأربطة العنق الرقيقة مظهر رجل جلف .. وهزتنى رعشة ، وتصبب وجهى بعرق غزير .. وقلت بصوت خفيض وأنا أنزل من سلم الباص إلى أرض المدينة : إلى أين ؟ ..

وقبضتُ على أصابع يدى ، واصطكت أسنانى ببعضها ، وتنهدت ملء صدرى .. وانحنيت إلى الأمام وكأنى أدع رأسى أن يسقط .. وقلت ثانية بصوت تسمعه أحشائى وتهتز له أرجائى :

إلى أين أيها الأبله المجنون ؟ .. لماذا جئت ؟ .. ما الذى أرغمك على المجهول ؟ .. المرّ .. المرّ ..

وسالت الدموع من عينى .. بينما رجل الجمرك يفتش حقيبتى .. ورآنى الرجل أمسحُ وجهى بردن معطفى ، فتطلع إلىّ مليّاً محاولاً استكشاف سبب لبكائى .. وقال بصوت عال يميل إلى الدعة:

— ماذا بك ؟ ..

وبان فى عينيه وجه حائر متردد .. وتلعثم لسانى عن الكلام .. وعادت يده تعبثُ فى جنبات الحقيبة ثانية ، ولم يجد الفم الأبكم

غير أن يقول : لن تجد شيئاً . .

فقال الرجل فى تؤده : لماذا تبكى يا سيد ؟ ...

وردّ رؤوف فى رباطة جأش :

— تركتُ أمى . .

فضحك الرجل ، واقترب من رؤوف ليربتَ على كتفه وقال :

— نحن لا نبكى على أمهاتنا عند الموت . .

رؤوف : وعند الفراق ؟ . .

الرجل : مادمنا سنعود . . لماذا نبكى ؟ .

رؤوف : أنا لا أعرف شيئاً عن العودة . .أحاول قطع كل شىء يربطنى من الخلف حتى لا أعود . .

وقال رجل الجمرك كمن استنتج ما جاء رؤوف من أجله :

لم تأت إذاً للسياحة ؟

وهرَشَ رؤوف فى رأسه وقال وهو يبتسم للرجل :

— ماذا ترى أنت ؟ . . انظر يا سيد . .

وأشار رؤوف إلى حذائه وسرواله ومعطفه من تحت إلى فوق وبالعكس . . وسكت . . ثم قال : هذا منظر سياحة ؟ ! . . لو كنت سائحاً لما بكيت . . أو ارتجفت . . أو . .

وقاطعه الرجل قائلاً :

— هذا العالم ملك الجميع . وسوف تجد مثيلات لأمك فى قلب فينا . . إن من يبحث عن شىء يجده أو يجد بديلاً له . . دعك من دموعك . . لقد فهمت ماجئت من أجله . . كن جسوراً وتعلم من هذه المدينة . .

وترك الرجل عمله لزميله ، وساعدنى فى وضع الحقائب بعربة المطار ،

ودفعها أمامه بيد واحدة، وبالثانية أمسكني من ذراعي كالذي يسوقني إلى الخارج، وتوقف بالباب الخارجي وأمسك زر معطفي وبدأ يتكلم:

أنت حرفيما أتيت من أجله. كل من يأتي إلى بلادنا نأخذ منه قبل أن نعطيه.. وسترى في داخل هذه المدينة عدالة وحرية، وإنسانية، ليست كل العدالة والحرية والانسانية، لكن توصلنا إلى قدر فيها جميعاً، لأبناء فينا القدر الأكبر وهناك فراغات كثيرة لا يعمل فيها أبناء المدينة .. نظراً لتوفير العمل الأرقى أو المريح أو المناسب . . كل أعمال النظافة والمجاري يعمل بها يوغسلاف وأتراك وبولنديون لوجود اتفاقيات عمل . . أما عمل باعة الجرائد فالعاملون بها غالبيتهم من الهنود والسكانيين والباكستان ..

وصمت الرجل برهة وضغط على ذراعي واستطرد قائلا :

هذا يكفي لك . . العالم يتحرك وفق حاجاته ورغباته .. حتى العلاقة بين المرأة والرجل مثل أي حاجة تقومُ بإشباعها .. انتبه . . انتبه . .

ومدّ يده مصافحاً وابتسم، فأحنيتُ رأسي له تعبيراً عن الشكر.. وولّيتهُ إلى رصيف المدينة التي أجهلها . .

رميت بحقائبي في جوف الباص، ودخلت في طابور قصير للصعود إلى المركبة، واتخذت مقعداً في المنتصف بجوار النافذة، وجلست بجواري سيدة عجوز . . ومرّ قائد العربة على الركاب لقطع البطاقات، واختفى عن خاطري أكثر مما اختفى عن بصري السكانيون الذين كانوا معي . . ولم يعد في ذاكرتي غير هذه المدينة وأنا والعالم المجهول الذي أدخل فيه ..

وأخذت المركبة تخترق طريقاً بعد آخر، وكأنها تطير بأجنحة ركابها، كل يندفع في شوق إلى ما جاء من أجله كلما اقتربت العربة من المدينة إلا أنا ؛ أخاف كلما اقترب الباص من الدار، ولو استطعت الهروب إلى الخلف

لفعلت ، ولكن إلى أين ؟ . . إلى المطار ؟ . . إلى كان ؟ . . أفضّل الجحيم ، ولا أعود . . إلاّ ناجحاً محققاً كل طموحاتى . .

من أحتضن فى هذه المدينة؟. إلى من سأذهب؟.. أين أبيت ليلتى؟..

وعتمت السماء ، وسجى الليل تماماً ، وخفق قلبي هلعاً بين ضلوعى ، وحجزتنى همومى عن هذا العالم الناطق المتآلف . . أنا الرجل الأخرس الوحيد الطريد .. منبوذ هذا العالم البغيض . وكأنى بصقة على قارعة طريق .. وتمنيت لو توقّفَ العقل عن أفكاره لحظة واحدة ، ووضعت إبهامى فى فمى كمن يتذكر شيئاً . . ليتنى أنسى العالم بما فيه أنا .. لكنى لا أستطيع .. ألم يقل رجل المطار : انتبه .. علىّ أن أنتبه ولا أنسى شيئا من عالمى ولا أحداً طردنى منه . .

وتلفتُّ حولى فوجدتُ العجوز تتفحصنى ملياً . . وبدا أنها تفعل ذلك منذ وقت .. تُرى هل سِمعَتْ أفكارى ؟.. أتستطيع أن تمد لى العون ؟ وعدّلت من نظارتها فوق مقلتيها الجاحظتين . .

ولمستُ بيدى قفازى وياقة معطفى التى رفعتها لأعلى ، لشعورى أن هذا القفا عاد طويلا ويستحق أن يقمّر عليه أبو خطوه عشرين بتاوة (*) بعد ذلك شعرت بالتحدّى ، وأن قوة من داخلى تنتفض لتواجه الدنيا بأسرها .. أن أكثر ما فى هذه الدنيا الخزى والعار والضعف الإنسانى ، وأن أندر ما فيها الأخلاق والانتماء والأقوياء بربهم ... سوف آخذ من ضعفى قوة .

لقد باعت أمى البقرة لأحصُلَ على ثمنها . . . من سيحرث أرضها

(*) خبز يصنع من الذرة .

ويرويها ؟ من أين تحصل على اللبن والزبد والجبن ؟ وتركت هذه الأم مكبوتة فى دموعها السخينة على فراقى .. يا لها من قسوة .. ليست قسوتى ، إنّ قسوةً جاءتنى فقَسَوْت ..

وتوقّف الباص فى ميدان « اللاند إشتراسه » ، ونزلت إلى أرض الشارع الكبير ، وأخذتُ حقائبي ومشيت إلى رصيف يُطلُّ على نفق كبير ، وحضنت صدري بيدين قويتين كأنى أعصُره .. المكان الذى أقف عليه يبدو عالياً عن أى مكان حولى، يقع خلف مبنى ضخم من ثمانية طوابق ، الأضواء خافتة قليلا عنه فيما حولنا ، وعربات كثيرة سكنت فى كنف ذلك المبنى الكبير. مركبات المطار والأخرى للضواحى وثالثة لمحافظات بعيدة ، وحين يرحى الليل خيوطه تهدأ فيه الحركة ، إلا أنه بين الحين والحين يزعق الأوبان من تحت هذا المكان فى نفقه معلنا خروجه من المحطة .. واعجبت كثيرا بالسلم الكهربائى الذى يأخذ الناس إلى تحت وإلى أعلى ، وقلت لنفسى : « هذه حركة ، وأنا المتفرج الوحيد عليها ولا أحد يلتفت نحوى ، لم لا أتحرّك مثل هؤلاء ؟.. صحيح أنا جردل .. لكن كل الجرادل تتدلى فى البئر .. ألا أكون مثل بقية الجرادل ؟.. إلى أعماق هذا النفق يجب أن أذهب ... »

إلا أننى لم أستطع تحريك قدم عن أخرى ، وجلست على الحقيبة واضعا رأسى بين قبضتى يدىّ ، وخطرت لى فكرة الدخول فى إحدى المركبات لأنام حتى الصباح ، وبعد هنيهة أدركت أن أبوابها جميعاً مغلقة ولم أجد عربة واحدة خربة لأدخل فيها .

المدينة أمامي تبدو واسعة، بناياتها فى مستوى واحد كأسنان المشط ، وقالوا إن العدالة فيها مثل بيوتها ، ومهما كانت المدينة كبيرة مترامية

الأطراف فانا ضيف ، لا أعرف لغة أهلها ، لا يوجد فيها بيت واحد يفتح بابه من أجلي ، طائر بغير أجنحة ليس له شجرة يحطّ عليها .. أين المأوى ؟ .. أين الله ؟ .. الله الذى يظلّ كل البشر قادر على أن يظلني ويؤويني .. وفارق الدمع الساخن عيني . أهي دموع الإيمـــان أم نحيب القدر ؟

كان لى صديق فى كان اسمه مراد ، ولمّا عرف أنى قادم إلى فينا ، حاول أن يساعدنى فكتب لى رسالتين ، واحدة إلى صبحى يعقوب .. يعمل بائعاً للجرائد منذ سبع سنوات بعد حصوله على ليسانس الحقوق ، ورسالة أخرى إلى أحمد عياد فلاح من ميم ، يعمل بائع جرائد قدم إلى فينا منذ خمس سنوات .. الرسالتان فى جيب معطفى ، وتوجد ورقة ثالثة أمسكتها فى يدى ، وأخـــذت أتفهم الرسم الذى بها حتى أصل إلى أى منهما ، لكننى لا أفهم شيئا .. ليته كتب أسماء شوارع أو عناوين ، لكنه فعل ذلك حتى أفهم أن الطبيعة الموجودة أمامى مغايرة تماما لما فى الورقة ، ومع ذلك حملت حقـــائبى ودخلتُ فى فتحة كبيرة تحت البناية .. وبعد خطوات قليلة تبينت أنها معتمة ، فعدت أدراجى ، وتوقفتُ لحظة عن المشى ، وواصلتُ السير نحو السلم الحلزونى وركبت فيه إلى تحت ، واستقبلنى نفق كبير به خمسة خطوط مواصلات سريعة ، وجلتُ ببصرى فى النفق فأدهشنى ضخامته وجماله ونظافته ، ومرة ثانية أتفرّج على الناس ، ولا أجد حتى من ينظر إلىّ أو يكلمنى كلمة واحدة وفتحتُ الورقة ثانية لأرى شيئاً من الرسم .. لا شىء .. وعدت مرة أخرى إلى فوق .. بدأتُ أتحرك ، علىّ أن أندفع إلى أحد الشوارع ، وكأن حاجزاً من الخوف يوقفنى ، وفى الناحية الأخرى من الميدان

وجدت بناية أخرى يدخل الناس فيها ، وذهبت بخطوات مسرعة لأدخل فيها وأخرج من نهايتها إلى شارع كبير .. كل ذلك تم فى دقيقة واحدة .. سيارات ، مركبات ، ترام ، حركة مشاة كبيرة ، حياة ، وجدت بائعين من باعة الجرائد ، أحدهما فى مواجهة الممر فى الناحية الأخرى من الشارع ، أما الثانى فهو فى نهاية الشارع الذى أقف فيه ، وفتحت الإشارة لعبور المشاة فاجتزتها مسرعاً بحقائبى .. شاب صغير لا يتجاوز الخامسة والعشرين عاماً ، متوسط الطول له سحنة سمراء ، وكلما اقتربت منه دق قلبى فرحاً ، ولمّا أصبحت على خطوات منه توقفت أستجمع أنفاسى ، وتلفتُّ حولى كمن يطلب من الناس مساعدته ، ولماذا الناس ؟ .. هذا الرجل من بلادى سيفعل كل شىء ، من أجلى .. فى لحظة لا نستطيع السيطرة على أنفسنا ، وفى أخرى ندع أوهامنا ترفعنا لأعلى .. وفى الثالثة ندعها تهوى بنا إلى أسفل ..

وزحفت إلى البائع بحقائبى ، ووضعتها بجانب جرائده المرصوصة على الأرض ، ووضعت نفسى فى خط الدائرة التى يلف فيها لينادى على جرائده .. حتى يجدنى أمامه ، لأرى كيف يكون انطباعه نحو رجل من قومه ، ولحق البائع فعدّل من دائرته وتفادانى ، ولفنى من الخلف بنظرة شاملة ، كمن يتحاشى حجراً فى طريقه ، وشعرتُ بأنى أبذل جهداً فى التفكير والدوران فى التعامل مع الناس طويلاً لا جدوى منه ، لكن ما الحيلة فى رجل توجّس خيفة من العالم ، وجعل نفسه لعبة فى يد الوهم ؟ أتعامل مع الناس وكأنهم ملائكة ! واقتربت منه فى جسارة وقلت : مساء الخير

— مساء الخير

— أريد الاستدلال على واحد يدعى صبحى يعقوب أو أحمد عياد ؟

لم ينبس بكلمة واحدة لمدة دقيقة ، وأفّ فى دائرته حولى هذه المرة ليعلن عن جرائده للمارة . . ثم وقف أمامى وقال : أقادم اليوم ؟

— نعم . .

— على أى شركة طيران ؟

— التمساوية

— أجاء معك آخرون ؟

— كل ركاب الطائرة

وهزّ رأسه قائلا : رائع . . جميل . .

وتركته دون تفاصيل حتى يموت من الغيظ . .

وسادت فترة صمت بيننا . . وبادرتُ قائلا : ألا تستطيع أن تدلّنى ؟ . .

فقال ببرود مشيرا بأصبعه إلى نهاية الشارع : أترى البائع الذى هناك ؟ . .

— نعم

— هذا هو أحمد عيّاد . .

— شكراً لك . . تعبت معى كثيراً . .

حملتُ أمتعتى متجهاً لأحمد عياد ، وعزمتُ هذه المرة ألا أسىء معاملة نفسى مع الناس ، ولا أعتبر الناس ملائكة ، وألاّ أخاف من كل هذا العالم . . ولو اجتمعوا معاً علىّ . . رجل متوسط الطول ،

يرتدى جاكت السكرونا الأصـــفر ، كتب عليه من الظهر بأحرف كبيرة . كرونا زيتون . . ، أى جريدة التاج ، له ساقان تسيران على شكل ثمانية مفتوحتان على الارداف ، لحق وأنا أضع حقائبى عند باب المحل الذى يضع عنده جرائده . . فابتعد إلى ناصية جانبية ، وأخذ يتأملنى على مضض ، وفكرت أن أرحل من هذا الشارع ، لكن إلى أين ؟ وذهبتُ إليه متناسيا نفوره منى ، ولما أصبحتُ على مقربة منه بانت حواجبه الكثيفة ، واستطلعت الأنف الطويل الذى تقف فى مقـــدمته فتحتان واسعتان كفوهة المدخنه ، أما الشفاه فهى رقيقة متبرِّمة مبرومة ، وقلت وأنا أمد له يدى : رؤوف ؟ . .

ـــ أهلا . .

قالها وسكت ، فأردفت قائلاً :

ـــ أنتَ السيد أحمد عياد ؟ . .

ـــ نعم . . أى خدمة ؟ . .

وقلتُ بصوت مخنوق : معى رسالة لك .

ـــ ممَّن ؟

ـــ من مراد . .

ـــ بخصوص ؟ . .

ـــ هذه هى . . ومددتُ يدى بها فأخذها بيد مترددة . . وقرأها بعينين نافرتين ووضعها فى جيبه ، وراح يبيع جرائده ، وعاد بعد وقت يقول :

ليس لدى سكن ، وأردف قائلا : كان لدى شقة وامتلأت من آخرها بالقادمين .

فقلت راجيا :

— أريد النوم هذه الليلة فقط . .

فهزّ كتفيه وقال : وماذا لديّ أن أفعل ؟

— عساك أن تجد مكاناً فى بيت . .

— كنتُ أتمنّى . .

— معى رسالة لسيحى يعقوب . . هل تعرفه ؟ . .

— قريب من هنا . .

— كيف أصل إليه ؟ . . أشار بيده إلى شارع عرضى قائلا :

خذ ترام حرف دى « D » وانزلْ فى المحطة الرابعة . .

— ما اسم المحطة ؟ .

— استود بنهوف .

قالها وانصرف بعيداً ، دون أن يترك مجالا للاستفسار مرة أخرى . .

واتجهت نحو محطة الترام المتجه الى استود بنهوف . . محطه القطار الدولى . . ونزلت متجها إلى الباب الكبير للمحطة ، ودخلت من باب زجاجى يدخل ويخرج منه عشرات من الناس فى دقيقة واحدة ، ووقفت قرب الباب أستعيد قواى ، وأستطلعُ هذا المكان الساخب بالحركة من الداخل ، وتملّكنى خوف من صبحى عندما تذكّرت صخر أحمد عياد منّى ، لكنى سرعان ما أدركت أن الناس ليسوا ملائكة ، وأن علىّ أن أذهب إلى الناس أنال الشرقبل الخير منهم . وأقبلتُ بقوة الى الداخل ، وبدأت أنظر فى كل الأرجاء لعلى أجد بائعا للجرائد ، أين جاكت الكرونا الأصفر ؟ وتقدّمت عدة خطوات إلى ذلك المكان الفسيح الذى يشبه السوق ، حيث توجد المحلات التجـــارية

بأنواعها، وعدد من البارات ، وبعض أكشاك الطباق المتناثرة داخل المبنى . الحركة المسافرين من فينا والقادمين إليها من الضواحى والمدن الأوربية مدهشة ، يحتاج وصفها إلى وقت طويل جداً ، فما بالك لمن يريد أن يحصل على تفاصيل ! أنا جئتُ لأجرى ، لأتسوّق ، لأبيع ، لأجمع بعض المال ثم أفر ، أذهب . . التفاصيل لاتهمّنى لأنى لن أدخل فى علاقات ، ولن أقدِّم بحثاً اجتماعيا ، وتجوّلتُ فى ردهات المحطة ، ونسيتُ بحثى عن صبحى ، وهمْتُ أطوفُ فى وجوه أناس من كل العالم ، والتهمتُ الوجوه بعض الوقت ، كأنى ألتهم طعاماً على عجل وعـــدت أدراجى إلى الخلف أبحث عن جاكت الكرزنا الأصفر ، العلامة البارزة لكل بائع ، وسرى الدم فى عروقى حين وجدته هناك ، يقف البائع عنـــد الباب الزجاجى فى المدخل ، وعلى عربة صغيرة صُنِـعَت خصيصاً لحمل الجرائد وضع بضائعه عليها ، ومشيتُ نحوه بخطى وئيده ، ووقفت قبل أن أصل إليه ، فبدأ يدور حول نفسه فى حركة رشيقة ممسكاً جريدة فى يده .. وكأنه عمود كهربائى ، ولم يكن فى استطاعتى الذهابُ إليه والتحدُّث معه لأنه لا يجب أن أوقفه ، واندهشت لحركته الدائرية حول نفسه .. رغم ضخامة جسده ،ومرّت دقيقة وبضع ثوان وتوقف العامود الكهربائى ، وتقـدّم نحوى قائلا :

ص ـ أى خدمة ؟

ق ـ أأنت صبحى يعقوب ؟

ص ـ نعم (قالها وابتسم)

ق ـ أنا قادم من كان . . اسمى رؤوف :

ص ـ أهلا وسهلا .

ف ـ معى رسالة لك .

ص ـ لى أنا ؟ (قالها متلهفاً) ثم أردف قائلا : مِمَّـن ؟

ف ـ من مراد . .

ص ـ ضحك بصوت عال وقال :

ص ـ مراد . . يا له من هارب . .

ومددتُ يدى بالرساله . . فأخذها على عجل وفتحها وأخذ يلتهم ما فى السطور . . ولمَّا انتهى منها قال وعلى وجهه السرور :

ص ـ من فضلك دقيقة واحدة .

ف ـ تفضل .

وسار الى الداخل نحو صف الحوانيت ، وتنفستُ بعمق ، وسرى فى داخلى خليط من البهجة والأمل ، وجلست على أحـــد الكراسى القريبة من عربة الجرائد ، ولم تمر لحظات حتى أقبل صبحى يحمل فى يده قنينة كاكولا كبيرة . وناولها لى قائلا :

ص ـ تفضل .

ف ـ شكراً يا عزيزى .

كانت المياه الغازيه أول ما يتناوله جوفى منذ نزلت فينا ، وراح صبحى ليتشغل بزبائنه بعض الوقت ، وعاد بعد دقائق يقول :

ص ـ من أى مكان فى كان ؟

ف ـ من تل وان .

ص ـ أنا من هيت . . قضيت أحلى أيام حياتى فيها ، أكثر من سبع سنوات لا أعرف ماذا حدث لشارعى ؟

ف ـ كل شىء كما هو .

ص ـ أتمنى أن أراها قريباً .

ف ـ المطار ليس بعيداً .

ص ـ لكنى لم أذهب إلى المطار هذا العام ، لأن أمى جاءت لزيارتى منذ أسبوع .

ف ـ اذهب لزيارة والدك .

ص ـ توفى منذ عام .

ف ـ أتبقى أمك هنا ؟ .

ص ـ لا أعتقد .. ضجرت من فينا بعد أسبوع ، بالرغم من أنها انبهرت بها أول الأمر . . وعادت الآن تسألنى . لماذا هـــذا الهدوء الشامل فى الشوارع ؟ وتريد أن تتناول الفول فى الصباح ، وعلى الغداء تريد كشرى .

ف ـ تحب الفقر !

ص ـ تحب بلدها .

ف ـ أنا لا أحب الفول الآن .

ص ـ لكنك ستحبه بعد وقت .

ف ـ ولا أريد أن أعود كما تريد أنت .

ص ـ أنا لا أريد أن أعود . . أتمنى أن أذهب للزيارة ، وأعتقد أننى فى النهاية سأعود .

ف ـ أنا لا أريد أن أعود أبداً .

ص ـ ستغير رأيك فيما بعد .

وسادت فترة صمت بيننا قطعها صبحى قائلا : تريد أن تنام الليلة ؟

ف ـ نعم .

ص ـ سأفعل ما أستطيع وبعد ذلك سأدبر لك سكنا مستقلا . . أو مع مجموعة .

ف ـ أشكر لك اهتمامك بى .

وساعدنى فى حمل حقائبى لوضعها فى أوتوماتيك المحطة ودفع من جيبه الرسم المقرر لذلك ، واحتفظت بحقيبة صغيرة بها طعام أعدته أمى لى يوم سفرى . وجلس معى بعض الوقت قبالة جرائده ، وحضر شخصان ، واحد اسمه رشاد وهو شقيق الصبحى ، والثانى يدعى عماد صديق لهما ، وأخذوا يتناولون الحديث فيما بينهم بخصوص تدبير سكن لى ولو لليلة واحدة . . وقال صبحى :

ـ حجازى عنده مكان .

عماد : معه صديقته ولا يقبل أحداً هذه الأيام .

ـ رشاد : أظن يوسف لديه مكان .

صبحى : حادثه فى الهاتف يارشاد .

ذهب رشاد يحادث يوسف وبقى الحديث بين عماد وصبحى .

عماد : أحمد عياد ملأ الشقة بثلاثين رجلا .

صبحى ـ والغول؟

عماد ـ لديه شقة صغيرة .. لكنه لا يقبل أحداً .

صبحى ـ حادثه هو الآخر، قد يقبل .. قل له شخص عزيز ..

ولم يبق غير صبحى الذى وضع طرف رباط عنقه فى فمه وراح يفكر ، وذهب هو الآخر خارج المحطة ، وبقيتُ وحدى أنتظر النتيجة ، وأقبل رشاد قائلا :

رشاد ـ قد تلاقى الليلة بعض المتاعب .. وجدتُ يوسف فى بيت صديقته .

فؤاد ـ متاعب من أى نوع؟

رشاد ـ قد تنام قاعداً .

فؤاد - أين ؟ .
رشاد - فى مقهى ؟ .

وأقبل عماد وصبحى معاً وقد بدا على وجهيهما الحيرة والقلق . .

مما جعلنى اطرقُ برأسى نحو الأرض .. هاربا من شعور الضجر الذى بدا عليهما . . ليتنى أعود إلى بلدى الآن ، سأعود كارها . . ورفعت رأسى لأعلى وكأنى أرفض تلك الفكرة ، لكن ما يكون . . يجب أن أقوى لمواجهة أعتى الظروف .. وشعرت بأنى أستطيع .

ابتعد الثلاثة عنى مسافة غير بعيدة ، ومشيتُ إلى فاترينات المحلات المنتشرة فى بهو المحطة ، محاولا استجماع قواى لمواجهة أى ظرف قاسٍ حتى ولو نمت ليلتى قاعداً فى حديقة .

ووقفت أمام أحد الحوانيت مدة طويلة ، أنتظرجامداً بلاحراك .

ومرّ من الوقت ما يزيد على ربع الساعة ، وشعرت بغصّة فى حلق وجلست على أحد الكراسى الكثيرة المنتشرة داخل المبنى ، وأصبح الرجال الثلاثة أمامى أراهم يتحادثون ، وتناولت بعض الطعام الذى كانت لقمانه صعبة المذاق ، وحمدت الله لوجود كمية من اللحم والخبز ، تكفى ليوم آخر ، وأطرقتُ برأسى بين يدىّ نحو الأرض ، وبقيتُ على هذا الحال وقتاً ليس بقصير . . واعتقدت بأننى لو غادرت هذا المبنى لتلقفتنى أياد كثيرة تعاوننى ، أليس فى هذه المدينة قلوبٌ طيّبة ؟ واختمرت فى ذهنى فكرة مغادرة المكان ، كى أرى بنفسى هذه الأيادى وهؤلاء الناس الذين يبعثهم الله فى طريقى . . رار تجفت أوصالى من الخوف ، خفت من الطائرات والترحال وكل مدن العالم ، خاصة مدن أوربا وهذه المدينة ، فيناالتى أظلمت شوارعها حينَ سِرتُ فيها ، وقفلت أبوابها

قبل أن تمتد يدى لتطرقها . . يا إلهى وسرى فى الصالة الكبيرة صدى صوت عال . . وتردد ثانية . . فقلت مرة أخرى: يا إلهى . . واحد من الثلاثة يلوح بيده نحوى . ينادى بأعلى صوته : رؤوف ! . . رؤوف ! . .

ومشيت إليهم فى خطى واسعة ، وأمسكنى صبحى من ذراعى وقال :

يا سيد رؤوف اذهب مع عماد ورشاد وسألحق بكم بعد قليل .

وأومأت برأسى موافقاً . . ولم أعرف إلى أين . وفى عربة عماد شعرت ببعض الدفء لمفشئ ، وانتقلت من محطة القطار إلى مقهى « أبو الهول » فى فينا الحى الخامس عشر .

المقهى بدروم فى مبنى قديم من ثلاثة طوابق ، تجتاز سلماً صغيراً من الشارع إلى باب المشرب ، ويتعين عليك أن تنزل خمس درجات من الخشب العتيق ، ومن الباب يوجد ممشى طويل يوصلك إلى جانبى البادى الليلى ، فى الجهة اليمنى البار والمطبخ وخشبه دائرية عليت عن الأرض ، عملت خصيصاً للمغنى أو الراقصة ، ووضعت ثلاث طاولات وسط خمسة كراسى لكل منها ، وفرشت أرضية هذا الجانب بسجادة رمادية اللون قديمة الصنع ، مرسوم عليها سفينة كبيرة وعليها صيادون ينشرون شباكهم فى البحر من فوقها . . أما الناصية اليسرى وهى الجانب الأعظم من المقهى ، فينتشر فيه ما يزيد على ثمان مناضد بعضها مستطيلة الشكل والأخرى دائرية ، يلف حولها أكثر من أربعين كرسياً ، وفى أركان ثلاثة ثبتت فى الأرض والحائط كنبه كبيرة ، وفى مؤخرة هذا الجانب ، أعدت منضدة للبلياردو ، وعند المدخل جهزت آلة قديمة على مقعد خشبى عال لسماع الموسيقى والأغانى ، ويديرها صاحب المقهى حسب طلبات الروّاد ، أكثرها اسطوانات

لطربين ومطربات من مصر ولبنان ، وعندما تصدح هـــذه الألحان تشعر وكأنك فى مقهى بكابرو ، يتطاير دخان السجائر كثيفاً وكأنه موجٌ متعرِّج ينجه لأعلى ، فيصطدم بالسقف المبطن بالقماش.. وكأنه موكيت فرشت به سماء النادى الصغير ، قنينات البيرة لاتخلو منهـــا منضدة واحدة ، الزبائن من مصر والهند والباكستان وقليل من فينا ، جلست سبع فتيات صغيرات السن على كنبتين ، لا يتجاوز عمرهن عشرين عاماً ، منهن أربعة شقراوات يصطحبن أربعة من الشباب السمر وخامسة لها وجه يابانى تصطحب رجلاً باكستانياً فى الثلاثين ، والسادسة والسابعة سمراوات يبدو أنهن من كابرو ، ومعهن رجلان يتجاوزان العقد الثالث من العمر ، وعلى بقية الطاولات يجلس رجال من مختلف الأعمار والأجناس . يضحكون ويثرثرون بصوت عال ، وآخرون يتجاذبون أطراف الحديث فى صوت خفيض ، وهناك أربعة من الرجال يلعبون البلياردو وآخرون يشاهدونهم . ويروح ويجىء بين الزبائن جرسونه سمراء ، جميلة متوسطة القوام ، لهـــا شعر أسود كالفحم ، مطروح على كتفيها دون انتظام ، وضعتْ أمامى طبقاً من القول ، وآخراً فيه جبن وزيتون ، وبيضتان وقطعة كبيرة من الخبز .

وقالت وهى تذهب :

ـــ أبلغتنى عماد بأن أقدِّم لك وجبة من الطعام . . وسكتت هنيهة ثم قالت :

ـــ وأى مشروبات تريدها . .

وكان كل من رشاد وعماد قد غادرانى ، على أن يعودا ومعهما صبحى بعد ساعة من الوقت ، وأعدتُ ساعتى ستين دقيقة إلى الوراء

لتوافق على توقيت فينا، الذى بدأت حقاربه تقترب من الثانية عشرة ..

رغم ما أعانيه من تعب أشعر بالانتباه واليقظة ، ومع ملهاة هذا المكان أستطيع الصمود حتى الصباح بلا سنة من النوم، من أين جاء هؤلاء الروّاد ؟ . ولماذا ؟ كيف تسير النساء هنا حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ وكثيرٌ ملأ رأسى ، وشحن عقلى بتطلّعات وتساؤلات عن هذا العالم الغريب ، وحاولت كبحَ جماح نفسى لمعرفة ما يدور فى النادى هذه الليلة ، الليالى قادمة والأيام طويلة ، فلِمَ العجلة ؟ ، مهلاً يا رؤوف ، إن هذا العالم يعرف نفسه وأنا الجاهل الوحيد فيه . لأننى لا أعرف حتى نفسى ، أنا متخلّف وجاهل وجامد لأننى أتوه من أول يوم فى هذا المجتمع . .

وانتهيت من تناول طعامى ، وشربت شاياً ، ثم أشعلت سيجارة ، دخّنتها دون أن أدرى هل يخرج الدخان من فمى أو أنفى ، أم أنّ هواءً قديماً يتصاعد استنشقته فى مدينتى وها أنذا أتنفّسُ هواءً جديدا ، وأرى شوارع وحوانيت ومركبات وحدائق وناسا ، سبحان الذى يسيّرنا فى البر والبحر ! . .

ونسيتُ أنى بدون بيت ، وكأن المقهى ليلى ونهارى ! أنا ذلك الرجل الذى ينسى من أجل ماذا جاء . . هل قدمت إلى فينا لأعمل بحثاً اجتماعياً ، أتعشّر مع أفكارى. ولم أستطع حزم أمرى ، اختلط العقل والعاطفة ، واندمجت مع رؤية مشوبة وغير واضحة لكل ما حولى، أنظر إلى الدنيا من خلال هـــذا الخليط ، الذى من خلاله لا أرى طريقاً واحداً أمامى...

وبعد مُضى وقت يناهز الساعة لم يخالطنى أحد من الرواد ، ولم

أتحدث مع مخلوق غير فاطمة الجرسونة ، وجاء صبحى وعماد ورشاد ، وجلسوا معى بعد أن هللوا بالتحية ، وأخبرت فاطمة صبحى بما قدمته من طعام وشراب ، وهمس صبحى فى أذنى بأن يجهز وجبة ثانية ، وأخبرته بأننى شبعت تماما ، فأبلغ فاطمة بتقديم السكاكولا ، ولما أحضرتها قام الجميع إلى طاولة البلياردو ، وعلا الضجيج ، وجاجلت أصوات النساء فى المقهى الصغير ، وأخذت فتاة سمراء تغنى لفيروز ، وصفق البعض لها بين الآونة والأخرى ، وقام شاب صغير السن ليرقص بالبلدى ، وشاركته فتاة تسوية ، وصفق الجميع كأنهم يقرعون طبلا ، الرقص الآن على الواحدة والنصف ، وعلا صوت المغنية ، واهتزت جنبات المشرب بالفرح والسرور ، وشعرت بغبطة عالية ، ولم تكن فاطمة سعيدة مثل النساء الموجودات ، وخاصة عندما نزلت الفتاة اليابانية إلى حلبة الرقص ، وبين الحين والحين تنظر إليها غضباً وشذراً ، ولم يبال أحد بها ، وفسرت ذلك على أنه غيرة نساء ، وذهب عماد ورشاد إلى البار ، وبدءا يتجرعان الخمر فى كؤوسه الزجاجية الرنانة مع آخرين . . وعلت أصوات الفتيات وبدأن يصرخن ، واشتدت حمية الرقص ، وعنف الركل ، كل واحدة تحاول إيقاع الأخرى على الأرض ، وقذفت كل منهن بالمعطف أو الجاكت الذى ترتديه ، وخرج البلوز من السروال أو الجيب ، وشمرت الأجساد عن ستائرها ، وعادت القمصان مخمورة مفتوحة الأزرار ، فبانت الصدور . . صدور ترتدى صدرية . . وأخرى حرة

طليقة . . بدون . . وكُشِفتْ البطون . . نوّرتْ المقهى القابع تحت أرض الشارع تحوّل إلى شاطىء ، وسبحت النساء مع كرات الدخان الكثيف وجرعات الكأس السكرانة ، وعطر النساء العابق فى الأرجاء ، والذى يتهادى بنعومة ورقة عند الأرداف ، ومع كل خصلة شعر تتمايل خلفاً وأماماً ، يا له من عنفوان الشباب فينتشا . . الليلة فى آخرها . . يتعبون . . حين تفرقُ الأنوف وتميل إلى الأرض العطشى . . الليلة فى آخرها ينتهون من عبثهم . . الليلة وكل ليلة تهتكُ الأسرار . . ودقّ شيءٌ فىّ ، وشعرتُ بهزة عنيفة فى جسدى ، وتململت فى جلستى ، ووضعت ساقاً على الأخرى ، وغاصتْ رأسى بين كتفى ، وهربت ذقنى فى صدرى ، وشعرتُ بأنّ رأسى الصغيرة تلتقط كل كبيرة وصغيرة كجهاز المخبترون .

ولم يكن الصخب اللذيذ فى حاجة إلى مزيد ، وسارعت فتاة مصرية إلى حلبة الدبكة ، وبدأ الراقصون يصطدمون ببعضهم ، وحاولت كل منهن التحرك إلى الأمام والخلف ، بخطى ضيقة تضرب الأرض بالقدم فى عنف ، مما جعل سيقان كل واحدة منهن تهتز على استقامتها فتصطكان معاً . . تتصادمان ، كمن يكسر عوداً من القصب فينشق . . ويخرج من بين شفتيه رغوة بيضاء فى لون الزبد ، هل تستطيع النسوة بهذا الرقص اللصيق العنيف كبح جماحهن ؟ . .

وقلت بصوت مسموع :

لو كان فى كل بيت رجل
لكبح جماح امرأته .
أسكتها فأسكنته فى بيته .
لم تجد المرأة هذا الرجل
فأحبّت هذه الحرية .
الرجل الذى تبحث عنه المرأة
ليس موجوداً أمامها .
ذهبت تبحث عنه فى الحوانيت والملاهى :
هل وجدته ؟ .
لم تجد رجلا واحداً
فأخذها كل رجل ليلة .
وظنت فى كل مرّة
أنها وجدت رجلها .
وأعادت الكرة من جديد
هذه الحرية . . خدعة للنساء .
أوقعوها فى الوهم اللا نهائى .
وهذه هى الحرية . .
« كلماتى لن تضيف شيئاً ، أعرف أنها ستنال سخرية الكثيرين .
إنها شطحات رجل تائه فى مقهى .

وارتكز خصر النساء ، يتحرّك كالكرة فوق مضرب ، لكن الردفين يهتزان برشاقه ، وقفز إلى الرقص ثلاثة رجال ، يرقصون فى خفة وحركة وانفعال .. فعاد الرقص كاملا غير منقوص ، كاللحن الذى اكتملت فيه آلاته الموسيقية ، وجاء صبحى وهمس فى أذنى قائلا : ـ أنت سعيد ؟ .. فقلت بصوت عال : جدا . وضحك صبحى وهرول إلى البار ، وسمعتُ من يقول بالعربية : ـ لعب الخمر بالرؤوس واختمر .

وقال ثان :

ـ عليهم أن يذهبوا إلى بيوتهم .

ونادى ثالث الجرسونة قائلا :

ـ هاتى عشاء السهر

وبدأوا يتكلمون واحداً بعد الآخر :

ـ أخذتها (مشيرا إلى راقصة بيضاء) فى ليلة والهوى إلى شقتى.

ـ لماذا ؟.

(عاصفة من الضحك) .

ـ ألا تعرف لماذا ؟ .. هيه لنبحث عن ما هوى واختمر .

ـ ثم ماذا ؟ .

ـ فتاة مجنونة ..

ـ لماذا ؟ ..

ـ أخبرتنى بأن صديقها سيغيب عنها لمدة شهر لسفره إلى إيطاليا ، وأن صداقتنا ستستمر إلى أن يأتى . وقالت إنها تحبه . . كما لم تحب أحداً فى حياتها غيره

ـ وماذا قلت لها ؟ .

ـ لم أتكلم معها بهذا الخصوص .

ـ وبأى خصوص تحدثت معها ؟

ـ قلت لك لم أتحدث . . لكنى قتلتها ليلة واحدة فقط .

ـ قتلتها ؟ . إنها هنا . . كيف قتلتها ؟ . :

وضحك الجميع فى مجون . . وقال واحد منهم : آه . . قتلها . . (وهز رأسه) . .

اقتربت عقارب الساعة من الرابعة ، وهدأت حركة المقهى ، استكان كل فى مكانه ، وخيم جو النوم على المشرب ، امتلأت المنافض بأعقاب السجائر ، وانفض لاعبو البلياردو إلى البار فى الجانب الآخر ، وجلست فاطمة تتشاغب فى أحـــد الأركان ، وارتمى الراقصون والراقصات على مقاعدهم ، وبدأ فاصل من القبلات الملتهبة ، دون وعى يقعدون ويقومون ويخلعون ويلبسون ، ولم أكن أرى ما يحدث فى الجانب الآخر من النادى الصغير ، غير أن الجلبة والأصوات وقرع الكئوس بدأت تهدأ ، كنت أعيش فى عالم ضيق محدود ، ومشاكلى مع مجتمعى الصغير تحملنى إلى رأسى مرض الضغط ، ولما انتقلت إلى العالم الواسع عبر حدودى ، أشعر فى الليلة الأولى ، أن رأسى لا يستطيع

استيعاب ماحوله ، وخرج منه المرض اللعين .. أريد أن أطلق صيحة عالية مدوية إلى من ؟ .. إلى هذا العالم .. لكن الصيحة تموت فى داخلى ، إن الصراخ لا يفيد ، لا يفيد فى عالم يصنع الناس فيه صداهم ولا يسمعونه ، فكيف يسمعون صراخ رجل محدود مجهول لا يفعل فى دنياه غير أن يرى ويسمع وينتظر .. أنا رجل كالمرأة فى بلاد السين يطول انتظارها وفى النهاية لا تعرف ماذا تنال ، ومن يخرجها من دائرة صنعها الآخرون لها ..

كيف أقدر على استيعاب هذا العالم الذى هبطت إليه فجأة ، إذا استطعت أن أقف على حدوده وأتفاعل معه وأندمج فى أحداثه ؟ ..

وأطبق الصمت على المقهى لدقائق ، ثم دوى صوت امرأة عالياً .. إنها الفتاة الفينوية الصغيرة :

« أيها العالم لا تتجاهلنى أنا امرأة ولى مطالب ..

ذهبت إلى حانات المدينة ليلة بعد ليلة ..

ولم أجده .. لم أجده ..

يا عالم الصغار .. فتحت أبوابك على مصاريعها

حين كنا صغاراً ..

وكبرنا فأوصدتها .. تركتنا نضرب برؤوسنا جدرانك ..

تفتحت فى الجدران طاقات ضيقة ..

لا تتسع حتى لرؤوس نسائك ..

هروات الفئران والثعالب والقطط . .

امتلأت دنياك بالذئاب والأسود والخرائب . .

أما الأرانب . . النساء والفقراء وبائعو الجرائد . .

أين هم يا عالم الفواحش ؟ . .

ضيّعت ما كان فى طفولتى نبيلاً .

إلى من أقدّم قضيتى ؟ . .

دعكم من قضيتى . . حافظوا على بقية آدميتى . .

وأطعموا الأرانب . .

حافظوا على آدميتى . . وقولوا أين الرجل . .

أين الرجل الذى يفتح لى بيتاً . .

ويعرف أن فيه ملاذى ؟ . .

أيها العالم لا تتجاهلنى . . »

وضربت الفتاة شريفاً على رأسه . . وصفّق الجميع بحرارة ، كأن كلماتها انتزعت شيئاً يعتملُ فى صدورهم ، وذهبوا فى فاصل من الضحك ، ونادت أخرى . . وهى نائمة :

يا جورج أنت مجنون بى . . هيه ؟ .

منتظرة من جورج أن يرد عليها . .

فأومأ إليها برأسه . . وسكتت هنيهة ثم استطردت قائلة :

ـــ أحبُّ فيك شعركَ الأسود الخشن . . ستذهب معى الليلة

إلى بيت أمي وأخبرها أنك صديقي ..

وضربها جورج على بطنها وشدها من رأسها .. وقبلها في عنف .. وقالت الثالثة وهي ترفع يدها مشيرة بإصبعها الى السقف:

ــ محمودا .. هل أنت نائم ؟ . استيقظ واسمعني ..

فلكزه جورج في كتفه ، فتنبه واعتدل في جلسته وقال : قولي ..

واستطردت الفتاة :

ــ لم تريد الزواج بي ؟ .. أخبرت أبي بطلبك لكنه رفض .. نصحني بالصداقة ..

وقال محمود : ما رأيك أنت ؟ ..

ــ أفضل الزواج بعد الثلاثين ، عندما أكون قد استمتعت بالصداقة . وأن لامتعة ولا لذة بعد ، أتزوج حين أقرف من الرجال ..

محمود : وأكون أنا رحالة إلى بلدي ..

ــ وأتزوج أنا واحداً من بلدي

محمود : هكذا أنت .. تصادقين من بلاد العالم .. وتتزوجين من بلدك ..

ــ لأني أحب أن أزور كل بقاع الارض ، السياحة حول العالم وأنا في مدينتي لا أتحرك منها .

محمود : سياحة لا تكلفك شيئاً

ــ بعض الوقت كل ليلة

محمود : وماذا أعجبكِ فى كان ؟ .

— مياه نيلها الدافئة . .

ضرب محمود ساقيه بكلتا يديه وقال :

— لو كان لى بيت فى بلدى لتزوجتُ ، ومافكّرت لحظة واحدة فى الرحيل

وسكت الجميع عن الكلام ، وقطع محمود الصمت عليهم وقال :

— سأتزوج سوزى

واتجهت سوزى نحوه فاتحة ذراعيها ، وأخذها فى أحضانه برقّة متناهية وقال :

— متى نتزوّج ؟

سوزى : نذهب غداً إلى ماما وبابا فى الضواحى

وذهبتُ فى نعاس خفيف ، ولم تغمض عيناى إلاّ دقائق معدودة ، وربتت فاطمة على ذراعى قائلة : لا تنم . .

ولمّا أيقظتُ بعيني فى أرجاء المقهى لم أجد أحداً ، رحل الجميع دفعة واحدة ، وانتابنى خليط من الخوف والدهشة ، وحاولت إخفاء شعورى ، واستدرتُ بوجهى إلى فاطمة قائلاً :

— لماذا لا أنام ؟ .

— اذهب إلى البيت

— ليس لى بيت . . أنا قادم اليوم فقط . .

ـــ أخرج إلى الشارع .

وهزّت كتفيها وسكتت هنيهة وقالت : ليتنى أفعل شيئاً ..

ـــ دعينى أنام بعض الوقت ..

ـــ صاحب المقهى هنا .. ولا يخرج إلا بعد أن يفتش المقهى .

ـــ قولى له .

ـــ يطردنى .

ومدّت يدها فى جيب سروالها وأخرجت ورقه مدّتها بيدها نحوى قائلة :

غادر صبحى المقهى فى الثالثة ، وأوصانى بإعطائك هذه الورقة .

أخذتها بيد مرتعشة وقلت :

ـــ ألم يقل لك شيئاً آخر ؟

ـــ لا شيء .

فضضت الورقة وقرأت :

« لم أحاول إزعاجك وأنت تشاهد الرقص . خرجت لأمر هام . تعال على هذا العنوان فى الرابعة مساء اليوم .. فينا التاسع عشر . مبنى جريدة الكرونا .. » إلى اللقاء .. صبحى ». ووضعتها فى جيبى بيد مرتعشة .. وقمت لأقف وقفة رجل مهدود القوى والحيلة وشكرتها ، وأخذت حقيبتى فى يد وصافحتها بالأخرى ، وخرجت من الباب الداخلى

للشرب إلى الدرج الموصل للشارع ، لا أعرف أين أتجه يمنة أو يسرة أو إلى الأمام ؟ .

وسرتُ ناحية اليمين ، ودخلت فى أول شارع ، ورأيتُ المدينة عند الفجر أو بعده قليلا ، لو ألقيَ بإبرة لكان صوتُ صداها هو أقوى ما يُسمع فى هذه الساعة ، وأخذتنى قدمان واهنتان تائهتان بلا هدى ، أهيم على وجهى فى شوارع وميادين وحدائق لا أعرف اسماً لها ، وانتابنى ندم شديد على مجيئى لهذه البلدة ، وسرعان مافطنت إلى أن ذلك مكتوب ويجب أن أكون قويا ، ووهنت فى لحظات أخرى ، وسقط رأسى على صدرى متثاقلا نحو الأرض ، وكان ضعفى كالسوط يضربُ على رأسى ، وداهمتنى مشاعر قاسية ، وسالت دموعى ساخنة وانسابت بغزارة تتحدثُ بقعاً على أرضية الشارع النظيفة ، ومسكت مراراً بجدران البيوت طلباً للمودة والرحمة ، ولم أجد واحداً يقف أمام منزله لأشكو له حالى ، انصرف الجميع إلى الداخل ، وليس هنا صلاة للفجر حتى يقابلنى أحد المصلين أثناء عودته ، ومسحتُ دموعى بردْن معطفى ، وواصلت السير كعابر سبيل ، وشدّنى ماحدث فى الليل ، وأن الراقصات المغنيات الصغيرات لهن أفكار الفلاسفة ! .

وفى المدينة مئات من هذه الحانات ، يحمل روادُها فى الليل أفكاراً وقصصا وروايات ! إنها مأساة الإنسان المنسية خلف أسوار عالية من اللا وعى ، وإن الليل البهيم الفاقد الوعى هو الخيط الوحيد من الوعى ، أو هو العقل المتوهج الذى لولاه ما استطاع الناس أن يقودوا نهارهم ،

إن كرات الدخان ورنين الكؤوس وعطر النساء ، إلى اختلاط الحابل بالنابل ، إن كان هبوطا إلى تحت وانغماسا في الطين ، هو في ذات الوقت انبثاق للحياة عند اليقظة ، في صباح يوم الاثنين حين يذهب الناس إلى عملهم من جديد كالنار والحديد الساخن .

وقطعت شوطاً كبيراً أجوبُ أرجاء المدينة النائمة ، وساعدني على ذلك خلو المدينة من الناس وجمال الطبيعة الخلاّب الذي أسرّني . هذه أشجار جميلة باسقة ، وتحتها سطيحات لها مدارج تغسلها حبّات الثلج ، وهذه الطيور بأنواعها وأشكالها تنزل لتأكل وتنقر وتلعب ، ثم تطير إلى فروعها وتعاود الكرّة من جديد ، وهناك تمثال متوّج بيّ فخم لملك أو زعيم ، والشعب من حوله عارى الرأس رافعا يده إلى الملك تحية ، وكثيرون من الرعية يصطفّون على الأجناب ينتظرون وهم يصفّقون .

وصعد شيء من قلبي إلى رأسي كالبخار ، وذلك عندما هويت بجسدي على أحد مقاعد الحديقة المجاورة الكنيسة كبيرة مرتفعة البناء ، وأخرجتُ خبزاً وقطعة كبيرة من لحم الروى ، وأكلتُ حتى شبعت ، ووضعتُ بقايا الطعام في لفافة ورق ألقيتُ بها في صندوق القمامة ، وذهبت إلى دورة مياه الحديقة التي بنيتْ تحت الأرض ، وعدتُ إلى نفس الكرسي ، وأخذني نوم عميق لكنّه متقطّع . وصدمت الشمس التي قليلاً ما تطلع أيام أكتوبر ، فعادت جرعات النوم دافئة ، ولما دقّت ساعة الكنيسة العاشرة ، تيقّظت بعد نوبة نوم

كفيلة بأن أبدأ يوماً جديداً فى المدينة ، وظهر بعد قليل من الوقت وحين بدأت عقاربُ الساعة تغادر توقيت العاشرة ، بدأت الحياة تدب حولى ، صوتُ الترام والعربات وحديث المارة ، علت أجراس الكنائس معلنة فتح أبوابها ، وبعد نصف ساعة بدا وكأن المدينة تنشغل بأهلها ، غير أن الأهل يوم الآحاد لا يعملون لا يشترون ولا يبيعون، يتنزهون ويلعبون ، يتزحلقون على الجليد خارج المدينة، ويستحمون فى حمامات السونا ، ويتوجه إلى الكنائس كما أرى كبار السن وقليل من الصبية الصغار الذين لا يتجاوز عمرهم الخامسة عشرة ، ووجدت فى مراقبة الذين يدخلون أو يخرجون من بابها الضخم متعة لا مثيل لها ، ورأيتُ خلف الباب ممراً طويلا ، لم تساعدنى ظلمة الرواق على اكتشاف نهاية هذا الدرب الممتد ، وجذب نظرى خروج رجل فى العقد الثالث من عمره ، يرتدى ملابس رثة ، له وجه أسمر وأنف كأنف البجعة ، يمشى وهو يتأرجح ويتلفت يمنة ويسرة ، كأن برغوثاً أو قملة على جنبه، ودخل الحديقة بقدمين تجران الأرض، وجلس على مقعد وتهدجت أنفاسه ثم فتح سحاب حقيبته، وغطّ يده فيها كالذى يغرف من وعاء عميق ، وسرعان ما خرجت المغرفة الآدمية بقطعة لحم سمينة ، وقضمها فى مرتين أو ثلاث ، وعزف ثانية وثالثة ورابعة ، وأخرج ورقة من جيبه مسح بها يده ووضعها فى حقيبته ، وأخرج حبات فاكهة كالكمثرى أجهز عليها بشراهة أسالت لعابى ، ولمّا انتهى بصق على الأرض مرتين ، ومسح أصابع يده اليمنى فى

حجر سرواله ، وأطبق على وجهه بكفّى يديه ، وتعلق بناظريه نحو قبة الكنيسة وبدا كأنه يقرأ شيئاً ، واستدار بوجهه نحوى فأطرقتُ إلى الأرض ، وسمعتُ خطى تحرف الأرض تقترب ، وتأكدت أنه هو لأنه الوحيد فى الحديقة معى ، ورفعت وجهى إليه فتلامست جبهتى بمعطفه الخشن ، ومد يده يصافحنى ولمّا همت بالوقوف أمسك بكتفى وشدّ على يدى بقوة ثم جلس ، وقال وهو يضع يداً فى جيب عباءته والاخرى على قاعدة الكرسى : متى أتيت يا أخى ؟ . .

رؤوف : أمس

— ومن ذا الذى أتى بك هنا ؟ . . وفى هذا الصباح ؟ . .

— أنا الذى أتيت . .

— منذ متى ؟ . .

— بعد الفجر بقليل

— لا فجر هنا

— لماذا ؟

— يعنى . .

وسادت فترة صمت . . ثم قال : أين قضيت ليلة البارحة ؟

— فى مقهى أبى الهول

— أتمنى ألا تذهب هناك ثانية . .

— ولماذا ؟

- لا يذهب هناك إلا المقامرون .

- لكننى قضيت ليلة تحت سقف

- ألم تسأل أحداً عن بيت ؟

رؤوف : سألت واحداً يدعى صبحى يعقوب

- سأحاول من ناحيتى .

- أين تعمل ؟ .

- فى جريدة الكرونا . .

- منذ متى ؟ . .

- عامين . .

- ولماذا كنت فى الكنيسة ؟ . .

- كل يوم أحد آتى لإحضار تموين الأسبوع .. لحم . . فاكهة .. خبـــز . .

- كل الناس تفعل هذا . .

- الناس يأتون إلى هـــذه الكنيسة ليعطوا . . وأنا الوحيد الذى يأخذ . .

- لماذا لا يأتى أحد معك ؟ . .

- لهم أنوف عالية (وسكت هنيهة) وقال :

معهم نقود . .

- أليس معك نقود ؟

ـ معى .. لكن عملى هذا يدبِّر لى كثيرا ، لا أنفق إلا فى حدود ضيقة ..

ـ كم تدفع إيجاراً ؟

ـ خمسمائة شلن ومائة أخرى مواصلات ونفقات طعام قليلة .. أنا لم آت المظاهر أو لأعيش ، أودُّ العودة فى أقرب وقت ..

ـ وما الذى تريد أن تعود إليه ؟

ـ ابنة خالتى .. كى أتزوَّجها

ـ وهل يحضر الأغنياء للكنيسة ملء هذه الحقيبة فقط ؟

ـ هذا قليل من كثير جداً ، وهناك غيرى لا أعرفهم ولا أراهم، وتعمل الكنيسة على ألا يرى بعضنا الآخر ..

ـ مع من تقيم يا .. ما اسمك ؟

جرجس : أقيم مع أحد المكانيين القدامى فى هذه المدينة

ـ ألا تأخذنى لأقيم معك ؟ ..

جرجس: الشقة صغيرة .. حجرة واحدة ينام فيها صاحب الشقة. وأنا أقعان فى الصالة الصغيرة .

رؤوف ـ ألا تستطيع أن تحشرنى معك فى الصالة ؟

جرجس ـ ليس فى مقدورى .

رؤوف : ألا تجد لى مكاناً فى بيت أحد معارفك ؟

جرجس : سأبحث لك .. ألن تأتى اليوم للجريدة ؟ .

رؤوف ـ بالتأكيد .

جرجس ـ أتريد بعض الطعام ؟

رؤوف ـ معى .

جرجس ـ ما نوع طعامك؟

رؤوف ـ خبز وجبن قديم .

جرجس ـ أعطنى قطعة جبن .

رؤوف ـ إنها قطعة واحدة تكفينى الليلة .

ووقف جرجس قائلا :

ـ إلى اللقاء فى الجريدة . . أتعرف عنوانها ؟ .

رؤوف ـ نعم .

وصافحنى واندفع إلى الشارع من أحد أبواب الحديقة ، وما زال يتمايل على جنبيه ، واستدار ناحيتى فجأة واقترب خطوتين من سور الحديقة وقال بصوت عال : ما اسمك بالكامل ؟

ـ رؤوف قطران .

واهتز رأس جرجس فوق كتفه ، وأمسك بأذنه محاولا تدفيق السمع وقال :

ـ قطران ! ؟ . . اسم أبيك قطران ! ؟ .

رؤوف ـ عائلة قطران ، عائلة أنشئت حديثاً عند مولدى أو قبله قليلا .

فأومأ جرجس برأسه ومشى يحادث نفسه :

— قطران . . قطران .. هيه .. قطران قطران .

ودخل الحديقة كثيرون ، وامتلأت المقاعد بأناس من مختلف أنحاء الدنيا ، عرفت ذلك من وجوههم ودمائهم وملامحهم ، فأهل المدينة قليلون يقصدون هذه المروج، وراقبتُ كل من حولى ، ولمـّا أرهقتنى هواية هذا النهار ثقل رأسى فأخذنى النوم ، وَغـفِوْتُ كثيراً فى نومتى ، انكفأت مرتين للأمام وكثيراً على الجنبين ، لكنّى عاودت نومى مستقيما فى جلستى .

وفى الثانية بعد الظهر صحوت وتناولت بعض طعامى ، وشربت من صنبور مياه يروى الحديقة ، وذهبت إلى المحطة المجاورة لأستقل الترام المتجه إلى جريدة الكرونا .

ولم يجد رؤوف مشقة فى الوصول الى مبنى الصحيفة ، وشاهد باعة من كافة أجناس الدنياومرّة ثانية وجد لذّة فى مراقبة الناس والاستماع لأحاديثهم ، وقابله صبحى وأبلغه بعدم إمكانية إيجاد سكن ووعده بأن الغد سيكون له بيت ، وأبدى صبحى أسفه لعدم استطاعته البحث عن عمل، وعلل ذلك بعلاقته السيئة بالشيفات هذه الأيام ، وشرح صبحى لرؤوف بأنه لن يحصل على عمل إلا بعد إيجاد السكن ، وذلك لأن الجريدة تطلب كارت إقامة موثق من البوليس ، يبين البيت الذى يسكن فيه البائع ، ولا يستطيع بوليس الحى اعتماد الكارت إلا بعد إمضائه من صاحب البيت ، وهذه إجراءات قانونية حتى لاتكون هناك مسئولية على الشيف أو الجريدة ، يصحب ذلك جواز سفر سليم

وبه فيزة إقامة سارية المفعول . . سياحة كانت ، أو عمل، أو دراسة .

وانصرف صبحي وصحبه إلى عملهم ، وبحث عن جرجس فلم يجده وتعلق بوجوه بني قومه عسى أن يسأل عنه أحد ، فلم ينظر أحد إلى وجهه ولم يجد من يقول له ماذا تريد ، ذهب الجميع في وقت يزيد على الساعه بقليل، رحلوا فرادى وجماعات إلى داخل المدينة لبيع الجرائد . وأمسى الليل ، وكان على رؤوف أن يعود .. لكن إلى أين ؟ .

أكان أميناً للحيـــاة في بلده ، أم كان سارقاً ؟ . . إنه على أغلب التقديرات كان أبلهاً .. الرحيل مصيره .. وفي هذه العاصمة يلقى حتفه .. وبدأ الطعام ينفد . ولا مأوى غير المقهى .. وكيف الحصول على عمل في وسط هذا الزحام المخيف عند مبنى الجريدة ؟ . إذا كانت الأبواب مفتوحة فمداخلهـــا واسعة . . والأرض رغم خضرتها فهي ملساء كالسطح الأملس .. من يستطيع السير عليها ؟ .

خرج رؤوف لينقذ نفسه فلم يجـــد ما يمسك به . . حتى قومه أشاحوا بوجوههم بعيداً عنه . . لا يرون غير جرائدهم وشلناتهم، ومشى على الأرض يتخبط ، وظنّ أن الحذاء تخلّى عن قدمه أو أنه غير مربوط ، وانحنى ليربطه فوجده محكماً ، وقرّر أن يرتدي بعد يومه هذا حذاءاً أضيق ، على أن يضع هذا الحذاء قبعـّة فوق رأسه لتحميه من البرد . ونقلته الشوارع المظلمة التي سار فيها إلى وسط المدينة . . ومنها استقلّ الترام إلى محطة استود بنهوف التي يعمل فيها صبحي .. وأخرج حقيبته من الأتوماتيك وأخذ منها بطانية من الصوف وضعتها

له أمه ودسّتها فى حقيبته الصغيرة ، ودفع رسوم يوم كامل فى صندوق الأتوماتيك ، تمنى أن يدخل فى الصندوق لينام ليلته فى دفء ، وحرص رؤوف حين دخل المحطة وخرج منها ألا يراه صبحى ، ونجح فى ذلك حيث كان يستتر بين الناس .

كانت الأضواء حول المحطة خافتة ، وحركة المارة دائبة نشطة ، والسيارات تسير فى أرتال متتالية كسلاسل موج يندلع ، ومن حين لآخر تمر عجلة بخارية أو عجلتان أو طابور منها . . وكأن كل واحدة منها فى سباق مع الريح ، ودق الوقت الثامنة ودوى فى الأرجاء رنين الأجراس من كل جانب ، ولمّا كان قرعها شديدا ، فإن أصوات الحياة حولها تصبح ضعيفة مهما قويت ، وثانوية مهما عظم شأنها . . فليس أجلّ من مناجاة الرب . . وسمعتُ صوت المؤذّن يدوّى فى أذنى وكأن الوقت فجر .. وكان قرع أجراس الكنائس مهيباً وقف له شعر رأسى ، وبكيت بدموع ساخنة ، وأجهشتُ بالبكاء من شدة الدمع ودرجة حرارته .

ولما كان كلٌّ يعرف مقصده إلا رؤوف ، الذى مشى حتى آخر السور . . ولم يجد بابا ولا مدخلا ولا رجلا مخموراً . . والتفت خلفه واستدار ثانية إلى الأمام ومشى بقلب أليفهُ الحزن .

وحتى يصل إلى نهاية السياج . . ينبغى عليه أن يسير لمدة طويلة . . ولفّه ظلام الشارع كلما مشى فيه أكثر ، والتفت حوله وركض بسرعة إلى الأمام لينتهى من سور الحديقة أو ليجد بابا يدخل منه . . وفجأة

توقف خيفة من أحد يتبعه، وجلس على حقيبته متهدّج الأنفاس، ولفّ رأسه بكفيه . . كان الليل ساكنا . . وهبط من سماء شجرة كبيرة عصفور صغير ، نقر الأرض مرتين ودار حول رؤوف كثيرا ، ثم طار إلى عشّه ، ودوى صوت قدم يخف بالأرض ، وسرت رعدة بجسده ، فنزع رأسه لأعلى ليرى صاحب الليل ، هكذا اعتقد رؤوف أن القادم سيكون صاحبه، فلم يبصر أحداً ، ووقف كالنصب . . وأمسك معطفه من أمام صدره . . وانحنى نحو الأرض يسترق السمع . . وتوقف حفيف القدم هنيهة .

واتخذت سيدة من إحدى الشجيرات على الرصيف المقابل ستارا لها . . وأخرجت قنينة فارغة من حقيبة تمسك بها . وقذفت بها مرة فى الهواء ثم صوبتها بكل قوتها نحو رؤوف .. الذى كان يرفع من رأسه وظهره المنحنيين قبل قليل فى محاولة لتدقيق السمع . . وتهشمت الزجاجة فوق صدره . . بعد اصطدامها بيده اليمنى .. التى انفجر منها الدم بغزارة .

جرى إلى الخلف يحتضن حقيبته على صدره ويضغط بها على كف يده المخضب بالدماء ، وسال الدم على معطفه وسرواله محدثاً بقعاً كبيرة . . وتناثرت نقط الدم متفرقة على أرضية الشارع القابع فى سكونه الشامل وتوقف حيث بدأ المسير فى هذا الطريق . . ووجد نفسه محاطاً بكثير من المارة ، وأمسك به رجلان اقتاداه إلى عربة البوليس الفولكس واجن الصغيرة وأدخلاه السيارة وجلس فى الكرسى الخلفى . . وحاول

أحد الرجلين إيقاف نزيف الدم من أصابعه بمنديله ، ولم تمض دقائق وحضرت عربة إسعاف نزل منها رجلان قاما بتطهير الأثر ، وأوقفا نزيف الدم ، وضمدا الجرح بكريم ، ولفّ الكف بقطعة من القطن ثم ربطه بشاش كبير أبيض ، ونزلت سيدة من عربة دورية أخرى تجوب المنطقة .. سيدة فى الخمسين تحمل حقيبة وترتدى ملابس رثة .. لها عينان بارزتان متورمتان وشعر قصير منكوش ، وشحنت السيدة بعنف بالمقعد الخلفى مع رؤوف ، وانطلقت الدورية إلى مبنى بوليس الحى ومعها الضبطية .. وهناك جلس رؤوف، على كنبة صغيرة وظلت السيدة واقفة لرفضها الجلوس . . وعـــلا وجه المحقق سيماء الضجر والتهـكم من المرأة ، وقذفـها رجل آخر بالحجرة يجلس بجوار المحقق بوابل من كلمات القذف واللعن . . وتجهم وجهها . . يبدو أنها لا تدرى شيئاً . . لـكنها شدّت شعرها للأمام وضربت بقبضتها وجهها بعنف . . فأمر المحقق بأخذها بعيداً عن غرفة التحقيق ، قام الرجل الجالس بجواره بتنفيذ ذلك ، وقال المحقق لرؤوف :

ـ من الذى قذفكَ يا لقنينة ؟

رؤوف : لا أعرف . .

الرجل : هذه المرأة ؟

رؤوف : لم أرَها

الرجل : لماذا اتّجهتَ نحو الغابة ؟ . .

رؤوف : أبحث عن مكان أستريح فيه . .

الرجل : المدينة ضيقة . . ليس بها مكان واحد يكفيك ؟ !

رؤوف : لم أجد مكاناً واحداً فيها . .

الرجل : لِمَ أتيت فينا ؟

رؤوف : لأنى فى مدينتى لم أجد مكانا . .

الرجل : ولماذا لم تتجه إلى الغابات أو الصحراء فى بلدك ؟

رؤوف : ذهبت ولم أجد

الرجل : وماذا تظن أن تجد فى بلادنا ؟

رؤوف : هذا ما وجدته . . (ورفع كفّ يده المصاب)

هزّ الرجل كتفيه وقال :

ـ أعطنى جواز سفرك . .

وناوله رؤوف جوازه ، وتلبّث فيه ثم هزّ رأسه قائلاً :

ـ حسن . . فيزة سياحية لمدة ستين يوماً

ـ سأحاول قبل انتهاء هذه المدة الالتحاق بجامعتكم

ـ أنت لا تجيد الألمانية . . فكيف تلتحق بالجامعة ؟

ـ سأتعلّم . .

مطّ الرجل شفتيه وقال :

ـ جائز

وقال رؤوف بانجليزيته التى يتضايق منها المحقق وتثير غضبه :

- هل انتهى التحقيق ؟ . .

- نحن نأسف لحجزك هذا الوقت . . ولكنها إجراءات .

وابتسم فى غيظ . .

وخيم على الغرفة السكون . . وخيل لرؤوف أن الظلام قد بدأ مع بداية هـــذه الليلة وأنه أصبح فى عتمة كالحة . . لا تفصله عنها إلا الأقدار . . أية أقـــدار؟ لا يعرف . . وراقبَ المحقق فوجده يمسك بأصابع يده اليسرى وجهه . . ثم أمسك بجبهته ودعك فيها بعصبية . . ثم هرش فى رأسه وقال :

- مدينتنا هادئة . . ولسنا فى حاجة إلى مزيد من المشــــاكل والضوضاء التى جلبتموها معكم .

ولم يرد رؤوف ببنت شفة .. فاستطرد الرجل يقول :

- نحن فى غنى عن هذه المشاكل . . كانت هذه الحديقة البعيدة تتجول فيها هذه المرأة بمفردها .. لكن الليلة يبدو أنها وجدت شريكاً لها .. أو أن شيئاً فيك أثارها .. هيه .. رغم مشاكلكم نحن فى حاجة إلى عملكم . . هى عملية موازنة .. اقتصادنا فى حاجة إليكم ..

رؤوف : اقتصادكم؟ .. (قالها وكأنه يسأل) . .

الرجل : اقتصاد اليهود فى بلادنا . . اليهود النمسويون الذين يسيطرون على اقتصاد البلاد . . يقولون لبرلماننا دائما من خلال ورقة . .

رؤوف : ماذا يقولون ؟ . .

الرجل : تريد الكانيين باعة جرائد فى فينا . .

رؤوف : لماذا ؟ . .

الرجل : يبدو أن فى ذلك ظاهرة للدلالة على شىء ما . .

رؤوف : أى شىء ؟ وأى ظاهرة ؟

هزّ الرجل كتفيه لأعلى وقال :

ـ يبدو أن فى الأمر مسألة اقتصادية . . أو ...

وأخذ رؤوف جوازسفره ، ودخل رجلٌ حادثه المحقق بلهجة ألمانية سريعة . . ولم تمض دقائق حتى صحبنى رجلا البوليس وفى نفس العربة ، إلى أين ؟ . .

مرّت العربة من شـــارع إلى ميدان . . إلى نفق . . إلى جسر . . إلى أن توقفت أمام مبنى كبير يشـــبه محطة قطار إستود بنهوف .. وفى أحد مخازن المحطة التى بنيت فى قاع النفق . . أُدخِل رؤوف . وأخبره رجل البوليس بأن هذا المخزن ينام فيه من لا مأوى له .. وفى الصباح يكون حراً طليقاً .. وإذا ضلّ طريقه ثانية يشحن فيه .. وفى الصباح يُفرَجُ عنه ليكون طليقاً .. وهكذا .. والهدف من هذا المكان هو مساعدة الناس الضالة غرباء كانوا أو من المدينة .. أى إعطاء الناس فرصة لإيجاد المأوى . وأن تكون المدينة خالية من أى متشرّد أو عابر سبيل . . تنظيف المدينة أو إخلائها من المتسولين .

زُجَّ برؤوف وسط مجموعة من « البشر » جاءت من كل بقاع الأرض ، فلما رأى . لم تستطع قدماه حمله ، خرَّ على الأرض واقعاً ثم جلس .. جاءوا من عالم واحد ، العالمُ الغنى الفقير ، العالم المُهنّز ، أرخص ما فيه الإنسانية وصاحبها ، وتذكر رؤوف العقل الذى كان يتوهج بالنور فى لحظات الأمل ، وكيف بدأ نفس العقل يعبر خيطا قاتما منحطاً ، لقد رأى الوجوم والتيه والحزن فأشاح بوجهه خجلا منهم ، إلا أن بعض الوجوه ابتسمت نحوه مشجعه ، ورحبَّ به رجل بولندى بأن ضربه على صدره ، فَندتْ عن رؤوف صرخة خوف وهلع من المحيط الرهيب الذى نزل فيه ، إن منزلاً يأخذهم إلى تحت ، إنَّ طاقة القوم نفذت واضمحلت وأصبح العالم بالنسبة لهم لطين والوحل آه منَ هذا العالم الحديث .. مُستنقع ؟ أم أن هذا العالم يقول لنا أنه يخلق نظامه وأخلاقه ، ونحن تصفية أخلاقية ؟ العالم مضطرب تصنعه طموحات شخصية وميكانيكية ، حتى القيم تبلورت فى ميكانيكية ، وما كنا نسميه أو نعرفه بقيم حقيقية قد انقضى ، انقضى بفعل ما امتلك موهبة الحياة دفعة واحدة ، إن ميكانيكية الحياة تقتلُ كل يوم ملايين البشر وهُمْ أحيـــاء ، إن كل شىء يذهب إلى القلب أو يعلو به عاد مرفوضاً ، إن قاتل الحياة فى قلوب الآخرين لا يصوِّب سكيناً أو رصاصة ، إنه يأتيك من حيث لا تدرى .. يجعلك تعيش لكنه يسلبُ منك كل الحياة ، إن عذاب هذا العالم لا يحتمل ، وإن قدرتنا الأخلاقية فى محاسبة هذا الواقع تتهاوى .. مادامت هذه القدرة متناهية فى الرِّقة

والحساسية .. ولابد لهذه القدرة من أداة .. إن ما أستطيع أن أفعله بعد تلك الأحداث المروعة الأثر والتى التفت حولى هو أن أتخيل أى معنى آخر للحياة ، ولم تساعدنى قدرتى على ذلك .. إن المسافة الواحدة الباقية بين الأرض والسماء هى الوحـــيدة دون المسافات التى أجد فيها خيراً وتنفساً ، إنها فقط تساعدنى أن أجد حداً لشىء اسمه البداية لكن .. النهاية ليس لها من حد . ولا يستطيع أى إنسان بما فيهم أنا أقلُّ الناس شأناً أن يجد حداً للنهاية . . فى كل مسافات الواقع وعبر قدرات التخيل . إن الشعور الخانق الذى يقبض على رقبتى فى هـذا المخزن جعلنى جثة هامدة .. وبالتالى ترنح العقل فى رأسٍ مهدد ..

حجرتان كبيرتان فى شكل مستطيل كأنهما عربتا قطار تنبعث من مصباحين أنوار حمراء خافتة ، فُرشت أرضيتهما بقماش سميك من الخيش يشبه ليف النخيل ، وانتشرت فى الأرجاء عدد من البالات كبالات القطن .. ومجموعة من الصناديق الخشبية الفارغة ، وجدران عارية مدهونة بطلاء داكن اللون .. مرَّ عليها وقت طويل دون إضافة أو تجديد ، واقترب منى رجلٌ نحيل الجسم غائر العينين .. ذو وجه كستنائى التجاعيد وقال :

ـ إذا كنت تريد أن تغتسل تعال معى

رؤوف : حقا .. لقد صنعت معروفا ..

أمسكنى الرجل من كتفى بيد رقيقة ، وقادنى أمامه إلى مؤخرة الغرفة الثانية .. حتى أوصلنى إلى دورة المياه وتركنى قائلاً :

ـ أنتظرك فى الخارج .

رؤوف : شكراً يا سيدى

قلتُها متقطعة ، وكان قلبى يخفق ويرتجف . .

وفى الطريق الذى قطعه رؤوف إلى الدورة ، رأى عدداً من القاعدين والنائمين من مختلف الجنسيات رجالا ونساء من مختلف الأعمار ، بعضهم افترش الأرض وتغطى بالخيش ، وقطيع دخل فى الصناديق .. وآخرون فوق البالات . .

وقضى يغتسل ربع ساعة أو يزيد .. وأكمل وضوءه ، وتبع الرجل إلى الغرفة الخارجية ، وطلب منه قضاء الصلاة ، فابتسم الرجل فى غبطة وقال :

ـ هذا أفضل ما تقوم به . .

رؤوف : صلِّ معى

الرجل : قلبى معك .. شيطانى قوى .. إنى أقاوم ..

رؤوف : ما الذى تقاومه ؟

الرجل : لا عليك .. دعنى وشأنى . . الدنيا واسعة

رؤوف : أين أصلى ؟

الرجل : تعال بعيداً عن الناس .

رؤوف : أين ؟

الرجل : فى هذا الصندوق المرتفع السقف .. وأشار بيده إلى صندوق

عند باب المخزن . .

واستطرد الرجل قائلا :

ـــ بعيداً عن هؤلاء النسوة . .

وجذب رؤوف سجادة الصلاة من حقيبته ودخل الصندوق وصلّى يومين ، وجلس بعد الصلاة يسبّح بذكر الله وحمده وتمنى لو ظل فى الصندوق طول الليل ، وأخرج بطانية أمه وفرشها فى الأرضية الخشبية . . نادى عليه الرجل قائلاً :

ـــ هل انتهيت ؟

رؤوف : نعم .

ودخل عليه الرجل مع صحبة من زملاء الحجز . وقال أحدهم :

كأنك تجلس وسط الحقل تحرُسُ قمحاً

وقالت فتاة :

ـــ أسعدتنا بهذه الروحانية

وقالت أخرى :

ليتنا نبقى هنا ولا نخرج إلى المدينة

وقال آخر :

لماذا أتيتَ هنا ؟ .

رؤوف : كنت أسير وسط الحدائق فضربتنى سيدة بزجاجة مفارغة . .

ـــ فقالت فتاة :

لو كنتُ منكَ لأخذت بثأرك .

وضحك الجميع . . وثرثروا حكاياتهم فى السفر والمـــدينة منذ قدومهم ، وسعد رؤوف بما سمع ، ورأى من صحبة صندوق المخزن . وشدّ حقيبته من جانبه وجذب منها لفافة الطعام . . بقية من خبز وقطعة من لحم الرومى وقدّمها وجبة شرقية أمامهم قائلاً :

ـــ تفضلوا . .

واندفعت بطونهم الخاوية تلتهم لقيمات من لحم لذيذ وخبز بلدى سميك ، ولم تستطع يدا أى منهم التقاط أكثر من عشر قطع خبز ولحم مغموس فى ملح ثقيل .. ولمّا انتهوا من طعامهم لم يجدوا ما يقدّمونه لرؤوف خيراً من مكان فسيح فى الصندوق . . ولأول مرة يخلد للنوم فى فينا وهو ممدّد الساقين ، ورغم أن جسده ورأسه ينبحان ويعويان من التعب ، إلا أنه وجد فى الاستماع إلى صحبة الحجز لذّة تدفئه وهو يذهب فى النوم شيئاً فشيئاً ، وكان صراخ الفتيات وهن يمزحن يسعده ويلهيه عن نومه ، ولم يكن يستطيع أحد فى الصندوق أن يقوم ليرقص حتى لو كان الصندوق واسعاً وله سقف عال ، إن أفكارهم جميعاً لا تأتى بحركات واسعة تملأ أى مكان ضيق فى هذا العالم .. كانت حركاتهم حبيسة وضحكاتهم ناتجة عن هزار يخرج من نفوس تهوى وتضعف ولا تعرف إلى أين .. إلى أين تذهب . . كأن للجميع قضية واحدة ؛ لقد خرج الجميع من أجل إيجاد لقمة عيش .

سعيهم فى الحياة ليس من أجل الحياة .. بل من أجل لقمة العيش .. فوجدوا أنفسهم فجأة فى مخزن الحجز ، وفى الصندوق الصغير وجـــدوا مكانا للدفء .. واعتدل عليه جنبه وهو يحضن رأسه بكلتا يديه ، وغاصت عظامه فى لحم جسده الطرى .. وفى جوف الليل انفرج جفن عينيه قليلا فوجد الأولاد والبنات قاعدين يغطون فى نوم عميق ، وشخيرهم يملأ المكان كله وكأن جزاراً يذبح عجلا ولم يستطع إكمال ذبحه حسب أصول الذبح .. فترك ذبيحته تشخر .. فلا هو يكمل ذبحه ، ولا هو يستطيع أن يعيدها إلى الحياة .. ألم للمذبوح .. وفشل للقصاب .. وضوضاء وجلبة فى كل مكان يذهب إليـــه قطيع البشر الفاقدو أسباب الحياة ..

وآلمته الصورة المفزعة .. بعد أن سمع قصص بعضهم فى أول الليل .. وعزم أن يكون أول من يهرع إلى الشارع حين يُفتح باب الحجز فى الصباح .. وعندما استيقظ كان أول من دخل دورة المياه ، وعاد ليرتدى حذاءه .. وحمل حقيبة .. وتسلل خارج الصندوق تجنباً أن يراه أحد .. إنه يخاف المشاكل .. ويفضل أن يواجه طريقه بمفرده دون مشاركة .. وسمع الباب يُفتح وانتظر .. فإذا بشخص يقول : ـ على الجميع أن يكونوا خارج المكان خلال نصف ساعة .. وقام أحد المصريين بالترجمة بعد انتهاء هذا الشخص من إعلانه .. وكنت أول من خرج من باب الحجز .. إلى أين ؟ .. إلى أقرب حديقة .. على جانب من شارع عام فيه خط للترام ، ودخلها وجلس على أقرب

كرسى . . وذهب فى النوم . . ولكنه سرعان ما استيقظ . . أيقظه الجوع وقال بصوت مسموع :

هل معى طعام ؟ . وأخذ يقلب فى الحقيبة . . وأخرج قطعة خبز كبيرة جفت من شدة البرد . . و بدأ يقضمها بفم مرتعش وأسنان مصطكة من البرد شديد . . والرأس لم تعد أفكارها تحتمل ، والعالم يضيق من حوله . . والطعام قد نفد . . وكل ما يحمله مع حقائبه من نقود يتجاوز المائة دولار بقليل . . ورغم جمال الحديقة الصغيرة . . لم يعد باستطاعة رؤوف التعرف على مظاهر الجمال من حوله ... ولم يعد يهمه أيضاً أين ينام الليلة أو ليال أخرى قادمة . . لقد أصبح كل شىء يساوى عنده لا شىء . . مرة واحدة أصبح كل شىء ساقطاً وتافهاً . . وفرغت حقيبته من الطعام ، وأصبح لزاماً عليه شراء غيره من حوانيت المدينة . . وهل يسعفه العدل إذا عثر عليه فى ايجاد كافة حاجياته من مأكل ومسكن وملبس ويبدأ العيش . . إن النقص الكامن فى قدرتى المادية المتضائلة هو الذى يجعلنى فى هذا العوز الدائم القابع فوق رأسى . لقد حلق الفقر فوق رأسه فى القاهرة ، وهنا يقبع بل يخنقه بكلتا يديه فى فينا . . هذه الفاقة يلزمها عنف للحصول على مقومات الحياة طالما أن العدالة لا تمد يدها للناس جميعاً . . ويبدو أن العدالة فى بعض الدول لا تمتد مظلتها لتشمل الناس جميعاً . . ولكنها لمجموعة محدودة من البشر . . أو تمتد إلى الذين لهم يد قوية . . هل العدالة تخاف الفقراء ؟ أم أن الفقراء أيديهم قصيرة لا تستطيع اللحاق بيد العدالة أو الإمساك

بها لتأخذ نصيبها؟. إن اليد التى تملك العدالة لابد وأن تكون يداً طاهرة حتى لا يكون فى المجتمع فقير أو محروم . . وإذا ملكت العدالة يداً تسطو . . فكيف تكون عدالة ؟ . ولا يمكن أن تكون يد العدالة طاهرة إلا إذا عرفت الله . . وبدأت هذه المعرفة فى كل المجتمعات الإنسانية ، تتضاءل ، فألحق الله تعالى بالأرض الزلازل والعواصف والفيضانات المدمرة . . وكأنها إنذار إلى البشر . . ورغم ذلك فالعالم يغرق فى ملذاته المادية بغير توقف ودون حدود . . أنا بقعة قذرة من هذا العالم القذر ، وهذا العالم عاجز عن أن يفعل لأنه عالم لا يعرف غير البطش ، فكيف أقعد فى مكانى وأتكلم عن العدالة ؟ إن الفشل الحقيقى يكمن فى أنى رحلت من بلادى . وكان السقوط نتيجة فشلى . . السقوط فى مدينة لا تعرف عنى شيئاً ، ويد العدالة فيها لن تعطينى شيئا إن كنت قاعداً أو مناضلا . . ومرت سيدة من أمامه على عجل . . ورجل عجوز . . وطالبه تحمل كتباً . . وسيدة تحمل طفلها على ظهرها . . وامتلأت الحديقة بالمارة . . ولما بلغ الوقت الثامنة والنصف كان يسمع المدينة من حوله . . أصوات أهلها . . ومركباتها . . ودخل الناس فى طلب رزق جديد من الله . .

واقترب من رجل ألقى عليه تحية الصباح بالعربية قائلا :

ـ صباح الخير

ـ صباح الخير .

ومد يده ، فقام رؤوف لمصافحته ثم جلسا ، وبدأ حديثه قائلا :

ـ من القاهرة ؟

رؤوف : نعم .

ـ أتيت قريباً ؟

رؤوف : منذ أسبوع .

ـ لماذا أتيت يا سيد . . ؟

رؤوف ـ رؤوف .

ـ وأنا فؤاد .

وكرر فؤاد سؤاله :

ـ لماذا أتيت ؟ .

رؤوف : لأعمل .

وحبس فؤاد ابتسامة كادت تنطق بها أسارير وجهه ، وكأن العمل في هذه المدينة أكذوبة . . واصطكت أسنان رؤوف ببعضها ، وهربت دقات قلبه داخل أحشائه ، وعلت الصفرة وجهه .

وقال فؤاد :

ـ هل وجدت عملا ؟ .

رؤوف : لم أجد شيئاً .

فؤاد : كل الناس عندما جاءوا لم يجدوا شيئاً .

رؤوف : وهل وجدتم بعد ذلك ؟

فؤاد : بالتأكيد .

رؤوف : كيف ؟

فؤاد : أن تترك صفحة حياتك فى بلدك تماماً .. اطو الصفحة الماضية.. أنت فى مدينة جديدة، واجهها بالجديد .. بدل هذا الثوب .. احلق شعرك هذا .. ارتد معطفاً جديداً وحذاءا جديداً .

فقاطعه رؤوف قائلا :

ـ كيف أبدله بغير النقود ؟

فؤاد ـ هذه نقطة الهدف ، وهى أيضاً نقطة البداية ، ستجمع من المال كثيراً أو قليلا بقدر ما تبدأ بطريقة صحيحة أو خاطئة . . وسكت هنيهة ثم تابع يقول :

أين تسكن . . ؟

رؤوف : فى مقهى أبى الهول ، وفى حجز الشرطة بمبنى أستوديو نوف، والحدائق والشوارع كما ترى .

فؤاد ـ والفيزة ؟ . ماذا فعلت بشأنها ؟

رؤوف ـ أنوى الحصول على فيزة دراسية .

فؤاد ـ هل أوراقك مستوفاة ؟ .

رؤوف : كافة الأوراق معى .

فؤاد : دع أمر الجامعة لى .. سأنجز لك إجراءات القبول .

رؤوف ـ كيف ؟ .

فؤاد ـ كفانا أسئلة . .

وأمسكه من ذراعه وقال : هيا .. قم من هنا .. تعال معى .

ونهض رؤوف من جلسته مرة واحدة ، وتشبثت أصـــابع يده بردن معطفه وقال: إلى أين؟ . إلى أين؟

فؤاد : ألديك أمتعة أخرى ؟

رؤوف : حقيبة وضعتها فى أوتوماتيك محطة ستودبيكر .

فؤاد : هيا نحضرها .

رؤوف : ثم ماذا ؟ .

فؤاد : نذهب إلى البيت .

رؤوف : بيت من ؟ .

فؤاد : بيت الجيران .. (قالها ضاحكا) .

وابتهجت طبول قلب رؤوف، وكاد يخرج من صدره من شدة الفرح وسكت رؤوف عن الكلام ، وكانت قدماه تدقان أرض الشارع رغم طبقة الثلج التى كسته . . واســـتقلا الترام إلى محطة القطار الدولى ، وأحضرا الحقيبة وساعده فؤاد فى حملها ، ثم ركب ترام آخراً بدا لرؤوف كأنه يسير إلى خارج المدينة . . وكانت معظم مقاعد الترام خالية ، وغالبية ركاب العربة من كبار السن ، واقتربت عقارب الساعة من الحادية عشرة ، وعاوده فؤاد قائلا :

ـ كيف القاهرة ؟

رؤوف : هى القاهرة

فؤاد : لا جديد فيها ؟

رؤوف : فيها جديد ، . لكن لم أجد شيئاً لى .

فؤاد : ألغيرك فيه نصيب ؟

رؤوف : قليلون الذين يأخذون .. تشعر وكأن مجموعة من الناس تشترى وتطبخ وتأكل ولا تترك فى الصحون غير الفتات ، فإذا جاء عامة الناس للحصول على هذا الفتات ، فيكون بتصاريح وإجراءات وطوابير ، لبعض الناس أحياناً ، ولكافة الناس أحياناً أخرى .

فؤاد : أليس فى الأرض جديد .. والبحر و .. ؟

رؤوف : كل يوم جديد . . لكنه لا يصل إلى الناس . . وقد يكون لتخدير الناس أو مغازلتهم .. آمال وهمية ..

فؤاد : والقوانين ؟ .

رؤوف : ما أكثرها .. إنها تأتى لحماية ناس وشنق ناس .. لا تأتى فى وضح النهار .. لا تراها كالسيف يطبق على الجميع .. القانون على رقبة الصغير كالسيف . . وهو دائماً فى يد الكبير لا على رقبته . . الصغير ممسوك مقيد . . مسير . . والكبير يلعب ويبطش . . ويتسلط وينهب . . ولا أحد يحاسبه .. حتى لو حاسبه أحد فلن يطبق عليه حكم أو قانون .. وإذا طبق فلابد من إعداد سجن خاص له كالقصر ، بعد

أن يكون قد هبش هبشة العمر .. يدعوه يعرق والقانون يحميه ..
كيف ؟ . حكاية طويلة .. بل حكايات ..

فؤاد : ظلوا يلعبون حتى لم نجد لنا مكاناً فى الملعب .

رؤوف : وهل يجد مثلى مكانا فى ملعب هذه المدينة ؟ . (وهز رأسه فى يأس)

فؤاد : فى ملعب هذه المدينة مكان للأجانب ..

رؤوف : ألك مكان جيد يا فؤاد ؟ .

فؤاد : فى كل مدينة مكان أزاول فيه عملى ..

رؤوف : وهل تلعب طول الوقت ؟ .

فؤاد : بعض الوقت لكى أتيح لغيرى أن يلعب ..

رؤوف : كيف ؟

فؤاد : لا تتعجل .. وهيا بنا ننزل المحطة القادمة ..

وفى شارع ضيق تكاد تحتضنه بناياته لضخامتها وارتفاعها ، سرنا قليلا فى اتجاه سير الترام ، ثم عرجنا يمينا لندخل أول باب بيته يقابلنا .. وفى الطابق الثانى عبرنا ممراً طويلا .. إلى أن قابلنا باباً فى نهاية الممشى ، وأخرج فؤاد كتلة مفاتيح من جيبه وفتح الباب ودخل قائلا :
تفضل يا رؤوف .. ثم تنهد وقال ثانية :

— هذا بيتى فى هذه المدينة

رؤوف : بيت جميل .

فؤاد : الزوجة جميلة

رؤوف : الجميل يتزوج أجمل منه ..

فؤاد : بالفعل كانت أجمل (وسكت هنيهة وتابع يقول) أجمل من الدنيا كلها ولكنها ..

(وسادت فترة صمت وقطعها رؤوف قائلا) : ولكنها ماذا ؟ ..

فؤاد : تركتنى وحـــدى فى مدينة أكبر منى . . ذهبت إلى العالم الآخر . .

رؤوف : هل حدث لها شيء ؟ . .

فؤاد : نقلتها حادثة سيارتها إلى ذلك العالم ..

رؤوف : لا تحزن يا عزيزى .. إنه عالم يقولون إنه أفضل من عالمنا . .

فؤاد : منذ عام وأنا أقول ذلك ، ولكنى لا أستطيع أن .. أنساها ـ كانت هرما من الحب والرعاية .. لقد أعطتنى ما لم تعط امرأة لرجل فى هذا العالم المليء بالرجال والنساء . . المال الذى حرمت منه طيلة عمرى ، البيت بأثاثه الذى تراه الآن ، ولن أحدثك عن شبابها وحبها الرائعين ، حتى لا أرتكب حراماً فى غرام امرأة جسدها وروحها بين يدى الله ـ آه لو نسيتها .. أنسى نفسى . . كل هذا العالم أفقده . .

وسكت الرجلان عن مواصلة الحديث ، وكان رؤوف قد جلس على

أول كرسى قابله وجلس فؤاد فى مقابلته .. ومرت دقائق خمس ، بعدها قال فؤاد :

اخلع ملابسك على هذا الكرسى ، وسأدخل لأجهز لك غرفة ، وعندما تنتهى سيكون الحمام جاهزاً ..

فقال رؤوف : شكراً لك أيها العزيز ...

فؤاد : لا تعاملنى بهذه الرقة ..

رؤوف : إن ذلك كثير علىّ .. كرمك هو الرقة الحقيقية ، لكن كلماتى هذه رقة متواضعة ..

وجد رؤوف فى الحمام سعادة ونظافة وهدوءاً . . أنواع كثيرة من صابون الحمام ذى الرائحة المنعشة والشامبو متعدد الألوان والأحجام وأنواع من الكولونيا .. و .. وقميص امرأة معلق فى مشجب خلف الباب . وخرج الطين من جسده .. طين له رائحة الثلج .. ويبدو أنه حاول أن يخرج من رأسه هموم ونكد ومعاناة الأيام الأولى .. التى قضاها فى المدينة ، وارتدى ملابس نظيفة وخرج من الحمام يرتدى بيجامة .. ووجد فؤاد يضع أطباقاً من الطعام على منضدة صغيرة بالصالة .. وبادره فؤاد قائلا :

ـــ هل أخذت حماماً طيبا ؟

رؤوف : نعم يا عزيزى ـ حمام غنى بالروائح الزكية ..

فؤاد : وبقايا من زوجتى ..

رؤوف : بقايا زوجتك ؟ ؟

فؤاد : ألم تر قميصا خلف الباب؟ ..

رؤوف : نعم .. (قالها رؤوف متردداً) . .

فؤاد : تركته زوجتي في آخر حمام لها قبل الحادث .. إن الحمام بقميصها له معنى وطعم ورائحة .. ألا ترى ذلك ؟..

رؤوف : أرى أنها عزيزة عليك .. وهذا من حقك . . احتفظ لها بأي شيء يضفي لك معنى أو ذكرى غالية عنها ، هذه هي المشاعر .. والمعاني الرقيقة الصافية التي يجب أن يحملها الناس لبعضهم في هـــذه الدنيا . . فكيف لا يحملها الناس وقد ذهب هذا البعض إلى حياة أجمل وأوسع وأبقى ؟ . .

فؤاد : هذا القميص كم مرة رأيته مخموراً أو مفتوح الأزرار .. كان قميصها يتطاير في ظلمة الليل لؤلؤة بيضاء . وصمت برهة وتابع قائلا :

وشعرها وعيناها و . . . و . . . و . . وهذه المعاني والأفكار الجميلة التي حملتها طيلة حياتها معي . . لي وللناس ولكل الحياة . . لقد كانت إنساناً وماتت بإنسانيتها .. وتركتني .. للشقاء وحيداً غريباً من جديد . . أشعر في كثير من الأوقات بأنها كانت أمي ، وتركت لي هذا البيت بما فيه .

ومر بعض الوقت كان رؤوف يحترم فيها حزن فؤاد ومشاعره ، وقال رؤوف :

– أريد أن أصلي .

فاعتذر فؤاد لعدم معرفته القبلة .

قال رؤوف :

ـ من أين تخرج شمس الصباح ؟ ـ

فأشار له فؤاد .

وقام رؤوف وصلى .. وبعدها .. تناولا الطعام .

وأخبر فؤاد رؤوفاً بأن وراءه أمراً هاماً خارج البيت ، وأن لرؤوف الخيار طالما سيظل فى البيت . . فى مشاهدة التليفزيون .. أو قراءة الصحف الناطقة بالعربيـــة أو النوم فى غرفة صغيرة خصصها فؤاد له . . وكان على فؤاد أن يعود أول المساء . . وتجول رؤوف بالشقة : صالة كبيرة .. ثلاث حجرات . . اثنتان منها للنوم والثالثة مكتب ومكتبة وعدد من الكراسى الفوتيه .. وطرقة تؤدى إلى الحمام وأخـــرى إلى المطبخ .. أثثت الشقة بأبهى الأثاث ، وزين الحائط بالمناظر الجميلة للطبيعة وأخرى لمتاحف وبعض الصور الشخصية ، ووضع فى أماكن كثيرة بعض التماثيل الصغيرة ومتوسطة الحجم . . لمريم العذراء ، وأخرى لكاردينال ، وثالثة لكاتدرائية ، والرابعة لامرأة عارية .. والخامسة لحصان مختال فى وقفته .. وفرشت الأرضية بسجاد سميك نظيف .

ولم يكن رؤوف قادراً فى مثل هـــذا الوقت على متابعة جرد محتويات الشقة ، واستراحت أعصابه فجلس بالصالة بضع دقائق ، وأخذ

رأسه طلباً للنوم ، وتأكد أن باب البيت مقفل بإحكام ، وعاد إلى حجرته الصغيرة وأوصد بابها .. وتمدد على سريره .. وشد غطاءً ثقيلا حتى رأسه وذهب الجسد المتعب في نوم عميق على سرير خشبي جميل الصنعة لم ينم على مثله قبل . . نوم فينا الهادىء . . نوم الناس الذين يملكون المأوى .

وبعد أربع ساعات من النوم العميق تقلب في فراشه .. انقلب على جنبه الأيسر ، ورأى في منامه شوارع ضيقه تزدحم بالمارة يرتطم الناس بعضهم بالآخر من شدة الزحام . . رأى أغناما معلقة في السماء أخبرته إحداها أنهم سينزلون إلى الأرض بعد عشر سنين أو أقل ، وأن مدينة في شمال العراق تهتز بناياتها بعنف شديد ، وتنفلق الأرض وتظهر بطون الشوارع . . كأنها بحور صغيرة بدون ماء ، ثم تتوقف الهزة قليلا . . وتعلو بنايات ضخمة شاهقة تشبه دور العبادة . . وتتوقف حركة الأرض وتثبت . . وتعود الحياة لمجاريها ولكن دون ارتطام بين الناس .. ويجرى شيء كالماء يغسل الشوارع، وتسقط السماء ماءاً غزيراً يملأ الأرض.. وتختفي الأغنام المعلقة في السماء .. ثم اختفى هذا الجانب من الرؤيا . . ويرى امرأة في سن أمه لا تتجاوز الستين عاما . . ولما تكلمت كان صوت أمه .. فقال لها :

ـ من أنت ؟

ـ أمك .

رؤوف ـ أنا أسمع صوت أمي .. ولكن أنت لست أمي .

ـ كما أنك لست ابنى ..

ـ لماذا ؟

ـ لانك ذهبت عنى ..

رؤوف ـ لأجد نفسى ..

ـ وأين وجدت روحك ؟

رؤوف ـ بين ضلوعى ..

ـ كاذب .. (صرخت المرأة)

رؤوف ـ يا أمى أريد امرأة .. زوجة .

الأم ـ النساء يملأن المدن والقرى .

رؤوف ـ هل تؤخذ المرأة من بيت أبيها دون مال ؟

الأم ـ سنبحث عن أب طيب .

رؤوف ـ لم يعد هناك آباء طيبون .

الأم ـ وهل وجدت المال ؟

رؤوف ـ فى الطريق إليه ..

الأم ـ ومتى ستعود ؟

رؤوف ـ عندما أجمع حفنة منه ..

الأم ـ لا يكفيك حفنة مال ..

رؤوف : حفنتان يا أمى ..

الأم ــ ستحتاج الكثير والكثير

رؤوف ــ إذن فأنت تقدرين حجم ديوننا ؟

الأم ــ متى ستعود ؟

رؤوف ــ فى صباح أحد الأيام .

وغربت الأم عن ابنها ، وجثم شيء كالكابوس على صدره ، وفزع فى نومه وانقلب على ظهره . . استيقظ وحمد الله على أنها رؤيا وقام إلى الحمام . . وعاد ثانية إلى سريره . . ليغط فى نوم عميق .

ولما عاد فؤاد فى الحادية عشرة وجد رؤوفاً نائماً . . فتركه حتى الصباح ، ثم أخذ فؤاد يقلب فى حقائبه وجهز بعض أوراقه ووضعها مع جواز سفره فى حقيبة صغيرة يصحبها فى أسفاره . وفى السابعة صباحا طرقت الباب امرأة قابلها فؤاد فى بهجة وسرور قائلا وقد أخذها بين أحضانه :

ـ متى عدت وكيف ؟

ـ الآن من محطة القطار إلى بيتك . .

ثم سارت بجانبه حتى حجرة نومه وكان الإثنان قد اندمجا فى عناق حار متبادل ، قبلات متهدجة وهمس وحديث ودود دافىء ، ولما جلسا على أحد الكراسى الكبيرة فى الغرفة قال لها :

ـ ماذا فعلت ؟

المرأة ـ أوصلت كل الرسالة .

فؤاد ـ من استلمها ؟

المرأة ـ نفس الرجل الأسود .

فؤاد ـ أعطاك القيمة ؟ . .

المرأة ـ بقى عشرة آلاف دولار سيرسلها فى البريد بعد أسبوعين، وأخرجت من حقيبتها ظرفاً صغيراً وناولته إياه . . ففتحه وأخذ نفساً عميقاً ينم عن الراحة والاطمئنان وهز رأسه وقال : أربعون وعشرة خمسون . . مضبوط . . واحتضن المرأة . . وخلعت منه بعد هنيهة وذهبت إلى الحمام . وعادت بعد دقائق . . وقامت تخلع ملابسها عدا الداخلية منها وارتمت على الفراش بجوار فـــؤاد . . الذى نام معها مدة ساعتين .

واستيقظ رؤوف ليشم رائحة عطر المـــرأة تعبق البيت، فشعر بالنشوة تملأ كيانه ، وسرعان ما انتهى من حمامه وصلاته . . واتخذ من أحد كراسى الصالة مجلساً ، وأيقن أن فى البيت امرأة حيث كان يسمع أصواتاً غريبة وهمهمة لم يتعود على سماعها من قبل ، وكانت الساعة تقترب من العاشرة، وفتحت الغرفة وخرج فؤاد والمرأة بجواره عارية إلا من قميص داخلى تؤديه دون حياء . . ورأى المرأة وكيف تكون بمعالمها وجغرافيتها، رأى امرأة أوربية شقراء لأول مرة فى حياته وتأهب شىء كالجنون فى رأسه . . انهر أو اندهش، خليط من مشاعر وأحاسيس ورغبات اعترته . . لكنه ما زال وسيظل جالســـاً فى

كرسيه دون حركة .. هكذا قرر .. ومضى بعض الوقت، وجلس الثلاثة على منضدة بالصالة لتناول الفطور الذى أعدته سوزان ، وكان طعاماً دسما مكونا من شرائح اللحم . . وبيض بالسمن . . وجبن ومربى وطبقين من الحلوى ، وقال رؤوف موجهاً كلامه إلى فؤاد :

ـــ أعرف أن الناس هنا تأكل قليلا .

وضحك فؤاد وقال :

قدمنا هذا الطعام من أجلك .. وسكت هنيهة ثم قال :

ـــ ثلاثة أيام سنقوم بهذه العادة .

رؤوف ضاحكا ـــ وبعدها ؟

فؤاد ـــ نعد لك قائمة حساب . .

وأشار نحو سوزان وقال :

تدفع لسوزان .

وتنهد رؤوف وقال :

ـــ ليتنى أعمل قريباً .

ويبدو أن سوزان فهمت ما قاله رؤوف ، وهزت رأسها نحوه وقالت بالعربية :

ـــ غداً .

فتهلل وجه رؤوف سعادة وقال :

ـــ حقاً ؟ . .

ورفع فؤاد يده لأعلى وقال :

ـــ بعد الانتهاء من إجراءات الجامعة والفيزه .. وغداً نبدأ فى تنفيذها. وأشار إلى سوزان .. فأومأت برأسها دلالة على الموافقة .

وانتهوا من طعامهم وتناولوا الشاى الذى أعدته فى خفة وسرعة متناهية .. وقال رؤوف :

ـــ ما نوع العمل يا سيد فؤاد ؟

ـــ عمل لطيف .. كمندوب لشركتنا فى إحدى الضواحى .

رؤوف ـــ ما هو نشاط الشركة ؟

فؤاد ـــ توزيع مواد كيمادية .

ثم دخل فؤاد فى حديث طويل مع سوزان بالألمانية .. واستنتج رؤوف أن فؤاداً مسافر إلى تركيا ويعود بعد أسبوع .. أما بقية الحديث فلم يفهم منه شيئاً .. وأخيراً تحدث مع رؤوف فأخبره بأنه ذاهب إلى استانبول لإنجاز بعض أعماله، وبعد عشرة أيام على الأكثر يكون فى فينا .. ولقد أخبر سوزان بعمل اللازم نحوه ، وأكد على رؤوف بوجوب الحركة والتأقلم السريع على الحياة الجديدة فى المدينة .

وبعد ساعة تقريباً غادر فؤاد البيت بصحبة سوزان .. يحمل معه حقيبة ملابس كبيرة وأخرى صغيرة .. على أن تعود سوزان بعد توديعه من محطة القطار .. قطار الشرق .. ان تعود إلى شقة فؤاد بل إلى شقتها .. وستكون هنا فى صباح الغد لتصحبه إلى الجامعة .

وقام رؤوف يفتح نافذة الصالة . . كانت ليلة من نوفمبر هواؤها منعش .. يعتلي سماءها القمر ، وتوائب رؤوف مرة ومرتين ، ثم ذهب يفكر فى عمله المقبل كمندوب مبيعات . . وتساءل عن إمكانية قيامه بهذا العمل وهو يجهل الألمانية، خاصة وأن مندوب المبيعات يتكلم كثيراً عن بضاعته ، وانتابه شعور بأن الحركة آتية والحياة تدق بابه . . كان يتوق إلى الرحيل إلى مكان بعيد عن عالمه الساكن الواهن الضعيف . . وها هو الآن يحضن نافذة عالم الحركة والقوة . . وتنبه ليشعر بالغبطة وبرطوبة الهـواء معـاً ، واستمرت أفـكاره تدور هنا وهناك نحو السماء وأمسك برأسـه يقبض عليهـا فلم يستطع إيقافهـا . . وكـانت السحب كعادتها تلف الأفق والقمر يحيطه الضباب . . كان عالماً هادئاً عالياً يحفظ فى مكنونه سراً كبيراً . . الفرق كبير . . الفرق كبير وشاسع بينه وبين عالمي الأرضى الذى ينبح فى ثورة لاحد لها . . وحيرة لا نهائية .. وكان ذلك الشعور الذى لف رأس رؤوف . . جديراً بأن يأخذه إلى فراشه لينام مع توقف أفكاره فى رأسه الذى ينبح . . وفى صباح اليوم التالى ركب مع سوزان سيارتها ماركة فولكس واجن الصغيرة المرأة الفينويه ذات الوجه الأبيض.. والقوام الملفوف .. والطبع الهادىء الصامت .. لا تتكلم إلا قليلا . . إنها امرأة عملية جادة لـكنها عاطفية إلى حد السذاجة . . حين تستكين إلى فراشها بعد عناء يوم أو ليل فى عمل . . فإنها تطلب حقها العاطفى كامرأة فى ريف أطيب وأبسط بلاد المعمورة .. هكذا أخبرت رؤوف فى الوقت الذى مر من البيت وحتى

مبنى الجامعة .

ومرت إجراءات التقديم بسهولة .. حيث تحركت المرأة العملية بنشاط وحركة ولباقه فى الحديث وكتابة الأوراق من واقع شهاداتى وجواز سفرى .

وقفت فى ثلاث طوابير قصيرة .. وقامت بترجمة الحديث الذى دار بينى وبين أستاذ الجامعة المختص بإجراء مقابلة المغتربين ، ويبدو أن الهدف من الحديث هو قياس لياقة أو مجرد رؤية للطالب لا أكثر .. ولم تستغرق ساعة ونيفاً .. وتم وضع أوراقى فى ملف صغير دبرته إدارة الجامعة فى مقابل إعطائى كارتاً صغيراً يثبت استلام الأوراق ، على أن أعود بعد أسبوع لمعرفة النتيجة .

وأثناء عودتنا أخبرتنى سوزى بأنها امرأة مطلقة من رجل سويسرى كان يعمل فى أحد المنظمات الدولية ، ولما سافر تركها وطلقها لرغبتها الحياة فى بلدها .. ولم تنجب منه .. وأنها تعرفت على فؤاد منذ أكثر من عام وأنها سعيدة بالعمل معه .

وكان معظم الحديث بيننا يتم بالإنجليزية والقليل منه بالألمانية التى يسهل فهمها على رؤوف .. ولما وصلنا البيت أسرعت سوزان بالارتماء على كرسى الصالة .. وجلست فى مقابلتها .. وأعربت لها عن شكرى .. فما كان منها إلا أن قالت إن هذا قليل من واجبها .. وبكل بساطة وانسيابية فى الروح أو المسلك ، أو بمنتهى السذاجة أو العاطفية وقد يكون منتهى الحرارة .. أن تقوم سوزى تخلع ملابسها عدا سروالها

الداخلي وتدخل الحمام لتستحم ، ويكون فى مقابل ذلك أن يضحك رؤوف من كل قلبه .. ويقول لنفسه بصوت مسموع: هذا هو العالم الذى لا يرحم .. هذا هو العالم الذى لا يكترث ولا يبالى .. أو هذا هو العالم فى منتهى البساطة . وكان عليه أن ينسى العالم الذى مضى، وعليه أن يرتدى حلة هذا العالم .. وعليه أن يدع سوزى لتؤهله كى يرتدى هذه الحلة .

ولما خرجت من الحمام كان رؤوف فى غرفته يخلع ثيابه ، وأخذ يتصفح الجرائد والمجلات التى وضعت بالعشرات على منضدة صغيرة فى غرفته ، واهتم بالصور والمناظر دون المواضيع والتحقيقات لجهله القراءة. كان يضطجع فى سريره وأخذه النوم واستيقظ بعد ساعة ، وقام يبحث عن سوزى فلم يجدها وعاد لينام ثانية ، نوما قلقاً .. وفكر فى الخروج إلى الشارع كأنه يريد البحث عنها خارج البيت .. ولكن شعوره بالجوع كان أقوى ، وذهب إلى المطبخ وتناول قطعتين من اللحم بلقمات الخبز ، وشرب الماء ووضع تفاحتين فى طبق وقضمهما بالصالة ، ولما انتهى ذهب إلى دولاب ملابسه ليرتدى منها حلة ويخرج . قبل أن ينتهى من ذلك ، سمع صوت المفتاح يدور بالباب ، وسار إلى المطبخ ليجدها تفرغ حقائب السوق فى سلة بلاستيك .. بادرها قائلا :

— أين كنت ؟

التفتت إليه وقد تهدجت أنفاسها وابتسمت تقول :

— عند صديقة لى فى اللاندا شداسه .

رؤوف : كل هـذا الوقت ؟ كنت سأخرج إلى الشـارع للبحث عنك .

سوزى : أسو « ياه » .. أسو « ياه » لا تحملنى كل هذه العاطفة .. لا تجعلنى أتعلق بك .. رجل يخرج إلى الشارع يبحث عنى .. يا لها من لهفة قاتلة ... وسكتت هنيهة ثم قالت :

— افعل .. إنى أتمنى ذلك .. افعل ما تشعر به وما يحلو لك .. أما أن تقول كنت سأفعل وكنت .. أنا أرفض ولا أحب ذلك .. افعل ما تشعر به .. عندما أغيب عنك ساعة واحـدة .. اخرج لتلقانى فى الشارع وتأخذنى إلى البيت .. أنا فى حاجه إلى رجل يشدنى من الخارج إلى البيت بقوة .. هذا ما أتمناه من زمن بعيد .. (وتنهدت وقالت) :

— إن الذين أخرجونا من البيت لا يريدون أن نعود إليه .. ولذلك عندما أخرج وأسير فى الشارع وحدى فإنى لا أجـد من يمسك بى .. أجدنى أترحلق رغم أنى فى داخلى أريد من يتمسك بى أو يمسكنى بقوة ، ولو وجدت الرجل الذى يفعل ذلك ما خرجت من البيت أبداً. أين هو الرجل الذى يحب البيت أو يحب امرأة فى البيت؟ . لقد أصبحنا نحن النساء نبحث عن عمل خارج البيت وليس هدفنا هو العمل فى ذاته، لكن صدقنى أنا كامرأة أبحث عن الرجل .. وهدفى الرجل، ولو وجدت الرجل الذى يمسك بى بقوة لاستمتعت فى البيت بكل حياتى طالما هو يحب البيت ويحب من فيه .

وأشارت بيدها نحو نافذة المطبخ وقالت :

أنظر .. أنظر .. هذا هو العالم مجنون خارج بيته . . لكنه يرى في ذلك حياته .. فقل لى معنى هذه الحياة .

وانبهر رؤوف من حديث سوزى ولم يقل لها غير كلمة واحدة :

— جود جود .. حديثك ممتع وأنا الآن أعرفك كامرأة لها قيمة .

فقالت بالألمانية وهى تهز كتفيها :

— ثم ماذا ؟ . ثم ماذا أيها الرجل الطيب الآتى من الشرق ؟ .

وانبهر رؤوف لحديث المرأة ، وانهمكت سوزى فى تجهيز الخضار وغسله ووضع كل نوع منه فى طبق ، ثم أوقدت نار الغاز ، والتفتت نحو رؤوف قائلة :

— سأعد لك طعاماً شهياً بعد ساعة .

رؤوف — المهم الحديث معك .

سوزى — بعد الغداء سنتحدث كثيراً .

رؤوف — هل تذهبين إلى بيتك .

سوزان — لا . . لن أذهب ثانية سأبقى معك من اليوم .

رؤوف — أتمنى أن يعود فؤاد قريباً حتى أعمل .

سوزى — آه لقد ذكرتنى .. سأذهب بعد الغداء بخصوص عملك .

رؤوف — أتمنى أن توفقى .

هزت رأسها وقالت :

— فى الثامنة أو التاسعة مساءاً سأعود إليك.. ونظرت إليه مداعبة مشيرة بأصبعها إلى مقلتيها وهى تقول :

— لا أريد أن أعود وأجدك نائماً .

وتناولا الغداء .. ولاحظ رؤوف أن سوزان كانت حريصة على الانتهاء من تناول طعامها بسرعة ، حيث قامت ومسحت يديها وفمها بالفوطة؛ عدلت ثوبها ورتبت هندامها.. وتناولت حقيبتها .. وخرجت بعد أن أكدت عليه ألا ينام .. خرجت إلى السيدة سكسونيا فى الحى التاسع .. وهى سيدة فى الأربعين من العمر .. متزوجة من رجل سورى يدعى أمين ، تعمل فى الصباح تاجرة فى السوق القديم .. يباع فيه كل ما هو قديم أو عتيق أو مستعمل ، وفى المساء تقوم بمساعدة سوزان فى أعمالها مقابل أجر.

وهناك أخبرت سوزان سكسونيا بأن هناك رجلا فى بيت فؤاد سينضم إلى العمل ، وقد أتى به فؤاد من حديقة .

قالت سكسونيا — منذ متى قدم فينا ؟

سوزان — أسبوعين .

سكسونيا — هل يعرف الألمانية ؟

سوزان — الانجليزية .

سكسونيا — لا بهم .. ألم يحضر معه شيئاً ينفعنا ؟

سوزان — غالباً لم يحضر . . وإذا كان معه شيء يكون فؤاد قد أخذه منه .

سكسونيا — اسأليه وأخبريني الليلة .

سوزان — فؤاد ليس هنا حتى أسأله ... سافر إلى تركيا .

سكسونيا — متى يأتي ؟

سوزان — بعد قرابة أسبوعين .

سكسونيا — بالطبع لن يعمل معنا حتى يأتي فؤاد ؟

سوزان — حسب ظروف عملنا .

سكسونيا — أليس في حاجة إلى ملابس ؟

سوزان — أخبرني فؤاد بأن ما يلزمه ملابس جديدة .

سكسونيا — عندي له ملابس جديدة .. وحقائب بحالة جيدة .

سوزان — سأخبر فؤاد .

سكسونيا — هل تريدين مني شيئاً الليلة ؟ .

سوزان — تعالي معي نسهر مع هذا الرجل .

سكسونيا — لا أستطيع الليلة .. أمين في فينا وسيحضر بعد قليل .

سوزان — كنت أريد أن تراقصه سوياً . هل تصدقين أني أميل إلى هذا الرجل .

سكسونيا : (فاغرة فاها) لماذا ؟

سوزان — رجل طويل جداً وعريض .. وله أنف كبير وفم جميل ولديه كثير من الخجل . . نوع غريب من الخجل . . قد أسميه الخجل الضرورى .. الخجل الجامد .. إن صحت التسمية .

سكسونيا — راقصيه وحدك .. أنا امرأة متزوجة .

وضحكت المرأتان كثيراً .. وكأن سكسونيا أطلقت نكتة ظريفة .

وقالت سكسونيا ثانية : رجال الشرق يعانون من الحرمان، أعطيه من كأس المرأة حتى يذوب خجله هذا الجامد الذى تسميه . . لنأخذ من طاقته فى العمل.. ألم يأت من أجل المال ؟.. سيأخذ هذا المال المنغمس .

سوزان : عشت طول عمرى تقريباً أتناول نقوداً كثيرة ومنغمسة .

سكسونيا : المال فى أراض كثيرة من هذا العالم . . أقصد المال الكثير دائماً مشوب .

سوزان : المال كان معى قليلا ، ولكن حاجياتى ورغباتى وقف هذا المال حائلا دون الوصول إليها .. مكان هذا المال الكثير .

سكسونيا — وأين هو ؟ .

سوزان — فى الحياة .. الحياة التى أحياها . . بيت .. سيارة . . مصاريف جارية . . حاجيات . . مأموريات دون توقف . . إننى أعيش فقط .

سكسونيا — التاجرات فقط لديهن الكثير منه .

سوزان — اكتشفت أخيراً أنى جارية . . سائرة مع الحياة دون

الالتزام بشيء .. ليس هناك مبدأ واحد عملت من أجله طول حياتي .. كنت طموحة فعملت من أجل الوصول إلى كل الحياة . . فلم آخذ شيئاً غير أن الحياة تجري في عروقي بكل ملذاتها .. وعندما أموت في لحظة .. فليس لدي حتى ابناً أو بنتاً يرث ما لدي من أسباب الحياة .

سكسونيا — لا تفرضي على الحديث طابعاً حزيناً .

سوزان — إن كل مواجهة صادقة بين امرأة وامرأة تولد ذلك الطابع الحزين . . أما وإن ذهبت الآن إلى البيت الذي يوجد فيه حتى هذا الرجل الشرقي . . فإن مبعثاً كبيراً من السرور يمحو هذا الحزن في لحظة .

سكسونيا — ترين لماذا ياسوزي ؟ (ولم تمنح الفرصة لصاحبتها بالرد) واستمرت تقول :

حين أراقص الرجال، حين يغيب أمين عن فينا أجد هذا المبعث من السرور ، وحين يأتيني أمين في ليلة تواجده هنا .. أجد هذا المبعث . . وعندما أجدني أعيش في عالم مليء بالنساء أشعر بهذا الحزن الكئيب والكراهية لهذا العالم .

سوزان — ألم تسألي نفسك مرة هل هذه سعادة حقيقية ؟

سكسونيا — لا .. لأنها ليست دائمة .. لكنها سعادة مصنوعة .. من صنع المادة والرغبة والحاجة إلى الرجل .. لكنها سعادة .. نعم هي سعادة .. هي السعادة التي نملكها، وهل هناك سعادة غيرها ؟ .

سوزان — بالطبع توجد سعادة حقيقية فى داخلنا . . ولكننا لن نستطيع أن نعثر عليها أبداً .

سكسونيا — لماذا ؟

سوزان — طالما أن هناك نساءاً يتطلعن إلى الحرية .

سكسونيا — وأن هناك رجالا مثل النساء .

سوزان — إذاً فهناك شىء قد انفجر . .

سكسونيا — أشياء كثيرة .

وسادت فترة من الصمت بينهما . . كان الألم فى رأس كل منهما يتزايد من لحظة لأخرى ... وأنهت سكسونيا هذه المواجهة بأن قالت :

سكسونيا — اذهبي إلى الرجل الشرقى وراقصيه .

سوزان — لا يعرف الرقص . .

سكسونيا — علميه الرقص .

ولما عادت فى العاشرة وجدت رؤوف يغط فى نومه ، فابتسمت وأضاءت أنوار البيت وخلعت ملابسها ، وارتدت قميص نوم بلون البنفسج قصير فوق الركبة .. وعليه روب طويل أبيض صنع من الحرير والقطن . . وذهبت إلى فراشه يسبقها عطرها الذى انتشى به أثاث البيت وستائره الرقيقة قبل أنف النائم عاشق النوم . . وضعت يدها على رأسه وأخذت تدلك بأناملها الرقيقة جبهته العريضة . . وبدأت فى الغناء قائلة :

«أيها الرجل الشرقي انظر إلى عيني .. تجد فيهما بريقاً ، بريق الأمل» أحبك الليلة حتى الصباح .. هذا ما أملكه . وغداً قد أحبك . . إذا لم يأت الغد بأحد الرجال . . ليس كل الرجال يدقون قلبي . . مثلك أيها الرجل أيها الرجل الشرقي . . ألا تسمعني » .

وعلا صوتها تكرر ما قالته ، واستيقظ رؤوف وانقلب على ظهره ولف ذراعه حول جسدها وقال :

— متى جئت ؟

سوزان — في قطار الليل الذي يصل محطة النائمين عند الحادية عشر مساء ! . .

وأمسكت أنفه وشدت شعر رأسه ، وانحنت فوقه لتضع رأسها على جبهته .

واطمأنت سوزان من يقظه رؤوف .. وبرقة متناهية انسحبت من بين يديه ومن فوقه . وقامت تمشي إلى المرآة المعلقة بالحائط . . وخلعت قرطها وألقت به على منضدة صغيرة ، واستدارت نحوه تقول في دعة :

— أترقص معي ؟

رؤوف — لا أعرف الرقص

سوزان — ألشرب ؟

رؤوف — شربت من الصنبور قبل نومي .

سوزان — أأحضر طعاماً ؟

رؤوف — أنت طعامى الليلة .

وتعلم من المرأة ما كان يجهله فى حياته ، وتزوج من مجتمع الحرية امرأة دون التزامات أو قيود ، ونسى الألم الذى كان يلازمه بزواجه من امرأة فى بلده ، علاقة جارفة ملتهبة . . علاقة امرأة مجربة برجل عذرى . . وأدركت سوزان أنه رجل تل . . تغرف منه سنين دون أن يختل على أن لا يعرف غيرها .

وحضر فؤاد بعد أسبوعين . كان متعباً مرهقاً لايتحدث مع أحد حتى مع سوزان . . ذلك الحديث عن السفر وعن رحلته وعن . . ذلك لم يحدث . . وكل ما قاله لرؤوف . . أن شد على يده . . وسأله عن حاله . . وانصرف إلى غرفة نومه . . ودخلت معه إلى فراشه امرأة رومانية جميلة أخبرتنى سوزان أنها صديقته الحميمة . . ويبدو أن فؤاد فضل أن يكون وحيداً بالبيت ، ورحبت سوزان بهذه الرغبة ، وأخذت رؤوف يسرور إلى بيتها بعد أن أبلغته أن فؤاد يفضل البقاء وحده . . وما حيلة رؤوف أن يرفض؟

وفى اليوم الثانى لوجوده فى بيت سوزان بدأ العمل . وكانت أدوات العمل . . حقيبة جلدية متوسطة الحجم لها يدان كبيرتان . . مثل حقائب ربات البيوت . . عدد خمسين جورنالا . . « دى برسه » بتاريخ اليوم ١٦ نوفمبر . . جاكت أزرق من الأمام . . أبيض من الخلف . . كتب عليه أماماً وخلفاً دى برسه بالألمانية . . وهى جريدة سياسية واقتصادية بحتة . . حقيبة ملابس متوسطة الحجم . . قائم بلاستيك لحمل الجرائد . .

المكان نفق محطة القطار الدولى « ستودينهوف » .. يبدأ العمل فى السادسة مساءاً .

وضعت العدة فى حقيبة السيارة .. تلمس رؤوف أدوات كل العمل بيده ، وذلك محاولة منه للتدريب عليها .. وانطلقت السيارة فى الخامسة والنصف وبعد وقت لا يعدو خمس عشرة دقيقة .. توقفت المركبة فى شارع جانبى مظلم قرب حديقة صغيرة ، وأطفأت سوزى أنوار الفولكس وقالت وهى تضع يدها على بطن رؤوف :

— ننتظر قليلا .

رد رؤوف وهو يرفع يدها عنه حتى لاتدرى بانفعالاته :

— لماذا . . ؟

سوزى : امرأة صاحبة طباق .. تعمل معنا . . لها محل طباق فى نفق المحطة .. ستقف بجوارها أثناء عملك .

رؤوف — وماذا تريد منها الآن ؟

سوزى — لا شىء .. ستتبعها حتى أصل لمكانك . . تقف بجرائدك على يمين طباقها . . ضع « دى برسه » فوق الحامل ، والحقائب تحته .. فى السابعة يأتيك رجل متوسط القامة وجهه شديد الحمرة ، كل ما يرتديه أسود ، قبعة ونظارة ومعطف وحذاء ، كل شىء فيه أسود إلا وجهه .. يقترب منك ، يعطيك خمسين شلناً ورقية ثمن جريدة .. لاتعطه باقى النقود .. يتوقف ، يتصفح الجريدة . . لن تمر دقيقة سيناولك ظرفاً أبيض خذه

منه .. فى نفس اللحظة تقع الجريدة من يده قرب الحقيبة الصغيرة ينحنى ليأخذها مع جريدته . . أقول ثانية ؟ .

رؤوف : قولى..أنا غبي .. أنا..(كان يريد أن يقول أنا خائف..)

وكررت عليه . .

وقال : كفى . . فهمت .

سوزى — مهمة صغيرة .

وتنهد رؤوف بقوة وقال :

أجرب .

وأمسك جبهته بأصابع يده اليمنى وراح يدلكها بعصبية كمن يحاسب نفسه . . وقال لنفسه : لا ينفع الآن حساب أو جبر . . الليلة عمل ولابد أن أنجح .. لقد قبضت العربون الكبير؟.وقاطعته سوزان قائلة:

— حضرت المرأة، هاهى ذى، أتراها ؟ التى تمسك كابا..انزل وخذ الحقيبة واتبعها . . كن على مسافة بعيدة منها . معك عنوان البيت . .

عد إلى البيت بالتاكسى .. عندما تنتهى عد .. لايهم بيع الجرائد .

بالقطع أحمل سراً فى الحقيبة .. مواد ممنوعة . أو غير مصرح بها .. أخالف القانون فى غير بلدى ... مصيبة ... إذاً المال كثير ... تعال أيها المال : سوف أعرف مقداره عندما أعود إلى البيت . . ومن شارع إلى آخر تبعتها . . واستدارت صاحبة الكاب لتعدل من سلسلة حول

رقبته كنا قد اقتربنا من ميدان المحطة .. وجالت بفيها نحوى وتفحصتنى ملياً .. سيدة تتجاوز الخمسين عمراً .. بدينة ذات شعر أبيض يملأ رأسها .. جمالها دون المتوسط .. ترتدى ملابس رمادية واسعة ، تمشى على مهل مداعبة الكلب .

هل لى أن أطيل ؟ .. أحتاج إلى مجلدات إذا فعلت ، لكن يا سادتى باختصار قمت بالعملية كما خططت لى .. وجاءنى الرجل الأسود فى الأسبوع ما بين ثلاث إلى أربع مرات .. ولما كان يأتى ليأخذ الحقيبة كانت أوصالى ترتعد ، ويتصبب العرق من جسدى كأنه سيل جارف رغم برودة الجو .. واعتدت أن أنصرف بعد إتمام العملية بنصف ساعة أو يزيد قليلا .. ولاحظت أن سيدة الطباق تراقبنى وتبتسم ابتسامة تملأ وجهها ، حين أستلم من الرجل المظلم ظرف الشيك . واستمر العمل شهراً دون أن أرى فؤاد .. وأنا أقطن فى بيت سوزى المرأة التى تعاشرنى كزوج .. وكانت سوزان تتولى صرف الشيك من البنك فى اليوم التالى ، وعندما تحضر إلى البيت أراها تضع النقود الورقية بإحدى الحقائب الصغيرة وتذهب بها إلى فؤاد .. وتناولنى خمسمائة شلن عن كل عملية .. وكانت التعليمات أن الإقامة والطعام على حساب المجموعة .. التى لا أعرف منها إلا فؤاد وسوزان .. ومن خلال عملى وحديثى مع سوزى .. علمت بأن سكسونيا وزوجها أمين ، وأن هناك تسع نساء فينويات غير رفيقتى ضمن المجموعة ، وأن فؤاد هو أقوى رجل فى مجموعة فينا ، وأنه لا يوجد رجل نمسوى واحد يعمل فيها .. ولما سألتها : لماذا هو أقوى الرجال

فيها؟.. قالت عنه إنه خطير . . قوى . جسور.. قديم فى العمل . . يجيد الألمانية .. وأن زوجته المتوفاة كانت عضواً قوياً فيها ، وهى التى عرفته بالرجل اليهودى .. ولما سألتها عن الرجل اليهودى، قالت إنه يدير كل هذه العمليات فى عدد من البلاد غير النمسا ، وإنه مليونير يهودى يمتلك محلا لبيع الملابس والأدوات الكهربائية فى شارع ماريا هيلف إشتراساه. وسألت سوزان عن تورط عدد كبير من نساء فينا فى هـذا العمل . . أجابت أنه ليس تورط .. اختيار . . مال كثير . . ثم إنهن مجموعة من النساء تم اختيارهن بعناية لتمرُّدهن .. وأن التى تعرف بتمرُّدها على أى مظهر من مظاهر الحياة فى فينا تعرف لدى رئيس المجموعة بواسطة خبراء له . . يعرفون المجتمع بعمق ، يأخذونهن من بيوتهن أو المقاهى أو الملاهى والبارات . . وتؤخذ الواحدة منا يعمل لها تدريب وغسيل مخ أو شىء مثل ذلك . . حتى تصبح مجـردة من الوفاء لأى شىء إلا المادة .. وتقول أن معظم هؤلاء النساء إما يكرهن بطبيعتهن الرجل الأبيض .. أو تجرى لهن محاولات للوصول إلى هذه النتيجة . . ولـكى يسيطر على مجموعته تماماً . . خصص لـكل إمرأة رجلا ليتم احتواء المجموعة .. المجموعة تحتوى على نفسها بأفرادها . . وكل هؤلاء النسوة لهن رجال غرباء . . من أفريقيا وآسيا .

وسألتها كيف تم إحضارى بواسطة فؤاد ؟ . قالت إن فؤاد هو الذى اختار أكثر من نصف رجال المجموعة . . هو كشاف .. ويتقاضى أجراً عن كل عمل يقوم به .

لكن لماذا قالت سوزى هذه الأسرار لرؤوف وهو ما زال حديث العهد بالعمل؟ . هل أحبته؟ عشقته؟. أم لشعورها بأنه أمين؟. وهل هو أمين؟. قد يكون سبباً واحداً منها . . أوهى فى مجموعها جعلتها تبوح .

ووضح جلياً لرؤوف أنه أحد أفراد مجموعة تقوم بأعمال غير مشروعة وكل شىء له ثمن .. إقامة كاملة .. امرأة تعطيه من جسدها ما يريد . . وهى فى نفس الوقت رئيسة عمل .. ومقابل عشرة آلاف شان على وجه التقريب فى الشهر الواحد .

ومضت الأيام . . وأدرك الرجل اليهودى أن فؤاد أصبح كبيراً . . خبرة فى العمل . . طلاقة فى اللغة . . اتصالات مع مجموعات أخرى فى فينا وغيرها . أى بلد يسافر إليها .. المال وفير .. إنه يستطيع أن يعقد صفقات لحسابه دون أن يدرى أحد من المجموعة حتى الشيف نفسه . . وهذا أمر بالنسبة للشيف يستحق الدراسة وإعادة النظر . . وكان رأى أحد أفراد المجموعة حين استشاره رئيسها . . أن يتم استبعاد فؤاد وإجباره على السفر نهائيا . . وكان رأى الرئيس أن فى ذلك خطراً على المجموعة لأنه قد يبلغ عنها بعد الرحيل .

وراح الرئيس يفكر فى الأمر أياما كثيرة . . ولم يجد غير المرأة الرومانية الأصل .. ذهبت إليه فى استانبول آخر قطار الشرق . . أحد المصبات الرئيسية لتلك المواد . . من هناك تذهب إلى بلاد الشرق ،تذهب وتذهب معها أسرارها .. إلى با .. إلى الم .. إلى إسرائيل . إلى ..

وحضرت المرأة معه إلى فينا لإنهاء بعض الأعمال ، واستحوزت عليه بعض الشيء ، وكانت التعليمات النهائية أو المهمة الرئيسية للرومانية «فال» أن تعرف رقم واسم حسابه السرى بالبنك . . ولما سألته لماذا ، قال لها ليتم سحب الرصيد . . وماذا بعد ؟ . فقال لها الرئيس بريجل إنه وقت سحب الرصيد يتم قتل فؤاد بمسدس كاتم الصوت . ولما استفسرت المرأة منه عن القاتل نهرها بيده صفعة لوت وجهها كله . . ولما استعادت قواها بعد أن خارت على الكرسى . . قال لها : اخرجى وتفذى . . المكافأة فى انتظارك .. مائة ألف شلن .

وكان فؤاد قد أرسل من استانبول رسالة إلى الاسكندرية يستدعى فيها شقيقته صباح .. وأخبر السيد بريجل فؤاد حين علم بوصولها . . أن تقضى ثلاثة أيام فقط لحساسية العمل هذا الوقت . . لكن فؤاد ضرب بتعليماته عرض الحائط مما أثار حنقه عليه .

وحصلت الرومانية على رقم واسم حسابه السرى بالبنك ، وأبلغته للرئيس بريجل وهو Demo Krat . وبعد أسبوع زارت شقيقته كل مكان فى المدينة ، وقرر فؤاد أن تعود شقيقته .. بعيداً عن أية متاعب ، وحتى لا ترى أو تلاحظ شيئاً . . وقام فؤاد بصرف شيك قيمته مليون شلن ؛ أى ما يساوى ستين ألف جنيه مصرى . . وعمل إجراءات السفر ، واشترى أبهى وأفخر الملابس والهدايا ، لها وللأسرة . . ووضع المبلغ فى حقيبة عمل صغيرة ، اشتراها خصيصاً لحفظ الأوراق المالية . . وسافرت الشقيقة . . ولم يكن بريجل يستطيع إيقاف عملية

الصرف هذه حق ولو سحب كل حسابه .. وعلم أن باقى حسابه مليونان ومائة وخمسون ألف شلن .. أخبره بذلك رجل من البنك يعمل معه نظير مكافأة شهرية .

وبعد يومين أبلغتْ فال فؤاداً بأنهما سيذهبان إلى سالزبورج فى مساء الغد ، وأوضح الرئيس بريجل فى رسالة بعث بها إلى فؤاد بتفاصيل المهمة .. وأن فال ستصحبه . وفى الثامنة من مساء اليوم التالى غادرت السيارة يقودها فؤاد إلى مدينة سالزبورج ، وبعد زهاء الساعة تألمت فال من مغص شديد يكاد يمزّق أحشاءها .. وتوقف الرجل على جانب من الطريق ، والذى يقع تحته جرف سحيق.. يؤدى إلى غابة كثيفة من الأشجار الضخمة ، فتحتْ المرأة أزرارها .. وانحنى عليها فؤاد يدلك مكان الألم فى بطنها وصدرها .. وتأوّهت وتدللتْ كأن الألم يعتصرُها .. ودَعتهُ بعينيها وفمها .. ليقبلها قبلة واثنتين وثلاث .. وتركته .. واندمج .. وسكنت هنيهة وفتحت سحّاب سروالها ، ثم سحبت مسدسها من جرابه المعلق فوق رَدفِها .. وناولته فى بطنه وصدره أربع رصاصات فى سرعة البرق .. بعدها نزلت من السيارة ، وأدارت مفتاح عجلة القيادة ، وداست بقدمها على البنزين وشدّت قدمها واندفعت العربة ، وصفقت الباب ، واندفعت المركبة تهوى إلى منحنى الجرف الرهيب .. ومزقتها الغابة حتى هوت على الأرض محدثة صوتاً مفزعاً وأليما . وتقدّمت إليها سيارة راقبت تنفيذ العملية .. عملية الموت .. وركبت فال بجانب الرجل الذى

أشار إليها بأن قفازها به آثار دماء .. وانطلقت المركبة إلى سالزبورج فى سباق مع الريح .. وألقت المرأة القاتلة بالقفاز فى بحيرة صغيرة كونتها مياه المطر قبل دخول المدينة .

* * *

كان رؤوف يحتفظ بعدد من الأوراق المطبوعة التى وجدهـا فى كثير من أركان شقة سوزان ... فى الدرج والنافذة وتحت المخدع ... وشاهد سوزى كثيراً تقرأ فيها ... والأوراق كتبت بالألمانية ، ودفعه حب الاستطلاع إلى الاحتفاظ بنسخ منها ، وكان يعرف رجلا يجلس على مقهى باستود بنهوف « محطة القطار الدولى » رجل عجوز ظريف يبلغ من العمر زهاء سبعين عاما ، وكان يعرف عن الرجل إجادته للعربية حيث كان يعمل فى أحد معاهد الترجمة .

ذهب رؤوف يبحث عنه وجلس بالمقهى فى مساء أحد الأيام ... فلم يجده ،وأخذ يتسلى فى ارتشاف كوب من الشاى ... وبعد ساعة من انتظار الرجل ... غادر بار المحطة إلى شـارع ماريا هيلف المواجه لستودبنهوف ... وأخذ يتمشى فى المارب هليف ، الشارع التجـارى ، قرابة نصف ساعة ، وعاد أدراجه إلى مقهى الرجل الظريف العجوز ... حيث وجده يحضن طاولة صغيرة ينتظر شرابه ... ووضع غليونه القديم وكتيباً صغيراً أمامه على المنضدة ... ولما رأى رؤوف يتقدم نحوه ابتسم وقام نصف وقفة قائلا :

هيس ... كيف حالك ؟

فرد عليه رؤوف : جوتن نخت . ماى فرند .. مساء الخير صديقى .

وشد على يده بقوة :

ودعاه الرجل ليجلس بجانبه ، فجلس رؤوف .. جلسة رجل صغير ضال بجانب رجل طاعن فى السن لكنه عملاق .. هكذا شعر رؤوف حتى ولو كان الذى يجلس بجانبه طفل فهو ابن المدينة .. وبعد حديث عن برودة الطقس .. ناوله رؤوف الورقات المكتوبة بالألمانية وقال له :

— أرجوك .. ترجمه لى إلى العربية ..

وأخذها الرجل بيد مرتعشة : . وقرأ .. وكانت عيناه كأنهما تجريان بين السطور .. وبانت عليه علامات الدهشة وابتسم وقال :

— من الذى أتاك بها ؟ .

رؤوف — وجدتها .. وجدتها .

الرجل — هذه بروتوكولات .. بروتوكول .. إنها خطيرة ..

وزعق الرجل بالكلمة الأخيرة .. فأمسك رؤوف بكتفه وقال :

— يا سيدى أرجوك ..

ونزع الأوراق من أمامه وأمسكها بين يديه ، فضحك الرجل وقال : ضمها يا صديقى الطيب .. إنى لن أفضحك .. أنت صديقى الذى أحببتك ولاطفتك كثيراً من كل قلبى وأنت تبيع جرائدك ، ولن أنسى أنك فى ليلة أعطيتنى مجلة بنصف ثمنها . هات أوراق آخر مؤتمراتهم .. إنها كلها عن .. تهدف الشرق والغرب ..

— بحق الذى تؤمنون وتعبدون ترجم لى وخذ بعدها ...

فضحك الرجل بصوت عال وقال :

ماذا آخذ منك ؟ . ماذا آخذ منك يا صديقى الجربوع ؟

— حقيقة أنا جربوع وأحقر ما فى هذه الأرض . .

فقاطعه الرجل : كفانى منك لعنات لنفسك واسكت .

ونزع رؤوف مجموعة ورق فولسكاب بيضاء وناولها للعجوز : أكتب ترجمتك هنا . . أتكفى ؟

— نعم .

وكتب الرجل لمدة تقرب الساعة . . كان رؤوف خلالها قد أتى له بالقهوة التى يحبها وارتشف هو كأساً آخر من الشاى ، وتركه يكتب ويتفحص ويدقق ترجمة الأوراق . . ولما انتهى أخذ الأوراق وقبل الرجل ، وفر يهرول خارج المشرب الكبير . . وذهب إلى البيت ، وخاف وهو فى الترام قراءة الأوراق ، ودخل بيت شوزى .. ولم يجدها فى البيت ودخل دورة المياه وأخذ يقرأ :

« هناك بدأ المال يتدفق والذهب الأسود انفجر من باطن الأرض .. من يستطيع إيقافه ؟.. نحن فقط نستطيع .. وإن لم نفعل فعلينا ضربه .. لا بالسفن الحربية والطائرات ، فنحن حريصون أمام العالم على الحفاظ على مقدساتهم وأماكن عبادتهم . . علينا أن نفكر طويلا قبل أن نبدأ . . وإذا بدأنا فإن ذلك يتم بالسرعة التى تفوق سرعة كل الوسائل الحربية والعسكرية المادية » .

في هذا العالم كثير من الناس يموتون من الجوع .. مستعدون لملأ البطون الخاوية .. ومستعدون أيضاً ليكونوا أغنياء .. يتطلعون إلى الحياة ولن يستطيعوا ذلك إلا بأعمال سريعة ومحرمة .. هم مستعدون لكل المخاطر .. فهم يقولون إن الفقر يسوقنا إلى الهلاك .. وهذه الأعمال تسوقنا إلى الهلاك وإلى الحياة .. فأى طريق من الطريقين هو مصيرنا ؟ .. إذاً فنحن متطوعون مغامرون .. سنحترف كل هذه الأعمال .. على الأصابع الحمراء أن تخطط فقط وأن تدبر المال — هاتوا الذين يبحثون عن المال .. الضالين .. المتشردين .. إذا كانوا فى داخل المدن التى نهيمن عليها أو خارجها .. قوموا بغسل رؤوسهم وتجديد ملابسهم .. وإلغاء تاريخهم إذا كان لهم .. وامسحوا كل ما يتعلق بماضيهم . اجعلوهم أبناء اليوم .. لكل منهم بيت وامرأة ومعيشة طيبة .. بعد ذلك املأوا حقائبهم وأجسادهم .. ودعوهم يذهبون إلى بلاد ذلك المال والحضارة الجديدة .. هم خير من يضرب إنسان هذه الأرض بما يحملون .. نحن نضرب باستغلال فقراء هذا العالم والعمل على إسعادهم .. بل وإن هذا العالم الفقير سوف يسعد هذا العالم الذى بدأ فى الغنى .

تدمير هذا الإنسان الأممى بكل هدوء .. سيجربون مرة ومرتين بعد ذلك يتعودون .. يدمنون .. انتهى كل شىء .

ونحن الذين سنقدم لهم الدواء بعد ذلك... هكذا نحن نسيطر .. نحكم هذا العالم .. نعرف كيف نكون تلك الأمة السامية التى تسعد هذا العالم وتشقيه .

وخرج رؤوف من دورة المياه وهو يبكى بغزارة ويتشنج بصوت عال . . بل وتشنجت العروق فى رأسه وقام إلى الشارع بعد أن جلس فى صالة البيت بعض الوقت .

وقرر أن يخرج . . إلى أين ؟ . .

ورأى الشوارع فى هذه الليلة وكأنها غابة موحشة ! .

الجزء الثانى

وبعد يومين من الحادث علم رؤوف من سوزى بما حدث لفؤاد .. وكان حزنه عميقا ودهشته أعظم ، ورحل فى هدوء وحذر أثناء غياب سوزى من البيت فى الليلة التالية ، أخذ حقائبه وحاجياته وتوجه إلى بيت الحلبى . كان الوقت الحادية عشرة والنصف مساءاً .. الذى أبلغ بدوره صبحى يعقوب .. وفى الواحدة تقريباً ، جاء صبحى ومعه عماد ورشاد ومحب رمضان ومحمد نبيه . . وحكى رؤوف أحداثه فى الفترة التى غاب فيها عنهم ، وتولى كل واحد منهم بعد الآخر مهمة التوبيخ واللعن لرؤوف ، وانفعل صبحى وصرخ ، وقام يضرب رؤوفاً بقوة على صدره ورأسه ، وقال :

ألا يكفى نحن ؟ . حتى أنت ؟ . كنا نعتقد فيك رجلا حذراً . . لقد بحثنا عنك فى كل مكان . . من المستحيل أن نعثر عليك . . التقطتك الرؤوس . . مكان دافىء ممتع لذيذ .. سوزى .. سوزى المرأة الفاتنة .

وسكت هنيهة ، وقال محب :

علينا أن نفعل ما نستطيع ، وإن لم تفعلوا سأفعل أنا ... رؤوف من قريتى .. سنعمل المستحيل لإخراجه من الدائرة الحمراء .

ولم يفهم رؤوف معنى لكثير من كلمات محب رمضان ، وفى صباح اليوم التالى وقبل الظهيره بساعة .. أحضر صبحى رجلا يدعى سعيد يمتهن مهنة الحلاقة بمدينته ، قام بحلق شعر رأس رؤوف بالموس ، وتم حبس رؤوف مدة عشرين يوما .. حيث أطلق لحيته ، واشترى له عماد قبعة من السوق ، وخرج فى اليوم الواحد والعشرين إلى عمله كبائع جرائد واستأجر له رشاد غرفة عند الآنسة ماريا .. فى رقم أربعة عشرة شارع جوزيف بالحى الثامن .. ولا أستطيع أن أخفى عنكم أيها السادة ، أن رؤوفاً أثناء مدة حبسه فى بيت الغول .. كان الجميع يقدمون له الطعام والشراب بسخاء .. حتى سمن كالخروف ، وكان يضحك كثيراً مع نفسه بصوت عال ، مرة يقلد صوت الكلب .. وأخرى صوت الثور أو البقرة ، وثالثة يقول : هاء هاء .

وفى ذات مساء جاءت سيدة يوغوسلافية تسكن فى الشقة المقابلة ، جاءت إلى الحلبى تسأله :

— هل يوجد حمار تتركوه بالشقة ؟

الحلبى — لا يا سيدتى .. إنه كاسيت وليس حمارا حقيقيا ! ..

مرت الأيام بعد ذلك بغير رتابة .. كل يوم أرى جديدا .. الزملاء ، الزبائن .. الشوارع .. وجوه الناس أرى فيها ما لم يكن مألوفاً من قبل .

وفى صباح أحد الأيام من بعد منتصف ديسمبر .. دق الباب برفق .. إذن هـــذه ماما .. صوت أنفاسها بالباب يسبقه وقع أقدامها .. ولما

فأذنت لها بالدخول دفعت الباب ودخلت قائلة :

— مورجن .. صباح الخير .

رؤوف : مورجن ماما .

ماريا : من فضلك أسألك سؤالا ..

رؤوف : اجلسى يا ماما ..

جلست على الكرسى ، وسألته :

ألك صديقة ؟ .

رؤوف — (وهو يضحك) .. ليس لى غيرك .

ماما — تهز رأسها وكأنها اطمأنت .. أتمنى ذلك مادمت فى بيتى .

وأخذت السيدة تتكلم عن أحداث كثيرة حدثت مع سكان سابقين .. وكان هدف حديثها أن تطمئن ، وألا يصبح بيتها نشاطاً لصداقات لا تعترف بها ولا تحبها .. وبعد ذلك دخلت فى سرد أحداث حياتها ، منذ كانت صغيرة وحتى ما آلت إليه الآن .. وتنهدت السيدة فارتعشت يداها لدرجة أنى خفت أن تقع أصابعها من شدة الارتعاش .. واسترسلت قائلة :

— كنت وحيدة .. لا أقارب .. لا أصدقاء .. أخى منذ صغره فى سالزبورج .. لست قبيحة كما ترى .. لكن نحافتى الشديدة والتزامى بأصول الأسر المحافظة .. أوصلنى فى بعض فترات حياتى إلى الشعور بالتمزق .. تشتت فكرى أحياناً أخرى .. لم أكن أملك غير كثير من الأدب والكياسة والتواضع .. وعملت من أجل الكنيسة .. أخذ

عملي كل حياتي ووقتي.. وبدأ ذلك بصورة واضحة حين كنت أقارب من العمر عقده الثالث .. أعمل الخير.. أصلح بين الناس.. أحفظ تعاليم الرسل والقداس.. أزور الأسر في بيوتهم .. وكم كنت أجد راحة لاحد لها في عملي .. أسبغ الناس عليّ الاحترام والحب .. نلت قسطاً كبيراً من راحة النفس .. سعادة داخلية لا توصف .. ولا أخفي عليك أن ذلك الشعور أخذني بعيداً عن الأرض وأمورها .. وكان عليّ أن أبذل مجهوداً أكبر لأحقق مزيداً من النجاح وحب الناس .. ومرت الأيام والسنون .. وولى الشباب ، ومن ثم لم أعد قادرة على العمل .. وحب الناس صار مجرد ذكرى في عالم النسيان الآن .. ثمانية وسبعون عاما .. حتى اللافتة التي ببابي لم تتغير منذ وضعتها في الخامسة والعشرين ربيعاً .. لي أبناء كثيرون في كل بلاد الدنيا .

رؤوف — كيف ؟

ماما : أنت واحد منهم .

وأطرقت إلى الأرض ورفعت رأسها هنيهة ثم أطرقت ثانية وقالت : لدي سعادة داخلية لا حد لها ، أشكر الرب عليها ، وأن لدي من الصحة وساقاي تحملاني لقضاء حاجاتي ولست في حاجة لعون أحد حتى أموت .

رؤوف : هذه السعادة أبحث عنها منذ مجيئي .

ماما : لا أخفي عليك أني ألجأ لتأجير هاتين الغرفتين حتى لا تقتلني الوحدة .. وأنا في مثل هذا العمر .. حتى أشعر أن معي ناساً .. وأني ما زلت أعيش بين الناس .

ثم سكتت السيدة وسادت فترة صمت قطعها رؤوف قائلا :

ـــ أرجو أن تكونى سعيدة بوجودى معك .

ماما : نعم يا بنى . . نعم . . ممتع أن تنصت إلىّ : . أن تسمعنى بهذه السمة فذلك لطف منك . وكفى حتى نذهب . .

قالتها وقامت قائلة :

فيدا . . فيدا . . مع السلامة .

وخرجت وقد علا وجهها بسمة طيبة تشع حناناً وحباً . . لا يشعر بها إلا الذين فارقوا أمهاتهم مثلى .

وهرعت السيدة إلى غرفتها الداخلية . . معذرة هرعت الآنسة . . تحمل رأساً صغيراً ابيض بين كتفين نحيلين متعبين . . ووجه نحيل بارز الوجنات وأنف جميل شامخ . . لكنه انحنى قليلا ربما من قسوة الزمن. عينان فارغتان رائقتان تبوحان بأسرار قلب عجوز كان له حلم فتاة جميل .

وخرجت تاركا باب الغرفة مفتوحا لتتولى ماما أمر تنظيفها والعناية بها . . ونزلت الدرج على مهل، وكنت أشعر بسعادة لحديث ماما معى . . وعند أول فاتحه زجاجية بالدرج رأيت ماما ماريا عند النافذة تبدل وترتب مزاهر الورد . . ومشيت إلى محطة الترام المتجه إلى مدرسة تعليم الألمانية ، وتذكرت، حين انطلق الترام متجهاً إلى معهدى الجديد ، قول سيده كانية ذات يوم :

الرجل بالنسبة للمرأة عقل .. بل مسمار عقل .. الرجل فى كل مكان وفى شق صوره .. هذه حقيقة . لكن كيف؟ هكذا تساءلت .. ولكن فى هذا العصر هل خيب بعض الرجال هذا الاعتقاد عند المرأة ؟ .

وجدت جيلا شقياً فى جميع بلاد الدنيا لكل منه درجة .. نساء فى العقد الثالث تتحدث كل واحـــدة بأسلوبها مع دخان سجائرهن الكثيف . . وتساءلت هل هن قليلات عقل ؟ . . أم أن الرجال عادوا أشباحا ؟ .

وفى هـذا اليوم تم تسجيلى ضمن الطلبة الدارسين للألمانية ، وأعطيت السكرتيرة إيصال إيداع المبلغ المطلوب بالبنك لحساب المدرسة والحقت بالفصل السابع ... وقابلنى مدرس الفصل بكياسة وصافحنى . . ولما جلست فى المنتصف مقابل الباب .. تطلعت إلى وجوه الدارسين والدارسات . . يصغروننى كثيراً . . انتابنى شعور بالحرج .

وانتهزت فرصة قيام الطلبة بكتابة ما على السبورة وجلوس المدرس يقلب فى أوراقه .. واتخذت من كرسى بالخلف مقعداً لى دون منضدة. وتصبب العرق منى بغزارة . . ولكن سرعان مامسحت وجهى بيدى.. وتساءلت مع نفسى . . هل بالإمكان أن أكون طالباً عمره واحد وثلاثون عاما بين طالبى علم لا تتعدى أعمارهم الخامسة والعشرين . . وبنفس سرعة تدفق العرق أخذتنى قدماى خارج القاعة . . وفى الشارع وجدت نفسى . . حيث يتحرر الناس من قيود كثيرة ...ولم أكن يوماً أحب مدرسة أو مدرساً .

فى مدرسة الشيخ صبحى القطان بقريتى .. حدث ذات يوم وأنا تلميذ بالصف الأول الابتدائى .. أن غادرت المدرسة خلسة قبل انتهاء الوقت الدراسى .. وجريت نحو البيت لأن فيه أمى وكنت أتمنى أن تكون أمى مدرستى.. قابلنى أبى بالطريق .. وسألنى عن سبب خروجى مبكراً، فتلعثمت فى الرد.. وأخذنى من يدى بقسوة وقطع بعض فروع من شجرة توت كانت أمام بيتنا .. وضربنى ضرباً مبرحاً حتى وصلت إلى المدرسة وقادنى أمامه وهو ما زال يضرب بقسوة حتى دخلت الفصل.. وأمام التلاميذ الصغار والمدرس أكمل علقته الساخنة حتى تكسرت العصى .. ولقد آلمنى ذلك كثيراً .. حتى أننى كنت أذهب إلى المدرسة مبكراً قبل أى تلميذ ولا أخرج من باب المدرسة حتى يخرج التلاميذ جميعاً ، وبقيت على هذا الحال حتى حصلت على الثانوية .. ليس حباً فى المدرسة ولكن خوفاً من أبى .. حتى لا يكرر معى فعلته ثانية أمام الجميع .

ولهذا تذكرت ماحدث لى مرة أخرى فى فينا، وسرت فى الشارع حتى البيت .. الشارع هو حياتى .. فيه العلم والعمل والحياة .. جئت إلى فينا للعمل .. لاجد فيها حريتى ... ليس فيها أبى الذى ضربنى .. وإننى إذ أقوم بعمليات التقديم للجامعة أو المدرسة فذلك فقط من أجل الحصول على إقامة دراسية لها سند قانونى . ولكن كان هناك شىء أكبر من أن يجيب عليه أحد .. وتساءلت ... ألستُ خلايا حضارة قديمة ؟!. لماذا جئت إلى هذه المدينة أتلمس الخطى ؟ .

وفى البيت كان النوم كابوساً ثقيلا يخنق أنفاسى . . أخذتنى أحلام غريبة إلى عالم كئيب .. وكان النوم قلقاً مزعجا . . واستيقظت فى الرابعة مساءاً . . فوجدت نفسى فى بيت ماما . . واصلت أحلامى الثقيلة .. ونفضت الغطاء عنى .. وهرولت إلى الخارج لأرى ماما تقضى بعض حاجياتها .. فدار بيننا حديث خاطف :

— كيف حالك ماما ؟

— حسن . . وأنت ؟

— بين بين . .

غسلت وجهى بالماء البارد .. وعدت أقضى حاجيات المساء التى أقوم بها كل يوم فى غرفتى ومنها تناول طعام الغداء . . وارتديت ملابس العمل وحملت حقيبتى وعدت إلى الشارع منتهى عشقى وحريتى . . هذا هو عالمى الجديد .. أكان هناك جدار سميك من الظلم بقدر الزمن الأغبر .. تحركت فى ظلاله الحزينة الطائرات والبواخر تحمل آلاف التحف البشرية كل يوم فى رحلة من أجل العيش : . ووجدت فى المشى حتى مبنى الجريدة بعض السلوى لنفسى ولا تعرف على معالم مدينتى .

وفى الجريدة أصوات تعلو هنا وهناك .. تملأ الأفق فوقها وحولها :

— الرتزن

— جرائدى عشرون

— ابحث لك عن كارت آخر

— أين مكانك ؟

— أكثر من مجلات السكس !

— عندما يشبع الهنود يتشاجرون .

— هذه المرأة الفينوبه تصادق الرجل الباكستانى منذ عامين .

— سندوتش فول يا صلاح !

— واحد كبده !

حديث طويل .. عال .. متنوع .. عن الجرائد والبيع والشراء ثرثرة تشاجر .. الضوضاء حين يوجد سبب للحياة .. إلا أن صوت الحياة عال جداً بين بائعى الجرائد .

يبدأ تجمع الباعة فى الرابعة كل مساء .. وفى الخامسة والنصف يمتلىء مبنى الجريدة بالدور الأرضى والسكافتيريا وفناء السيارات الخاص بعربات البائعين والبائعات .. وتوجد سيدة مصرية تجلس على عارضة خشبية بجانب السور الحديدى لهـــذا الفناء .. تبيع الفول والطعمية والكبدة .. وبجانبها يجلس زوجها منير .. يعاونها وقليلا ما يتخلف حين يذهب مع زبائنه لشراء أو بيع سيارة .. هو تاجر صغير للسيارات بين الباعة ويعمل فى الصباح بأحد معامل البيرة .

وقام رؤوف بشراء المجلات الصادرة اليوم من المكتب الخاص ببيعها ... وحملها بيده وذهب إلى حيث يجلس وحيد ينتظره فى سيارته .. وتبادلا حديثاً يكاد يكون مكرراً .. عن العمل والطقس .

وساد الصمت بعد دقائق كان كلاهما يرقب البائعين الجائلين من خلال زجاج السيارة المبلل بحبات المطر المتساقط .

وأثار انتباهي سيدة في الخمسين من العمر .. تروح وتجيء داخل المبنى وخارجه .. تنادي على بعض الأشخاص بصوت عال . . ترسل بذراعيها يمنة ويسرة بطريقة يشمئز منها محدثها . . ولقد رأيتها قبل يومين تمر مروراً سريعاً أمام عيني . . إلا أنها اليوم طولت من التلويح بذراعيها والصياح بصوتها مع أحد الباعة . . مما دعا بعض الباعة إلى الالتفاف حولها . . ولما حاول رؤوف النزول للإصلاح بين المرأة والرجل ، أمسكه وحيد من ذراعه قائلا :

— هذه السيدة كل المدينة تعرفها .. لا تنزل !

رؤوف — لأفض الموضوع بينهما .

وحيد — لا فائدة .. إنها عجرية .

رؤوف — لم لا تدعني أذهب ؟. قد أصلح بينهما.

وحيد — عجرية قلت لك .. هذه خلاصة القول معها .. في اليوم تعارك رجلين وثلاثة .. وإذا تدخل أحد اشتبكت معه .

رؤوف — إذاً هي مشهورة بذلك ؟

وحيد — إنها أضحوكة الناس علينا . .

وأشار رؤوف بيده نحوها .. وهو يتنهد وقال :

— أنظر إلى هذا الثوب . . إنه جلباب خفيف .. تتعرى ساقاها

المنقوسة من تحته . . الا تستطيع أن تشترى لها ثوبا ثقيلا وبه بعض الهندمة أو الشياكة فى مدينة كهذه ؟!. صدقنى إن النساء فى حوارى مدينتى لا يرتدين مثل هذا الثوب فى بيوتهن .

وضرب وحيد كفيه ببعضهما وطفق يقول :

تعيش فى فينا بهـــذا المنظر ؟!. أترى الشعر المجعد بعنفيرته يتدلى على رقبتها رثاً بغير انتظام . . أتراه من الأمام منكوشاً ! . أترى هذا القفا !. قفا امرأة نتنه نبتت فيه شعيرات كألياف النخيل !. غجر شمال أفريقيا .

رؤوف — ألم يأت أحد من جنوب القارة أو وسطها لجتمع باعة الجرائد ؟

وحيد — ولا رجل واحد .. لكن إذا ذهبت إلى الجامعة يوجد كثير من الأفارقه طلبة وطالبات يتوفر لهم كل حاجيات المبعوث . . ويعيشون فى أرقى أحياء المدينة .

رؤوف — يأتون كل مساء لشراء جريدة الكرونا .

وحيد — لو كانت رجلا لما شعرت بالألم على هذا النحو .

رؤوف — وهل يوجد رجل على هذه الشاكلة ... حتى جاكت الجـــريدة الذى ترتديه ليس به زراً واحداً ...

وسكت هنيهة وقال :

— وماذا كانت ترتدى عند مجيئها ؟

وحيد — عباءة سـوداء .. ملاءة .. ودخلت بها مطار فينا .. ولقد قام مندوب جريدة الكرونا بتصويرها .. وقال معلقاً تحت الصورة .. زائرات فينا .. وتساءل بوضع علامة استفهام : سياحة ؟؟

رؤوف — يا للمصيبة .. وكيف خرجت من مطار الرحيل كمسافرة إلى فينا ؟. ووافق ربان الطائرة على ركوبها ؟

وحيد — جاءت على طائرة نمسوية . وما ذنب الربان ؟

رؤوف — ذنب من إذاً ؟

وحيد — الجمرك .

رؤوف — طناش .

وحيد — كله على كله .

رؤوف — إذا قام مصدر بتصدير بضاعة .. فإنه يقوم بتصدير أجود بضائعه .

وحيد — السيدة غير مصدرة ، وإلا كانوا قد راعوا ذلك .. قلت لك إنها سياحة .

رؤوف — يبدو أن رجال التصـدير والسياحة ، اتفقوا على التعامل فى السلع الرديئة .

وحيد — كان لها شـقيق يعمل بالجريدة . وعندما وصلت

وعرف أن الجميع علموا انها شقيقته ... شعر بحرج وألم شديدين وعاد من حيث أتى .

رؤوف — تصرف مناسب منه

وحيد — لا ليس تصرف حسن منه . . كان يجب أن يأخذها .. لكنه لم يستطع وتركها لنا . . ومن وقت لاخر يقبض عليها البوليس .

رؤوف — لماذا يقبض عليها ؟

وحيد — ها . . ها يحبها كثيراً . .

رؤوف — يحبها ؟ .

وحيد — إما للاشتباه أو لارتكابها بعض المخالفات .

رؤوف — أليها سيارة حتى يحدث لها مخالفات ؟

وحيد — ألم أقل لك . تمهّل حتى تسمعني للنهاية

ليست مخالفات مرورية .. (وأشار بيده قائلا) :

أترى هاتين القدمين ؟

رؤوف — نعم . . قدمان كبيرتان فى حذاء الفيل . .

وحيد — طبعاً لا ترى شيئاً آخر . .

رؤوف — لا . .

وحيد — البوليس رأى هذا الشيء . . وتنهد وأخذ يضرب

بقبضة يده على عجلة القيادة . وقال : ماذا أقول لك ؟ بجوار عملها في الليل حديقة صغيرة . . كانت نظيفة جداً كـكل الحدائق . . تذهب إليها أثناء نوبة العمل المسائية من وقت لآخر . .

رؤوف — تشمُّ الورد ؟

وحيد — تقدِّم السماد لأشجار الحديقة

رؤوف — ألا توجد دورة مياه ؟

وحيد — تحب الأرض الفضاء .

وانتهى الحديث بيننا . . وساد نوع من الصمت الحزين ، فلم يعد لـكلينا كلمة واحدة ينبس بها . . إلا أن ما زاد من تفصيل هذا الحدث المؤلم أن أخبر وحيد رؤوفاً وهما ينزلان من المركبة لاستلام الجرائد . . أن عدداً من بائعي الجرائد الأجلاف الذين لم يوفقوا في تـكوين علاقات صداقة مع فتيات من المدينة . . تذهب إليهم سيدة كل أحد ، لقضاء حاجياتهم معها مقابل مبلغ من المال .. أسرارنا كبيرة ولـكل منا أكثر من سر . ليتنا نعرف سبب تلك الأسرار . نحن كالأغنام نساق إلى مراعي شائـكة وضحلة . . في ليل ممطر شديد البرودة . . لا نشعر كيف يأتي الصبح ولا يمسينا المساء . . بلا راع ودون حظيرة . . كل شيء خال . . نتسول الأرزاق على الأرصفة وفي الحانات وإشارات المرور وأنفاق المترو . . يجدوننا في كل مكان حيوانات بلا قطيع . . لا تختلف عن سيدة كثيراً . . فقط سيدة نعجة بلا خروف . . نعجة مقصوصة الشعر .

وكانت الجلبة التى حدثت هذا اليوم عند مخزن الصرف كفيلة بإزاحة الستار عن سر هذه المرأة ولو قليلا .. فقد وقعت معركة عنيفة ، بين أحد الهنود وجورج السكندرى أو جورج البلاموطى كما يسمونه .. وكنت ووحيد أول الملتفين حول المعركة الدائرة بعنف بينهما . دوت زجاجة فارغة فى السور الحديدى تطايرت من يد الهندى .. ودخل له جورج بعدد من اللكمات العنيف فى وجهه إلى أن انطرح الهندى على الأرض .. وتجمع عدد من الهنود فى محاولة لضرب جورج .. فأعطوا الفرصة لزميلهم بأن قام من على الأرض .. وتناول سيخاً من الحديد وذهب إلى سيارة جورج فى محاولة لتحطيم زجاجها .

وضرب السيارة ضربة واحدة فأحدث آثاراً فى مقدمتها .. وأمسك به بائع بولندى .. وحث عدد من الباعة المصريين جورج بالكف عن ضربه لكماً .. والتف حول كل منهم عدد من باعة قومه وانتهت المعركة التى دارت بسبب حسبة من المال بينهم .

وكان وحيد كثيرا ما يتسلم جرائده ويبكى ويجلس فى مركبته ينتظرنى .. وفى هذا اليوم طال انتظاره لتأخرى فى الاستلام .. حيث حضر رئيس الشيفات « هومر » ليشرف على عملية صرف الجرائد ، ويحدث هذا من حين لآخر .. ويقول الباعة القدامى إنه يفعل ذلك من حين لآخر فى محاولة للتعرف على وجوه الباعة الجدد .

وانطلقت العربة بنا تخترق الشوارع بسرعة غير مألوفة وفى أحد الشوارع القريبة من الحى السادس عشر .. اعترض طريق

السيارة امرأة فى محاولة لإيقافها .. وتوقف وحيد ليجد سيدة تطلب أن تركب معنا لتوصيلها إلى مكانها قرب محطة السعت .. وركبت بالكرسى الخلفى .. ودار بيننا وبين سيدة حديث سريع .. عرفنا فيه الكثير وسوف أعفى القارىء من صيغة الحوار الذى دار وأقول : زوجة لرجل ضرير .. عملت أول حياتها بائعة أمشاط وفلايات بعربات الترام القديم بالعاصمة .. وفى الستينات عاملة بأحد مصانع النسيج، وتقول عن حياتها فى هذه الفترة :

كنت هانئة مستورة .. بعد ذلك حدثت أشياء كالفيضانات أغرقت الناس .. من هم مثلى .. وبدأت الآلام فى الحياة المعيشية .. ولم يكن هناك بارقة لنهاية حرمان بدأ بالفعل .. سبعة أولاد ورجل قاعد وأهل غير قادرين على أن يطعموا إلا أنفسهم .. يركبون نفس المركب .. كنت رب العائلة .. وتصرفت كرب عائلة .. المهم أن أعود بالمال .. وفى فينا الذين يستاءون منى .. لماذا ؟ .. أنا الأخرى أضجر منهم .. أليسوا جميعاً جامعيين ؟ .. لماذا إذن يعملون باعة جرائد ؟ .. إذاً كل واحد وراءه مشكلة أو سر .. علينا فى لقمة العيش أن نتساوى وألا يسخر البعض من البعض الآخر ..

وسكتت هنيهة ثم قالت:

أما عن شكلى ولهجتى ومظهرى بل وتصرفاتى ليست على ما يرام .. لأنى امرأة جاهلة خريجة حوارى .. ماذا تنتظرون منى ؟ .. أحاول أن أكون أفضل لكن إمكانياتى لا تساعدنى ..

أقولها بصراحة أنا من طبقة رديئة ومهما فعلت تبقى هناك أشياء تفضحنى .. ولكى ينتهى الأمر .. آه الأمر عندى فى كل شىء منتهى .. وأقول لكم بأعلى صوتى .. أنا امرأة سوقية .. مخلوقة بغير هندام ..

ونزلت السيدة إلى مكان عملها وتركت أثراً طيباً .. لقد محت الأثر السيء واجهتهم بصدق .. وعرف كل من وحيد ورؤوف أن هناك سراً كبيراً وراء عالم كل منا .. بل وراء هذا العالم أجمع .

وفى الشارع الذى تعمل فيه تتحنجل وتدور وتلف فى دائرة واسعة .. تمسك بيدها جرائدها .. يخيل للزبائن حين يقتربون منها أنها تنهرهم ولا تبيع لهم .. لأنها تتكلم بصوت عال وتصيح وتلوح هنا وهناك .

ولذلك فهى لا تبيع أكثر من ستين جريدة .. من أول دقيقة فى عملها حتى آخر وقتها لا يتوقف فمها عن المناداة :

« كرونا .. كرونا ياست .. كرونا ياواد .. أمشاط وفلايات .. مين عايز يا خواجات ! »

ولما وصلت مكانى رتبت جرائدى ومجلاتى على مشمع صغير وضع عند باب محل الملابس الجاهزة .. والمعروف أنه بين السادسة والسابعة مساء أبيع عدداً كبيراً من جرائدى ومجلاتى .. للعائدين من أعمالهم والذاهبين لقضاء بعض الوقت فى ضواحى المدينة .. والنساء اللائى يتنزهن سيراً على الأقدام فى شوارع الحى .. والفتيات اللائى اعتدن ارتياد المقاهى والبارات . والمومسات اللائى ينهبن للوقوف فى أماكن

الانتظار .. وشبان وشابات فى العشرين أو أقل عائدين من ملاعب التزحلق على الجليد ، وبعض الرجال والنساء المتقدمين فى السن .. يأتون خصيصاً من بيوتهم لشراء جريدة أو مجلة ثم يعودون .. وهذا هو بروهاسكا أشهر لاعبى كرة القدم فى النمسا .. زبون دائم يجئ بسيارته المرسيدس آخر الليل أو أوله لأناوله جريدة الكرونا .. والكورير .. وفى بعض الليالى يأتينى ماشياً من بيته القريب لشراء جرائده ، فهناك على الناصية القريبة يقع بيته .

ولما كان بين التاسعة والنصف والعاشرة وقت راحة لكل البائعين ، ففى غالب الأمر يذهب البائع إلى مقهى أو مطعم قريب يريح فيه قدميه .. يتناول شراباً أو طعاماً .. يبيع بعض جرائده لرواد المقهى الذين تعوّدوا على شرائها هذا الوقت .

لكن هـــذه الليلة وقبل وقت الراحة بقليل .. تساقط المطر بغزارة .. وهبت الريح من مقالعها بشدة .. مما جعل الكثير من المارة يهرعون جرياً إلى مقاصدهم دون الاهتمام بالشراء .. واحتميت تحت مظلة الحانوت .. وانضرب البيع والشراء .. حتى تحية المساء هرولت مع الهاربين من قسوة الطقس .. أرعبتنى الريح الشديدة .. كنست الأمطار الناس من شوارعى .. أهملت الزبائن جـــرائدى .. تألم ظهرى وزادت مواجعى .. ذرفت دمعتين ساخنتين .

الدموع ســـتار النساء الدائبة ، تلجأ المرأة إليها لتحجب

انقطاعاتها .. لكن الدموع على سحنة رجل لن تكون إلا قسوة زمن لا يرحمه منها غير الرب ، وترك بضائعه عند باب الحانوت ، وأخذ فى يده حفنة من مبيعاته ، وفى المقهى جاس إلى مائدة خالية إلا من زبون أعياه شرابه المفرط ، وعلى الطاولة فى مقابله .. عجوز تكتب فى دفترها . حانة صغيرة أى جلبة فيها تجعلك تشعر بالعالم يزدحم من حولك ، ومسح رؤوف بناظريه أرجاء المكان .. هؤلاء صغار يتسابقون الشراب ، وفتيات يصحبنهم يحلو لهن الجلوس على سيقان الرجال حديثى العهد بالبلوغ ، يرنحن مرة ، يسقطن على الأرض بهؤلاء الرجال ، يقفن للرقص معهم ، منهم من يغنى أو يحاول تقليد واحد بلياتشو .

هذا بول ، حصل على دبلوم فى الصناعة منذ عام .. تصحبه صديقته قبل أن ينتصف الليل بقليل ستأخذه إلى بيت أمها كما تعوّدا كل ليلة ، أعرف أمها التى تعتقد أن الرجل ليلة ، وإذا تكرر فى ليلة أخرى تالية لا تصحبه إلى البيت ، بل تتركه عند أول منحنى ، وأخبرتنى الأم فى ليلة أنها نصحت ابنتها بذلك ولكنها لم تفلح .. الفتاة تريد بول صديقاً وزوجاً .

وريتا طالبة بالثانوية .. سمراء كبنات إيطاليا .. جذابة ذات عيون بنية اللون ، وشعر يتدلى حتى كتفيها فى سواد الفحم .. ممشط بعناية ، أما جسدها فله حكاية .. يعرفها رواد المقهى .. يصحبها صديقها الطالب بالطب .. يدخلان البار .. تسير أمام

الرجل . . يتبعها إلى شماعة الملابس ، تخلع معطفها . . يساعدها صديقها الرقيق ذو اللحية الصغيرة ، ما يتبقى بعد المعطف فوق جسدها . . قميص من الكتان داخل شورت صنع من الحرير أو الستان . . تغار كل نساء المقهى من ساقيها . . فعلى سبيل المثال . . تضرب كل امرأة صديقها أو زوجها أو فتاها على ذراعه حين ينظر إلى ساقيها . . ساق فتاة تفتن لها بنات جنسها . . محبورتان مكتنزتان وعندما تسيران تصطكان ببعضهما فى نعومة ودلال ، ويشعر الرجال المرهقون بأنهما يتحفزان بعنف مستتر . . وقال أحد الرجال : ساقان يخرجان الحمى من الرأس ! .

وفى الركن الداخلى كلاتز وفتاته . . صغيران لا يتجاوزان الحادية والعشرين من العمر . . ابن صاحب محل المثلجات بالشارع الكبير . . تعمل معه الفتاة جرسونة بالمحل . . هيأت أمه شقة فى بيتها لابنها وفتاته التى يحبها . . وكل عام يذهبان إلى الهند واليونان للسياحة .

وصاحبة المقهى . . محطة هادئة يستعيد الرجل فيها حرمانه . . جمال فتان رصين . . كل شىء فيها منمق ومرتب . . ليتنى بائع دائم فى مقهى السيدة !

إلا أن السيد فاجنر قطع علىّ هوايتى التنقل بين رواد المقهى ، وجاء يحمل فنجان شاى وابتسم قائلا :

ـ تفضل !

وقمت نصف قومة وقلت :

ـــ شكراً يا سيدى العفو .

فاجنر : لا يهم .

وعاد الرجل إلى طاولته وجلس وبدا عليه شعور بالسعادة .. وراح ينظر نحوى بابتسامة عريضة ، ومن حين لآخر ، تعترى وجنتيه حمرة خجل .. يا له من رجل مهذب .. رأيته دوما بمفرده .. يجاملنى وغيرى .. لم أره مرة واحـــدة يصحب امرأة ، يعمل موظفاً بأحد البنوك ، يعيش بمفرده فى شقة مكونة من غرفتين ، كثير الهنـدام ، علمت أخيراً أنه يكره النساء .. هذه المرة الرابعة التى يقدم لى الشاى .

وعاودت هوايتى من جديد عندما فرغ الفنجان ، أما فرنس .. فقد تجاوز الاربعين بقليل .. قصير .. بدين .. جبهته عريضة .. يقعد تحتها أنف أفطس وشفاه غليظة متورمة قليلا .. عيناه غائرتان تحت حاجبين كثيفين ، مرة يرتدى ثياباً نظيفة وأخرى بين بين .. يعمل بالمقهى .. يلتقط الكئوس الفارغة والأطباق ويذهب بها إلى غرفة الغسيل خلف البار ، يجمع النفايات والأوراق وأعقاب السجائر فى سلة صغيرة ، يمسح الموائد بخرقة قماش ، ويروح ويجىء بالمقهى وكأنه جزء منه متحرك .. يصافح الزبائن .. يمازحهم .. رأيت فى كايرو وجه فرنس وفى سريصرا وفى اسكندرية واليونان فى كل بلد ذهبت إليه وجه فرنس .. وجه شبيه لأشخاص يقومون بأعمال متمائلة .. يتخذهم الناس تسلية أو تيمنا .. وتراءى لى بأن الله يفسح

لهم مكانا أرحب عنده .

إذا تحدث خرج الكلام من فمه مبعثراً .. وتقوم فتيات بشد ذراعيه إلى الخلف وربط كفيه بإيشارب أو منديل ، وهنا تصدح ضحكات الجميع فى أرجاء المقهى .. ويزمجر فرنس ويغضب ويبعثر بعض الكلمات .. ويخرج منديله ليمسح دموع عينيه وحبات عرقه .. ويعدل من ملابسه ويعاود العمل من جديد بين الرواد .. وبعد دقائق حمل فرنس على كتفه معطف امرأة أعياها السكر متأبطة ذراع صديقها وتبعهما إلى الخارج حيث وضع فراءها فى الكرسى الخلفى وعاد إلى البار فرحاً بالبقشيش .

وفى ليلة أخرى كان الطقس مؤلماً ، دخلت المقهى وقت الراحة .. وجلس إلى جوارى رجل فى نهاية العقد الثالث من عمره ، وبادرنى قائلا : كيف حالك ؟ .

ـــ حسن .. وأنت ؟ .

الرجل ـــ بين بين .

رؤوف ـــ لماذا ؟ .

الرجل ـــ هو بين بين دائماً .

(وكنت قد رأيت الرجل مراراً من قبل لكن لم أحادثه) .

وأخذ كل منا يرشف شرابه .. ثم قال لى :

ـــ كيف حال مبيعاتك ؟ .

رؤوف — كالطقس .

الرجل — لا يهم .

رؤوف — كل شيء عندك لا يهم .

الرجل — ما دمت تؤدي واجبك . . يأتي المال أو لا يأتي، يذهب كل شيء إلى الجحيم أو لا يذهب . . لا يهم .

رؤوف — ليتني أسعد وأرضى بأي شيء .

الرجل — إذن أنت لا تفهم الحياة !

رؤوف — إني أبحث عن شيء واحد .

الرجل — عرفته . . المال .

رؤوف — السعادة .

الرجل — مشيراً نحو فرنس . . هذه هي السعادة .

رؤوف — فرنس هو السعادة ؟!

الرجل — حظه من السماء .

رؤوف — كيف ؟ .

الرجل — هل ترى صاحبة المقهى ؟ .

أومأ رؤوف برأسه : نعم . .

الرجل — هـــذه حظ فرنس . . يسعد بها هذا الأبله كثيراً من الليالي .

رؤوف — لكنها نوع راق من النساء .. كيف تكون لفرنس ؟

الرجل — هذه مظاهر كاذبة .. لا يغرك البريق .. هذا السطح اللامع يستمد سحره من فرنس الأبله .

رؤوف — هناك مثل يمنع النساء من التعامل مع الرجال مثل فرنس .. حتى لا يفضح أمرهن .

الرجل — مثل هذه العلاقات ليست فضيحة .. الفضيحة أن تتوقف في سبيل سعادتنا .

رؤوف — أرى رجالا سادة ونبلاء يترددون إلى هذه السيدة .

الرجل — كم رجلا تجد في السادة النبلاء ؟

رؤوف — تعني أن فرنس رجل متكامل ؟

الرجل — المرأة قالت إنه ثور .

رؤوف — منذ وقت بعيد ؟

الرجل : منذ عامين .. واكتفت .. إنها تتخذ من السادة إطاراً لا معاً أو بريقاً اجتماعياً حولهـــا .. حتى يحل الظلام .. فلا تجد منافساً للثور .

رؤوف — مررت بشوارع السادة .. إنهم يهتمون بأنشطة غير نسائية، وأصبحت المرأة عندهم تؤدي مهاماً أكبر .

الرجل ـ صدقني بدأت النساء في مدينتي يخفن من السادة .. ويبحثن بين الصعاليك .

رؤوف : الثيران ؟

الرجل : نعود إلى الوحشية .. أو نعود إلى الطبيعة .

ظهر جلياً أن كلا منا يبحث فى الغابة المترامية عن شىء يفتقده .

وصافحت الرجل وخرجت إلى عملى .

غطى الثلج المظله بطبقة سميكة من الفرو الأبيض .. تلال صغيرة على الرصيف .. إلا أن عجلات السيارات بالشارع كانت كفيلة بإزاحته .. وبدأ ينساب سائلا إلى البالوعات .

بالعربة الثانية من الترام جلست بالمقعد ولفنى الدفء ، ولم يكن بالمركبة غير رجل وامرأة يتحابان ، وعثرت على ورقة بين المقاعد مكتوبة بالعربية فاخذت أقرؤها متلهفاً :

« للمرأة فى كل أزمنة الحياة شىء تقترفه بإسم الكراهية أو الحب .. وهى فى كثير من الأحوال متردية .. تشعر أنها مرغمة على عمل شىء .. وهذا هو الضعف .. ومن هنا يأتى عدم فهمها حتى لنفسها .. فكيف تعى ما حولها من أمور ؟ . إذا حدث شىء سرعان ما تبادر بالصراخ ... أو تسقط .. أى نوع من السقوط .. وكل ذلك نتيجة للضعف .. هل أضاف الرجل إليها ضعفاً ثانياً ؟ . أم أنها تتصور أن الرجل سيفعل لها كل شىء ؟. ألم تعد تدرى أن رجالا كثيرين فى حاجة إلى عون المرأة ؟. وهذا هو السقوط الحقيقى الذى

انحدرنا إليه .. أما زال أمامنا المزيد من السقوط ؟.. سنسقط كثيراً ما دامت المرأة خارج البيت » .

أخذت أبحث عن شيء آخر في الورقة فلم أجد ، وكانت الكلمات صغيرة مكتوبة بخط يد لكنها مصورة . .

وفي البيت قمت بأعمالي قبل النوم ، ولمّا انطرحت على فراشي ، وسحبت الغطاء حتى رأسي ، فُتح باب الغرفة المقابلة ، وسمعت وقع أقدام على الأرض الخشبية للصالة . .

أهي ماريا ؟.. ليس صوت حذائها الزاحف الواهن . . هـــذا صوت حاد قوي . . لقدمين راسختين . . وكان الجسد يئن من عنـاء تعب كل يوم . . وقلت لنفسي : وهل تدق الأحذية فوق رأسي ؟ مالي ووقع أقـدام ماريا أو غيرها ؟.. أنا بائع جرائد . .

كان صباح اليوم التالي بارداً ، فأشـــعلت المدفأة الكهربية ، وغسلت وجهي بالمـاء الساخن من الإبريق ، وقضمت قطعة كبيرة من الحلوى . . ولمّا انتهيت بدأت في عد النقود المعدنية التي ملأت جاكت العمل . . وبعد ساعة لم يكن غير الهدوء يلفُّ غرفتي ، لا صوت ولا حركة بالخارج . . حتى جلبة الترام في شارع جوزيف لم تعد تصل إلى أذني وكأني أصم . . وأشعلت الموقد ، وعملت كوب شاي ، ثم رتبت فراشي واحتسيت شرابي الساخن على مهل . .

وأخذت أفكار تدور في رأسي . . حيث تأكّد لي أني طالب فاشـــل وأني وجدت نفسي كبائع جرائد . . كنت طيلة حياتي

الدراسية غير جاد ولا مكترث .. وفى اعتقادى أن هناك شيئاً آخر أهم وأفضل .. قد يكون العيب فى المدرس أو طريقة التدريس منذ الصغر أو فى الكتب .. ولم أنس هاتفا أيقظنى من النوم وأنا فى المرحلة الثانوية .. يقول : لا تذهب فى العلم كثيراً فلن تكون أبداً عالماً .. ستكون شيئاً آخر أهم ..

وحتى هذه اللحظة .. لم أجد نفسى غير بائع جرائد .. فهل أيقظنى الهاتف فى تلك الليلة لأصل إلى هذا الواقع .. لأبلغ هذا التيه الكبير فى مدينة أجهلها .. ولا أخفى أنى أعشق هذا التيه .. أتجربة إنسانية تأخذنى من صنعى .. أهذا هو عالمى الحقيقى ؟..

وكان اعترافى بفشلى هو بمثابة تنوير كل الطرق حولى .. عمل شاق ومتعب من أجل الشلن لتنقلب حياتى إلى الأفضل .. وفجأة قام من جلسته وتقدم إلى النافذة .. وجالت عيناه فى الفناء الواسع بين البنايات ، لم يشده شىء فيه .. بل خاف وزاد توتره .. فرجع إلى دولابه ليقلب أدواته ، ورتب ملابسه على الأرفف .. ثم انحنى تحت سريره ليلتقط حذاءه ، وقام بتنظيفه من أوساخ الثلج .. ولما فتح صنبور الماء الساخن غسل يديه ومسح وجهه بقليل من الماء ، وعاد ينشف وجهه بفوطة يضعها دائماً على حافة الكرسى .. وشعر بالإرهاق فاستلقى على فراشه وسحب الغطاء حتى منتصفه .. وشده حنين إلى أقدام الليل مادامت قدم امرأة غير ما .. حتى ولو كانت قدماً حادة وعنيفة .. وتذكر كيف كانت الأيام حلوة مع

سوزى . . لكنه خاف ، حال لون وجهه إلى الصفرة . . لمّا رأى أمام عينيه ثانية ماحدث لفؤاد . . وأمسك برأسه الأقرع . . وأخذ يشد بأصابعه شعر ذقنه . . وهدأت أعصابه قليلا . . وقال لنفسه : لا بد من معرفة ودودة لإنسان . . حتى لا أشعر بالغربة والوحدة المخيفة . . لا بد أن أبنى عالماً حولى . . حتى ولو كان عالماً مليئاً بالأفكار والهواجس الماجنة والضعيفة . . أيها العالم الودود تعال بغير قيود أو قانون من صنعى من صلب حياتى . . تعال يامرأة جديدة من نوع آخر . . ليست كسوزى . . امرأة بلا نشاط . . لا تعمل خارج البيت . . أيها العالم أعطنى امرأة داخل بيت . . لأنى أخاف . .

بلغت الساعة العاشرة . . ومازال أمامى الكثير من الزمن حتى أخرج للكرونا ، وشممت رائحة ملابس وشىء مثل الكتب القديمة جاءتنى من صالة البيت . . وتبينت أن رائحة عطر قديم تفوح من بين طيات الملابس .. واسترق السمع من ثقب المفتاح الذى أخرجه بيده ، وجال بعينه من خلاله . . الغرفة المقابلة مفتوحة وهناك امرأة . . امرأة صغيرة تتجول فيها وترتب أشياءها من حقيبتها إلى دولاب الحائط .

وبدأ المطر ينقر زجاج النافذة ، وذهبت إلى المصراع لأفتح ظلفتيه قليلا ، السماء ملبدة بالغيوم ، والسحب كثيفة تنذر بسيل غزير .. ودخل صوت الموسيقى الهادىء من الدور العلوى للبيت المجاور ،

ورغم ذلك كان جو الغرفة محتملاً ، ولما تداخل صوت الموسيقى مع نقر حبات المطر ، كان هناك شعور رقيق فى داخلى ، يتحرك نحو حب الحياة فى مدينة الطقس الأبيض .

وجلست أمام المنضدة الصغيرة لأكتب رسائل إلى الأهل والأصدقاء استغرقت الكتابة ساعة ، وتناولت شريحة لحم مسلوق مع بعض الخبز والمرق ، وشربت بعض الماء ، ورحت فى نوم عميق حتى الثالثة . . الحقيبة والمعطف الأسود ، الحذاء الضخم عند الأسفل ، وقبعة كبيرة على رأس مستديرة فى الأعلى ، هذه علامات رجل جردل يذهب فى مثل هذه الساعة ليبيع جرائده .

ومشيت فى شارع جوزيف ، لأصل محطة إشطاتيان فى الجيرتل ، الناس فى شارعى تعود من أعمالها ، يتسوقون من المحلات المنتشرة على الجانبين ، وبعضهم من النساء متزينات فى أبهة ، ويمشين فى تمخطر ، ورجال كبار مع زوجاتهم وصديقاتهم يدخلون المسرح ، الحركة الدائمة والنشطة هنا وهناك ، فى مكان واحد من أجل التمتع بالوقت ، وكان مجرد رؤيتى لهذه الحياة يسعدنى ، وكل ما أتمناه أن يكون الطقس غير قارس ، وأن يتزايد عدد زبائنى لمزيد من الكسب ، ولما اقتربت من المحطة . . تهيأ لى أنى ذاهب إلى النادى لممارسة لعبة ما . . هكذا كنت أتعلق بالوهم فى بعض الأحيان ، من أجل إزالة المتاعب والصعوبات التى تقابلنى كبائع جرائد . . ولم أكن أستطيع مقاومة زمجرة العواصف ورقص الرياح فى كل الأجناب وفرقعة السحب كل ليلة . .

ولو تزحزحت البنايات الضخمة ، والجبال ، وانتقلت الأشجار من حدائقها هرباً من الطقس اللعين .. فإن باعة الجرائد لا يتمكنون من ذلك .. فمن وجد تاركا مكانه لأى سبب حرم من العمل ، وحل محله بائع آخر ، وفى عربة إشطاتبان ، التى تكاد تكون خالية ، اقترب منى رجل وأعطانى ورقة فأخذتها ، كانت علامات وجهه تركية ، ولم ينبس بكلمة واحدة ، وعند الباب حدق فى وجهى وابتسم ابتسامة خفيفة ، ونزل فى أول محطة .. ماذا فى الورقة ؟

والفشل هو الذى أتى بنا جميعاً .. أحقر الأعمال نقوم بها فى هذه المدينة .. هذه عدالة تأتى فى المرحلة الثانية بعد عدالتهم ، الزوابع والسيول والرعد وزمجرة الرياح والزلازل .. غضب من الله .. يخص به بعض البشر فى بلاد كثيرة ، أناس من العامة ، إذا شعروا ببعض القوة فإنهم يعملون على القضاء على الآخرين ، ويسحقون عظامهم كما يفعل الوتد بالأرض .. وهذا للقوم من العالم الثالث .. لماذا ؟ . فى الحياة الثانية سيكون عذابنا أقل من عذاب البشر .. أقل من عذاب الفقراء والمساكين .. أنا ذاهب لأشم عطر امرأة .. حتى أنسى ألمى ، إن ما بين نفسى المعذبة وعطرها شىء يعجز عنه الوصف .. أنسى ما ألقاه من آلام فى عملى كعامل مجارى .. عطر هذه المرأة النسوية التى تعمل عاملة .. تحولنى إلى إنسان خير .. عطر النساء جميعاً ، يرحم الرجال من عذابهم .. حاول أن تكسب ود النساء .. حتى تواصل عملك .. ، [انتهت] ..

يا إلهى .. هذه الورقة الثانية .. ليتنى أحصل على ورقة كل يوم .. ترى من يكتب هذا ؟ . ولمـــاذا يقومون بتوزيعها ؟ . هل هناك مجموعة من الناس تتولى الأمر ؟ . أفكاراً .. وتصويراً .. وتوزيعاً .. وحتى مبنى الجريدة ؟ . أقرأ هذه الكلمات .. التى تأتينى على موضع الألم .. وكأن بائع الجرائد وعامل المجارى .. رجل واحد .

ـــ وفى مبنى الجريدة رتبت جرائدى .. المرتجعات .. ولمـــا انتهيت وجلست على قاعدة السور المواجه للباب . . سمعت صوتا من الخلف يناديني . : وتقدم وحيد نحوى . . وأخذنى من ذراعى لعدة خطوات وقال :

ـــ تعال معنا اليوم .

ـــ إلى أين ؟ .

ـــ ستدخل معنا فى كارت العمل .

ـــ غير معقول .!

ـــ لا . . هذا هو المعقول بعينه . . بسرعة تعال عند العربة . . (وانصرف . .)

عدت إلى زملاء الكارت .. زملائى القدامى وأخبرتهم . . وحملت جرائدى إلى حيث يقف وحيد وصحبه . . كنت الزميل الخامس . . مجموعة متقدمة فى العمل .. تتسلم الجرائد مبكراً . ولهم أماكن أفضل .. وكل منهم له سيارته . . لن ينتظرنى وحيد بعد اليوم كما كان يفعل ،

سيزداد رقم مبيعاتى لوصولى مبكراً إلى مكانى ..

وقمنا بتقسيم العمل :

— داود الغول يدخل المردودات .

— حجازى يستلم الجرائد الجديدة .

— وحيد للتسجيل فى الكارت والتوزيع .

— أنا ويوسف لشراء المجلات الجديدة من مكتب البيع .

وعرف كل منا دوره .. واتجهت ووحيد إلى الكافتيريا .. لتناول الشاى والجاتوه .. وبينما نحن نقترب من الباب الزجاجى للمبنى حيث نهم بالدخول .. سمعنا جلبة لإثنين من الباعة .. ولما اقتربنا تعرفنا وجيههما .. هما السكندريان . كانت الأيدى فى اشتباك خفيف .. شد .. نطر .. فرك أصابع .. وطى ياقة .. لكنهما فى حالة تحفز ولم يكن العراك قد بدأ بقوة .. مازالا كديكين ينقران .

وقال أحدهما للآخر بعصبية :

— لماذا تذهب إليها ؟ .

رد الآخر :

— بينى وبين أختك وزوجها معاملات .

— أود معرفة هـــذا الشىء .. لماذا تدفع لك كل ليلة مبلغاً من النقود ؟ .

— انصرف عنى حتى لا أؤذيك .

— أرنى يا سافل .

وأمسك كل منهما بخناق الآخر ودخلا إلى الكافتيريا .

وركل شقيق السيدة المدعوة سونيا « سليم » قصبة ساق الرجل ويدعى « مرسى » ، ورد عليه الأخير بقبضة قوية من يده ، وذهبت اللكمة الثانية فى الهواء عندما نجح سليم فى تفاديها .

وانقض مرسى على سليم بعدة قبضات « لكمات » فوق رأسه ، وتطايرت الكراسى فوق جسد ورأس مرسى ، وفرقعت بعض الزجاجات الفارغة فى الهواء وعلى أرض الكافتيريا ، وتهشمت مزاهر الورد وتخلت عن زهورها ، وكان ذلك كفيلا بتجمع العشرات من الباعة العاملين بالجريدة .. واستطاعوا الإمساك بالمتشاجرين ، إلا أن مرسى استطاع الإفلات وطير زجاجة بيرة ملأى نحو سليم ، إلا أنها أخذت طريقها إلى زجاج غرفة الاستعلامات ، فتهشم جزء منه ، وتناثرت قطع الزجاج البللورية عند المدخل ، وهرع رجل الغرفة مذعوراً خارجها .

ودخل كل من الجريتلى وعبد العزيز وشبايك (مشاهير الباعة) وهدأت الجلبة وكف كلاهما عن ثرثرته .. وجلسا كل على كرسى وحوله مجموعة من الباعة ، وأخذت سونيا تمسح وجه شقيقها سليم بمنديل ورقى ، أما زوجها عزت ، فقد ذهب فى خفية من مرسى ليخبر البوليس ، وكتم الباعة عن مرسى الخبر .. لمعرفتهم بأن وجوده غير قانونى بالمدينة ، ولكراهيتهم له ، ومن مصلحة الجميع القبض عليه ، حيث اعتاد منذ

مدة . . الاحتيال على الباعة والبائعات . . حتى الباعة الهنـــود والباكستان . . لم يسلموا من فرض الإتاوة التى فرضها عليهم بالقوة والنصب . . من ليلة بعد أخرى . . نصاب متجول فى المدينة . . حتى الحادية عشرة مساءاً . . بعدها يذهب إلى مقهى أبو الهول حتى الصباح . . فى المقامرة والنصب والاحتيال .

دقائق ووصلت عربة البيجو . . عربة كبيرة بيضاء . . كتب عليها بالألمانية « بوليس الأجانب » ونزل منها ثلاثة رجال ، يتقدمهم شاب جاد الملامح ودخلوا . . وتقدموا نحو مرسى مستعينين بعزت فى إرشادهم ، وأمسكوا به فى هدوء ودون مقاومة . . حيث تمت مباغتته دون أن يحسب لها حساباً . . سلاسل من حديد ضيقة . . تقوده على نحو شديد إلى السيارة . . وتكلم أحد رجال البوليس مع الجريتلى .

وســـعد الباعة جميعاً . . وذهب معظمهم إلى سليم وسونيا وعزت ، للتعبير عن الامتنان لهذا العمل ، وزادت مبيعات الطعام والشراب بالكافتيريا ، وقرأ الشيخ سيد بعض آيات القرآن .

وفى الجانب الآخر ، أوقعت هذه الحادثة آثاراً سيئة على طلبة الجامعة المصريين . . حيث أن الكثيرين منهم انتهت تأشيرة إقامته . . فقبض فى هذه الليلة على عدد كبير منهم يتجاوز السبعين بائعاً .

وفى اليوم التالى وصلتنى رسالة من أحدهم :

عزيزى رؤوف :

أحمد الله على أنى عملت رحلتى .. السجن نظيف .. المعاملة طيبة .. يدفع كل سجين يومياً أربعين شـــلناً . . مقابل الطعام والشراب . . عددنا واحد وثمانون طالباً .. وطالبتين من الإسكندرية . . نسافر خـــلال أيام . . ويتم ترحيلنا إلى المطار بواسطة عربة البوليس . باص ، سأطلب حجز تذكرة إلى .. لا أعرف .. أفكر مع زملائى الذين لا يحبون العودة الآن . .

مع تحياتى ؟

إســـلام خيرى

وفى هذا اليوم . . كان الجو هادئاً بالجريدة .. تم إصلاح ما تحطم من زجاج غرفة الاستعلامات ، ووضعت الزهور فى القصارى . . وكانت عربة وحيد تخشخش كأنما أصابها عطب ، وعند منحنى احد الشوارع وقفنا بالعربة لإصلاحها ، وفتحنا الغطاء الأمامى ، وشد وحيد أسلاكا ، وحرك الأخرى ، وربط إحداها . . وعاودنا السير لكن ببطء ..

وأشعل صاحبى سيجارة ، وزفر دخانها الكثيف لأعلى .. وتنهد قائلا :

ـــ الأحداث تلعب بنا .

رؤوف ـــ أية أحداث ؟

وحيد ـــ ألم تر أحداثاً بالأمس ؟ .

وهز رأسه .. واستطرد يقول : عندما أسير فى الشـــارع خاصة أيام الآحاد .. أشعر وكأن رجلا يراقبنى .. رغم أنى أحمل جوازاً صالحاً وسليما .. لكنه الخوف .

رؤوف — من ماذا ؟ . لماذا الخوف ؟ .

وحيد — من الغد .. لا شىء مضمون .

رؤوف — غلبنا على أمرنا .

وحيد — فى جسدى برد لن يخرج منه ماحييت .. لكنه قد دخل وانتهى الامر ، أحيانا يتكوم الثلج فوق رأسى مثل رصيف أوشجرة الشيفات تبتزنا . . تتوعدنا .. تهددنا . . نعامل بقسوة . . ولابد أن نتحمل ونراوغ .

رؤوف : كنا خيرة الناس فى بلادنا .

وحيد : كنا فى بلادنا أغناماً ونحن هنا أغنام .

لا تقل عن الخيرة وكنا . . كنا لا شىء . . هناك أغنام بلا طعام .. بلا زريبه . . ونحن هنا أغنام . . لها مرعى ومشرب ولها مأوى . . لها راع .

رؤوف — من هو الراعى ؟ .

وحيد — بقية من عدالة النسا .

— ولفنا الصمت .. الصمت الحزين .. وفى شارع السمرنج بالحى

الحادى عشر عند ناصية الكوبالجا نزلت أحضن جرائدى .. إنها حياتى .. وصلت مبكراً .. ورأيت زبائن لم أكن أراهم من قبل .. وفى الثامنة كانت جرائدى عشرين .. اتصلت بالجريدة .. وأحضر الشيف قبل ساعة خمسين جريدة أخرى .. هذا هو نجاحى الحقيقى .

وفى التاسعة والربع تقريباً جاءنى زميل لى من جريدة الكورير .. يدعى عمر عبد الحميد . بائع متجول فى الشارع والملاهى .. تعرفت عليه من قبل .. حيث كان يعمل مفتشاً بوزارة التموين .. وضع جرائده على سلة القمامة .. واقترب منى وهو يحتضن ذراعيه أمام صدره وقال:

ـ كيف حالك ؟ .

رؤوف ـ حسن جداً .

عمر ـ جريدة ثقيلة هذه الكورير .. لا يهمنى أن أبيع جريدة واحدة بعد .. ومشى خطوات إلى الشارع وعاد يقول :

ـ وماذا بعد ؟ .

رؤوف ـ يعنى .

عمر ـ وماذا بعد هذه الحياة ؟ .

رؤوف ـ ماذا تريد بالضبط ؟ .

عمر ـ أنا أريد .. (قالها وكأنه يسخر) .. ومهما قلت أنا أريد .. ما الفائدة ؟ . لم أعد أريد أى شىء ؟ . أى شىء يأتى يجب أن أدرك تماما أنه ما أريده .. أما أنا فلا أريد أى شىء .. ثلاث سنوات وأنا

فى المال أساوى صفر ، أعمل فترة الليل فقط .. أنام طول النهار . . لى صديقة عمرها خمسون عاماً . . أعيش معها منذ عامين .. لم أطلبها . . لكنها أتتنى .. إذاً هى التى أريدها .. هل تفهم ؟. (وضحك) .. كنت أريد فتاة ..لكن هل تؤوينى الفتاة فى بيتها عامين ؟. أنا القوى فى بيت المرأة .. استمرارى ممكن . . أريد هذا الاستمرار لضعفى ولفقرى ولحاجتى .. قل لى ما هو الحـــل ؟ أريد أن أعود .. لكن كيف ؟ . لا أستطيع .. المال صفر .. صفر .

رؤوف : يتردد هذا السؤال فى داخلى منذ حين .

عمر : عندما عملت بوزارة التموين . . اعتقدت أن هذا هو نهاية المطاف ، وسوف يكون لى بعد عامين على الأكثر بيت وزوجة وحياة، لكنى سرعان ما تنبهت إلى أن ما فى رأسى مستحيل .

رؤوف : لكنك كنت تستطيع عمل شىء . . سمعت أن كثيرين مثلك حققوا أمنياتهم .

عمر - لا أستطيع أن أكون غنياً بهذا السلوك ،وكانت كل الظروف حولى تطردنى ولم يكن غير الرحيل من بديل .

رؤوف - لكن رحيلك لم يحقق شيئاً .

عمر - آه . وآه .. عجزت عن تحقيق أمنيتى فى مدينتى ..فكيف تحقق هذه المدينة أمنيتى ؟ ! .

رؤوف - علينا أن نحاول.

عمر ـ كل الذين لديهم أفكار مجنونة يحاولون . . وليست عندى أية محاولات . .

وسكت عن الكلام برهة وقال :

ـ هل يستطيع الضائعون أن يفعلوا شيئاً ؟ .

رؤوف : وماذا تنوى عمله وأنت فى هذه الحيرة ؟

عمر ـ ستظل حيرتى طالما أرتدى مثل هذا الرداء . . وأمسك بجاكت الكوبرى . . حتى بائع جرائد فشلت فيها .

وأجفل نحو الأرض فى حزن وتابع يقول :

لكن آخر عمل له شأن . . حدث قبل سفرى بليلة واحدة . . جمعت كل كتبى الجامعية ووضعتها فى حقيبة قديمة ، وذهبت أحملها إلى كوبرى الجامعة . . ولما وصلت إلى منتصفه توقفت ، وخلعت حذائى . . كان ممزقاً ، وأدخلته فى الحقيبة فوق الكتب ، وأحكمت قفل السحاب ، ودفعت بالحقيبة فى النيل ، ولما تأكدت أن القاع ابتلعها . . عدت إلى بيتى . . كان الوقت منتصف الليل تقريباً . . وسرت إلى حى منيل الروضة حافياً . . ولم يكن يهمنى أن يرانى الناس جميعاً ، لأنى قمت بعمل راق لى . . ووضعت نهاية لآلم . . آخر ليله فى مدينتى حافى القدمين عارى الرأس . . لقد كان عملا يستحق التقدير . . عملا حكيما . . إن غيرى يقذف بنفسه إلى القاع . . لكنى أردت أن أجرب الحيـــاة فى مدينة أخرى .

رؤوف ـ وماذا بعد هذه التجربة؟

عمر ـ الفاشل فى بلدة .. فاشل فى غيرها .

رؤوف ـ ليست هذه قاعدة .

عمر ـ هل كنت فاشلا فى مدينتك ؟

رؤوف ـ فى كثير من الأحيان اعتقدت فى هذا الفشل .

عمر ـ لكنك نجحت هنا .

رؤوف ـ لا يستطيع أحد أن يجزم بذلك . . العبرة بالنهاية .

عمر ـ أتمنى لك حظاً أوفر . . وانصرف إلى أحد البارات .

بعت جريدتين . . وجمعت جرائدى لأعود إلى بيتى : . وفى النزام وجدت بعض الدفء والسكينة ، ولفنى بعض الحنين .. واختلطت .. على نفسى أمور متعددة . . فكيف أعرف إلى من الحنين ؟ . إلى الذين يتقدمون فى حياتهم : . إلى حياة موزعه فى مدينة للحياه وأخرى فيها جذورى . . إلى عمر الذى ارتمى فى أحضان امرأة فى عمر أمه ؟

وفى البيت أخذنى نوم قلق . . كنت أتردى فى فراشى ، وظل عمر يقول فى أذنى طيلة الليل : لن أستطيع العودة . . لن أستطيع العودة .

كانت حياتى تدور حول الجرائد . . ووحيد وماريا وعمر الفره وغيرهم . . ورجل من قريتى . . حصل على الدكتوراه فى الكيمياء .. يعمـــل فى وزارة الصناعة النمسويه .. متزوج من فينويه .. يدعى ياسر رمضان سلامه ، قمت بزيارته مرتين فى بيته .. بعدها لم أزره ..

فتاة من شارع كوبالجاسا تودع صديقها .. كل ليلة يقفان عند باب الحانوت المجاور لى ، يتعانقان .. وعندما يصل اللهيب ذروته .. فإنهما يلتصقان داخله ، وكأن الذى قضياه فى البيت ليس كافيا .. وأن لقاءهما هذا نهاية الحياة . . ولا ينتزع الفتاة من أحضان فتاها إلا دقات جرس الترام الذاهب إلى قلب المدينة حيث بيتها . .

وقطعة أخرى من الحياة حولى .. ولدان صغيران لم يتجاوز عمرهما السادسة عشرة ، اتخذ كلٌ منهما شقيقة الآخر صديقة له ، يقضيان أربعتهم بعض الوقت فى المقهى ثم يذهبان إلى البيت ، وفى كثير من الأيام يأتيان إلى جرائدى لشراء مجلة سكس . . وسألت الفتاة التى من شارعى فى أحد الأيام : كيف حال الحب معها ؟.. فقالت :

ـ ليلة البارحة عملنا إثنين حب .

رؤوف : وهل يتسع البيت لأربعة ؟

الفتاة : إن حجرة واحدة تكفى لإحداث الحب ، ويروق لنا فعل الحب متجاورين . .

وهذا الفتى جريك . . حاصل على دبلوم الصناعة ، يعمل فى محل والده لتصليح السيارات ، له ثلاث صديقات .. كل ليلة يقضى الوقت مع واحدة ، وثلاثتهن يعرفن ذلك ، ورأيت واحدة منهن يحتضنها رجل فى وسط المدينة ، وأخذها بعد الأحضان ليدخل بها إلى إحدى البنايات ، وبعد أيام وجدتُ الثانية تجالس رجلاً فى مقهى بميدان

هزت كتفيها وقالت وهى تمتعض :

— لا أعرف ! . .

كأن كرة من البالون نُفِخَتْ داخل رأسى ، وقد تنفجر داخله ، ولم أعد أستطيع تحمل أفكارى وأفكار الآخرين . . وعُدْت إلى البيت هذه الليلة شارداً وئيد الخطى . . ولمّا أمسكت درابزون الدرج لأصعد إلى شقتى . . كنت أصعد بصعوبة بالغة ، كيف أترك الحياة فى الخارج وأدخل إلى الصمت الرهيب ؟ وانهمرت الدموع من عينى ساخنة ، ولم تتوقف ، إلى أن بدأت أغتسل لأصلى . . كنت كثير البكاء كالنساء ولم أكن هذه الليلة فى حاجة إلى إمرأة ، صليت وتناولت الطعام ، احتميت فى فراشى كأنى أفرُّ من العالم الكبير ، عالمٌ كبير خارج البيت يخيفُنى . . مرّت أيام وتبعتها أخرى ، وعمر الزمن يمر بغير جديد ، شىء يذهب وآخر يجىء ، وعالم يدور بخاطرى وبقايا المادة من عالمى وعالم الآخرين . . كأن الشمس تغرب والعالم ينزل بعيداً عن كل الآفاق ، وأيام النهار بعيدة هناك . . فى ظلمة العبث اللامحدود ، كان العالم يهوى ، وأنا أسقطُ تحت الأقدام ، وكان شيئاً مثل الجنون يلتفُّنى . . لأنى تركت نفسى بغير حدود ، ولم يكن فى مقدورى التوقف أو القعود ، وحاولتُ أن أنسى أمى كى يذهب الألم . . لكنى لم أستطع ، وبعد ذلك كلّما حاولتُ كنت أعتصر . . وكانت هناك الحياة حولى . . حياة من صنع الآخرين تجعل الحياة الجامدة والمتألمة فى داخلى تنصهر وتذوب . .

الإنسانية والمبادىء .. حتى لا تكون هـــذه الحضارة حضارة سطح وليست حضارة جذور !..

رؤوف : يا سيدتى . هل توجد حرية نجد فيها إنسانية أفضل وحضارة لها قيمة ؟..

السيدة : حرية الإنسان فى داخله .. ومبادؤه أيضاً ، والحرية الحقيقية بالتالى ، هى ألا يعتدى رجل على رجل ، أو رجل على امرأة فهذه حرية التنكيل بالقيم ..

رؤوف : هل هناك كثيرات وكثيرون مثلك يحملون نفس الآراء ؟..

السيدة : كثيرون جدا .. لكن التيار أقوى ..

رؤوف : أين تعملين يا سيدتى ؟..

السيدة : بالكنيسة .

رؤوف : أسعيدة فى عملك ؟..

السيدة : ليس هناك من هو سعيد فى عمله تماماً ، أؤدى عملى داخل الكنيسة ولا أستطيع أن أفعل شيئاً خارجها ، لا يلتزم أحد بتعاليم الكنيسة ، فى الشارع والجامعة والمصنع ، نتائج ضئيلة ، لقد تفتت المجتمع .. لا يهم إلا العمل من أجل المال الوفير ، وفى المساء تحيا مراقص المدينة وملاعب التزحلق على الجليد ..

رؤوف : ما هو الحل يا سيدتى ..؟

ـ ما هى الصورة التى عليها المرأة فى الشرق ؟

ـ صورة حديثة وأفكار مترددة . . تشعر أنها تورّطت فى العمل خارج البيت ، وللأسف كثير منهن يتقن إلى مزيد من الحرية ..

السيدة : عليها أن لا تفعل . . وتعود إلى البيت طالما أصبحت زوجة أو أماً . . قد يكون من المناسب أن تعمل الفتاة بعد أن أخذت قسطاً من التعليم . . حتى تشعر على الأقل أنها استفادت من علمها ، لكن عندما تدخل هذه الفتاة بيت الزوج عليها أن تكون زوجة وأماً وامرأة مجتمع فقط . .

رؤوف : المرأة العاملة فى مدينتى . . ليست عاملة بنسبة ثلاثين فى المائة ، وأيضاً ليست زوجة أو أماً بنفس النسبة ، والفتيات أيضاً لا ينجحن إلا فى بعض أعمال مناسبة لهن . .

السيدة : ليت المرأة عندنا خرجت للعمل فقط .. لكنها خرجت إلى المقاهى والملاهى والبارات ، خرجت إلى الحرية أو الصداقة ، وكأن أبناء هذه الحضارة جميعاً ، فى حاجة إلى ركن مظلم يلقون فيه بأوساخهم ، فاتخذوا من الحرية طريقاً حتى يستطيعوا ذلك !..

رؤوف : أى حضارة تقصدين ياسيدتى ؟..

السيدة : حضارة هـــذه المدينة ، ومدن كثيرة فى العالم ، حتى مدن الشرق التى بنيت فيها ناطحات سحاب ، واستخدمت الكمبيوتر والذرة الخ . . هذه حضارات مادية بحتة ويجب ألاّ تتخلى عن القيم

ومرت الأيام فيها .

عاملنا الناس على أنى رجل من أشناف أفريقيا . . وكان ذلك صحيحاً ؛ فالحذاء ضخم يحمل فى داخله قدم جمل البيداء ... وعاملنى بعضهم كالحيوان وهم لا يتعدون أصابع اليد .. وآخرون على أنى رجل عادى أمارس عملى مثل واحد منهم .

وأخذ الزمن يذهب بى كما يريد ، ولم أكن أدرى أهـــذا زمانى أم زمان الآخرين ؟

ومرت الأيام على أى معنى فوق رأسى ، كأنها قضيب حديدى ، الإنسان الذى باع نفسه للحياة ، عليه أن يترك الأمور دون أية فلسفة ، هذه معمعة الحياة ، وهذا الشىء يغلى وغيره فى داخلى ؛ كأنه الغليان ، ولو أحدثت به أثراً عميقاً ينهار . . يندفع الجميع كالطوفان ، بعد ذلك يحدث العبث ، وكان كثيرون مثلى من باعة الجرائد . . جاءوا إلى فينا ليتفرجوا أثناء قيامهم بالعمل ، وهل يستمر ذلك مع كل الصخب . . فينا ذخر الحياة . . جاء الناس إليها ليتمتعوا أيضاً بعد العمل .. أطبتْ المرأة ذات المعطف رائحة النساء فى أنفى ، ودخلت المادة أفكارى ، وبدأ اللهيب ومعه النفس الضعيفة يتحفزان !..

وفى ليلة من الليالى أعيانى حمل جرائدى ، تألم صدرى ، فلذتُ بالحائط ألصقَ به ظهرى ، وحلت الراحة قليلا محل الألم ، وفى العاشرة أتتنى سيدة وقور فى الخامسة والأربعين من العمر ، اشترت كرونا ومكثت بعض الوقت معى ، حيث بدأت حديثها قائلة :

تأخذينى فى سيارتك إلى البيت ؟ .

المرأة : سيارتى فى ورشة الميكانيكى .

رؤوف : إذن علىّ أن أعود وحدى ماشياً ؟ .

المرأة : وسيارات التاكسى ؟ .

رؤوف : أنا متقشف يا سيدة المدينة .

هزت المرأة كتفيها وفتحت بابها لرؤوف وهى تحمل له كثيراً من الغيظ .. وكأنه لقنها درساً .

وكتبت السيدة رسالة لزوجها .. دعته فيها للعودة .

لكن ما أثار انتباهى .. المعاملة الطيبة والرقيقة من موسمات هذا الحى .. وفى ليلة ذرفت كثيراً من الدمع .. عندما دار الحديث بينى وبين إحداهن فى وقت متأخر من ذات ليلة :

ـ أنت تقف طيلة الليل .. هل أحضر لك مقعداً من بيتى ؟ .

رؤوف : نظام العمل بالجريدة هو الوقوف .

المرأة : ألا يوجد عمل آخر ؟

رؤوف : لا يوجد .

المرأة : سأبحث لك عن عمل . . الليلة لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً .. أعطنى جريدة .

وأعطيتها ، ونقدتنى خمسين شلناً وانصرفت .

المرأة ـ تعبت من المقهى والناس والوحدة التى تركنى فيها زوجى .

رؤوف ـ أنا رجل لست من قومك حتى أفهمك .

المرأة ـ خرج كل شىء عن نطاقه . . أتيت برجل من المقهى الليلة حتى أقضى حاجتى معه . . قدمت له الخمر وجئت إليك أشترى الجريده وعندما عدت وجدته ثملا حتى نهايته . . فقذفت به إلى الشـــارع . . وجئت إليك . . جئت إليك وأنا ضجرة أصرخ من كل الرجال السكارى . . أنا بحاجة إلى رجل لا يشرب . . لا لأقضى حاجتى . . بل أريد أن يفهمنى يسمعنى يعيش معى فى الوعى . . وأنت ترفض . . أنت الذى تعيش فى الوعى ترفضنى أنا لا أستطيع أن أرغمك على شىء . . فأنا امرأة لها كثير من الكبرياء والخجل . . غير أنى صريحة فى حديثى مع الآخرين . . أريد رجلا يفهمنى بعمق دون أن أتكلم . . ولكنى لا أجد . . فأتكلم بصراحة . . توقعنى هذه الصراحة فى الكثير من المشاكل . . أنظر من كل المقاهى والبارات . . كل الناس تذهب للبحث عن شىء . . الرجل يبحث عن امرأة ، والمرأة تبحث عن رجل . . وآخرون يبحثون عن لا شىء . . وكأن الناس جميعاً خرجوا عن دائرة الوعى وعاد كل منا فى اللا عقل ! .

رؤوف : أنت سيدة طيبة . . وأتمنى أن تعودى إلى زوجك .

المرأة : بعد أحداث الليلة . . سأرسل له داعياً أن يعود .

رؤوف : أنا رجل منهك القوى يا سيدتى . . رقيق الحال . . وفى حاجة إلى النوم . . ولقد فاتنى الترام . . فهل لى بعض الأمل أن

المرأة ـ ليس هناك ضير فى هذه المادية ، لم ندع الأيام تمر ؟ الأيام تأخذ منا عمرنا ؟. لماذا يذهب العمر سدى ؟

ولما وجدتنى أحسن الإستماع إليها قالت :

ـ دعها تنتظر حتى تتعود على ذلك ولا تفعل ثانية .. ستأتى معى الليلة لترى شيئاً من حياتى .

رؤوف ـ لم أتعود على حياة الآخرين .

المرأة ـ أنت كالطفل ، لم أر رجلا خائفاً من قبل ، أريد أن أبحث فيك عن شىء لإمرأة .

رؤوف ـ لا تهمنى خصوصيات النساء .

المرأة ـ لا تظن السوء بى . . أنا لست امرأة عامة . . اخترتك وفضلتك عن رجال المقهى .

وساعدتنى فى حمل حقيبتى وذهبت إلى بيتها . . وأعدت لى طعاما شهياً وارتدت أرق الثياب وأحلاها .. وأخذتنى من يدى إلى حجرة خاصة ، بها مكتب وعدد من الكراسى ، وجلست هى على المكتب قائلة :

ـ فهمتنى من الخلف وليس من الأمام .

رؤوف : ما هو الخلف والأمام ؟ .

المرأة : أقصد فهمتنى فهما خاطئا . . أنا فى حاجة إلى رجل أحادثه فقط بعد الذى حدث .

رؤوف ـ ما الذى حدث ؟ .

ووقفت قائلة :

ـ تأتى الليلة معى للعشاء ؟

رؤوف ـ أنا فى حاجه للنوم . . وليس للعشاء .

المرأة ـ هناك سرير فى بيتى .

رؤوف ـ هذا يخص زوجك .

المرأة ـ رحل عن بيتى . . اختلفنا وتركنى ليعمل فى أفريقيا .

رؤوف ـ ماما ماريا تنتظرنى .

المرأة ـ من تكون هذه المرأة ؟

رؤوف ـ صاحبة البيت .

المرأة ـ ما عمرها ؟

رؤوف ـ ثمانون عاما .

المرأة ـ ها .. ها . . لا شىء يؤلمها إذا انتظرتك حتى الصباح .

رؤوف ـ تتألم كثيراً . . إنها تعاملنى مثل أمى .

المرأة ـ وماذا يعطيك هذا الحب ؟

رؤوف ـ حب الأم لابنها .

المرأة ـ أمك شىء وهى شىء آخـــر ، كلنا نحب أمهاتنا وأمهاتنا كذلك .

رؤوف ـ أنت مادية فى أفكارك .

لو تناثرت بقية الجرائد .. وجمعنا جريدة لا تباع ، ووقفنا وقفة بغير انتباه ، ولم تمسك السيدة بيدها المعطف ، وأخذت جريدتها بكلتا يديها ، وتأملتى السيدة والصفحتان مفتوحتان : قميص أبيض شفاف .. وقطعة من الحرير تقبض على خصرها شبيه البان ، وانصرفت دون كلمة واحدة ، وكان يغلب عليها اللا مبالاه ، وسارت إلى بيتها والمعطف حر . . لا يهمه الرجال .. طيرته الرياح كما تشاء ، وتمخطرت السيدة فى دلال ، ودخلت بنايتها ، وصفقت باب شقتها باحترام .

ـ النساء تصفعنى على جسدى؟.. أين قرارى والرياح تقذف بى إلى أى مكان ؟ كنت مغلوباً على أمرى ، ضعيفاً واهنا . . ما قيمة الحياة دون إرادة ؟.. دون عدالة ؟.. دون حق فى الثروة ؟.. دون حرية حقيقية ؟. . من حق الطفل أن يرضع ثدى أمه . . إنى أمارس حياتى عنده منحنى رهيب .. صنعه الآخرون لى .

كم كانت دهشتى !.. قبل الحادية عشرة بقليل . . جاءتنى صاحبة المعطف . . واندفعت نحوى قائلة :

ـ لم تكن تتوقع مجيئى ؟

رؤوف ـ أنسيت شيئاً ؟

المرأة ـ أتيت من أجلك .. ألم ينته عملك بعد ؟

رؤوف ـ خمس دقائق .

وجمعت الجرائد معى فى الحقيبة .

إليها ، إلا أنني أشحت بوجهي إلى الناحية الأخرى ، وسرت إلى المقهى ، وبعت خمس جرائد ، وعدتُ أدراجي إلى الشارع ، وجدتها تقف عند جرائدي المرصوصة ، تتصفح إحدى مجلات السكس ، ولما اقتربتُ منها ابتسمت قائلة :

- كيف حالك ؟

رؤوف - حسن .

المرأة - أنت متعب الليلة .

رؤوف - أنا بخير . . لكنه شيء مثل البلادة . . كأني مخدّر . .

المرأة - يستمر ذلك طويلاً ؟ .

رؤوف - يرتبط بمعاملة الناس ..

قالت وهي تبتسم :

- لم أقصد مضايقتك . . آسفة . .

رؤوف - لا يا سيدتي . . لا . . العفو . .

المرأة - هل لي أن أقدم مساعدة لك ؟ .

رؤوف - شكراً . . شكراً . .

المرأة - من فضلك اعطني كرونا .

ومدت يدها بالنقود ، واهتزت يدي وأنا أعطيها الكرونا . . فوقعت الجريدة متناثرة على الأرض ، جاست القرفصاء لجمعها والسيدة معي ، انسدلت صفحتي المعطف بغير تردد عن جسد المرأة ، وتمنيت

أبحث عن العالم الحر

حيث كانت حياتى تختلف تماماً عن حياته . . لكن هذا الرجل الرقيق المهذب . . بقى فى مخيلتى كنموذج فريد للشباب الذى تعلم وتأدب . .

كان داخلى طموح لاحتواء الدنيا كلها . . لم أكن أبحث فى عالم المتعلمين والمثقفين لأجد عالمى . . كنت أكره كل من سار فى العلم حتى نهايته ، وأسخر منه ، لأن العلم فى مدينتى لم يعطنى شيئاً . . وقد تكون هناك أسباب أخرى . . كنت أبحث فى العالم الحر عن عالمى . . فى البارات . . الملاهى . . الشوارع . . كل الناس العامة . . باعة الجرائد . . عمال الفنادق . . عمال الإعلانات . .

وكان هناك أمامى فى عمل الليل بناية ضخمة . . شيّدتها مؤسسة حكومية للعاملين فيها . . سكانها من الكادحين . . مثقفون . . مهتمون بالسياسة والاقتصاد أكثر من أى شىء آخر ، يميلون إلى شراء جريدة الكورير . . شأنهم مثل كل المناضلين فى العالم . . يدفعون ثمن الجريدة دون بقشيش ، وكانت هناك سيدة تقطن البناية . . متزوجة من أحد ميسورى الحال ، وتعمل موظفة بأحد مصانع البيرة ، تأتى من يوم إلى آخر تشترى جريدة الكورونا الاجتماعية . . وفى العاشرة من مساء أحد الليالى . . خرجت السيدة متدثرة بمعطف ثقيل . . واخترقت الشارع نحوى . . حتى بلغت محطة الترام عند المنتصف ، تمسك بياقة معطفها من الخلف كمن تلصقه بقفاها ، وتقبض بيدها الأخرى على زمام المعطف من الأمام ، وعلى رصيف المحطة وقفت . . وبدا عليها التردد فى الوصول إلىّ ، وأشارت بأصبعها نحوى كى أذهب

الفسد بنهوف ، ويومها كنت أبيع جرائدى على ناصية المشرب ، ولمّا همّا بالخروج ، وقفتُ بجانب الباب متظاهراً بعدم الانتباه ، فضربتنى الفتاة على ذراعى وقالت :

ـ فى جيتس ؟ (كيف حالك ؟..) .

وأسرعت تلف ذراعها حول خصر الرجل ، وفى الناصية من شارع الجيرتل ، دخلا فى سيارة فولفو عتيقة ، كُتب عليها « سالزبورج » .

وفى مساء نفس اليوم وجدت جريك مع الثالثة يأخذها إلى بيته .. ولم يمض أسبوع . . حتى وجدت هذه الفتاة الأخيرة . . تعانق شاباً فى عربة الأوبان . .

بعدها فهمتُ أن لجريك ثلاث صديقات على الشيوع . .

وسألت الفتاة الثالثة ، والتى من شارعى ، فى إحدى الليالى :

لِمَ لا تصادقين واحداً ..؟ فردت باقتناع :

ـ الصديق الوحيد قيد على حريتى .

أما السيد فاجنر . . فيذهب كل مساء إلى جيرتل المدينة ، حيث يوجد مقهى فيه كثير من الرجال ، فإذا أفلح فى مهمته عاد برجل إلى بيته ، لكن فى معظم روحاته يعود وحيداً . .

والرجل بلاتز . . يبلغ من العمر سبعين عاماً . . يأتى إلى كوبالجاسا ليزور صديقته مارى كل ليلة . . يقضى معها وقتاً من

السابعة حتى العاشرة كل مساء . . ويعود إلى بيته عن طريق الترام ، ويقف عند جرائدى يتصفح واحدة بعد الأخرى دون شراء واحدة ، وفى كل ليلة يجرى معى حديثاً مللته كثيراً . . على هذه الشاكلة :

ـ أليس لك صديقة ؟ . .

رؤوف : لا . .

الرجل : لماذا ؟ . .

رؤوف : ليس لدى وقت . .

بلاتز : أيام الآحاد . .

رؤوف : لدىّ عمل . .

بلاتز : يبدو أن قضيبك كسول الخ . . الخ . .

حديث مكرر سقيم . .

وكنت أجارية فى الحديث . . أىّ حديث حتى يذهب فى الترام . .

وكان هناك عدد من المومسات . . يمرون من أمامى كل ليلة . . يذهبن إلى أعمالهن . . ثلاث منهن يقفن معى فى دائرة واحدة . . واحدة فى الناحية الأخرى من ناصية كوبالجاسا ، وثانية على الناصية الأخرى من شارع جانبى ، وثالثة فى مقابلتى بشارع السمرنج . . يقفن من الثامنة ولا تحل الساعة التاسعة . . حتى يأخذهن الرجال . . ألم أقل لكم إن عالم الشارع غنى وزاخر !

وكنت واحداً من ثلاث مومسات تمثل دائرة لها أربع نقاط . فى ميدان صغير فى شارع السمرنج . . من الحى الحادى عشر فى مدينة فينا . .

والرافضون المحافظون . . ذاهبون إلى حياتهم دون أدنى جلبة . . يحملون بين ضلوعهم مشاعر رقيقة . . إنهم يعيشون فى عالم آخر قوى ! . .

وفى مساء كل أحد . . كانت هناك سيدة لا يتجاوز عمرها خمسين عاماً ، تشعُّ سمات وجهها سماحة وشفافية ، قبعة سوداء فوق رأسها . . ترتدى هـذا النوع من القبعات سيدات المجتمع الراقى ، تسير وهى تتلفتُ يُمنة ويُسرة فى أبهة وعظمة فى كثير من الحياء والخجل ، لمحات رقيقة نبيلة ، ترتدى فستاناً من الصوف الأسود الثقيل . . واسع طويل يكاد يحف بالأرض ، وفوقه معطف رمادى أحكِمَ قفل أزراره ، وتمسك فى يدها حقيبة صغيرة لها مقبضٌ من العاج ، وعندما أتابعها وهى تنصرف . . أراها فراشة بيضاء . . تلبس حلة سمراء . . تطير من الأرض فى تعَفُّف إلى السماء . .

كنت أضيف إلى الأشياء التى أراها . . من ظنونى وخيالاتى . . لأن القمر كان صاحبى . . والسماء مرآتى ومظلمتى . . حتى الرعد والبرق الذى يكاد يحرق الناس جميعاً . . يتلمسنى برفق ، وكان يرافق السيدة فى بعض الليالى سيدة أخرى تعمل فى خدمتها . . وعلمت من أحـــد الرجال زبائنى أنها سيدة تنتمى إلى الأسرة المالكة لمعظم أراضى النسا . . منذ قرن مضى . . ولم تكن تقرأ الصحف كل صباح ومساء . . بل كانت مولعة بقراءة كتب الدين والفلسفة والأدب . . ولقد مرت هذه السيدة عدة مرات فى هذه الاحاد ، تذهب إلى الـكنيسة فى المساء . . حيث كانت تقام بعض الأنشطة التى تشرف عليهـا ، ولم تشتر مرة واحدة

جريدة أو مجلة . . وفى يوم أحد توقفت عند جرائدى ، وبجانبها مديرة بيتها ، وأخرجت ورقة فئة المائة شلن ، وأعطتها للسيدة لتعطيها لى ثمناً لجريدة كرونا ، وناولتها الجريدة . . وأخذت مائة شلن ، ولما مرت فى أحد آخر ، كانت السيدة الكريمة بمفردها ، وأنقدتنى ورقة ذات الخمسمائة شلن ثمناً لجريدة واحدة ، ولما هروات إليها لأقول لها إنها خمسمائة شلن يا سيدتى ، قالت وهى تبتسم : لك . . لك . . فشكرتها ثلاث أو أربع مرات ورفعت يدى على رأسى بالسلام . . ولما عدت إلى مكانى ، أخذت أحدث نفسى بصوت مسموع ، وكان دمعى دافئاً غطته قطرات الندى . . كأنه رسالة شكر إلى السماء ، وواظبت السيدة على الحضور . . تشترى الجريدة بمائة شلن . . خمسين شلن . . خمسمائة شلن كل شهر تقريباً . . واستمرت هذه السيدة الفاضلة على ذلك معى .

تكاد تكون هذه اللقطات التى نقلتها . . أو مشابهة لها أو تختلف قليلا . . هى حدثى اليومى والمكرر كبائع جرائد .

ومرت الأيام تحملنى حمل الرياح للرمال ، والتى سرعان ما تلوذ بالأرض . . وكان الناس حولى يزدحمون من كثرة أحداثهم ، وفى داخلى يطوقونى . . فلماذا لا أطوى صفحة الألم ؟ . . ورغم أن الوحدة هى التى تسبب معاناتى . . إلا أننى ألفتها ، وكل ماشعرت به هذه الفترة ، أننى فى حاجة إلى المرأة . . وتذكرت المرأة التى كنت أحبها فى مدينتى ، ولم أستطع أن أفعل لها شيئاً . . وباتت الذكرى حزينة ، ترى ماذا فعلت بعد رحيلى ؟ وتمنيت أن تجد رجلاً لديه كثير من المال .

إن قلة الموارد وتعدد الحاجات كسرت من قدرة الرجال فى أن يقيموا بيوتاً يختاوون فيها المرأة التى يحبونها .

والذين لديهم المال لا يعرفون ما هو الحب . . وأحبوا المال والمال فقط .

لكى يعيش الناس . . يشهر كل واحد منهم سلاحه حتى يعيش ، وإن لم يفعل يموت من الجوع . . انقلب الناس جميعاً فى أعمالهم إلى قصابين .

قهر الرجال جعل المرأة حزينة منتهى الحزن . . لأنها فى حاجة إلى قدر من الحب والإنسانية . . والإنسانية فى حاجة إلى الحب .

من أجل المادة . . أركع تحت الأقدام فى فينا . . أركض خلف السيارات . . أجالس نساء الليل فى المقاهى ، أبعث إليك يا امرأتى فى مدينتى . . دعك من الحب . . لم يعد هناك حب ، أنا بائع جرائد وث الثياب . . خادم . . ألهث خلف أى امرأة . . ليس لى واحدة بعينها . . أنا رجل على السطح أعيش من فتات الثلج .

وفى أحد الأيام تخيرت إحدى الفتيات . . وتحدثت معها حديثاً صافياً . . ولما فاتحتها فى الزواج قالت : لا . . ولما سألتها عن السبب . . هزت كتفيها وانصرفت . . وأخذت أفكر فى الأمر . . فأدركت أن بائع الجرائد يتزوج من بائعة جرائد . . ولا توجد فينوية بائعة جرائد . . وعرضت على امرأة الزواج بها . . فقالت : « أجرّبك أولا لمدة شهرين ! . . »

إن ضياعى وألمى . . كان نتيجة طبيعية للخراب الذى حل فى كل

بيت ، نتيجة المعصية والظلم والكراهية ، ولم يعد فى إمكان أحد دفعه لأن المصلحة الفردية المتجردة من أى إيمانيات . . من مصلحتها أن يظل هـذا الجو الأسود . . الناس يدفع بعضهم البعض الآخر إلى الشر . . زمان صار فيه الناس جميعاً أصحاب سوء .

وبحثت عن شيء يخص صلب الحياة غير المرأة .. وبحثت عن عمل فى الصباح .. وبعد أيام حصلت على مكان لبيع الصحف، فى محطة القطار الدولى . . فست بنهوف . . وكان الشيف هوفر رئيس وردية الصباح هذه أصلاً . . لقد علمه الباعة الكانيين . كيف يتكسب من عمله هذا فوق مرتبه .

وطبقوا مبدأ فتح مخك .. حيث قالها الشيف هوفر.. فى يوم جاء لزيارتى فى صباح أحد الأيام .. وناولته فى يومها مائة شلن واشتريت له كرتونة من سجائر الدنهيل . . وقال وهو ينصرف بالعربية الركيكة :

فتح مخك تأكل ملبن .

فضحكت وقلت له :

ــ أريد مكاناً أكبر يا شيف .

الشيف ــ شويه شويه .

رؤوف ــ أتمنى أن تزورنى كل أسبوع .

وذهب الرجل ليمر على بقية الباعة .

البائع يرشى والشيف يرتشى . . حتى يبقى البائع فى مكانه على الأقل . . وكان العمل صباحا حتى العاشرة والنصف يقتضى أن أقوم

من النوم مبكراً فى الرابعة والنصف . . لكى أكون فى عملى الخامسة والنصف أمام باب محطة الفست بنهوف ، ولمَّا أعود إلى البيت فى الحادية عشرة والنصف .. أتناول الطعام وأصلىّ وأنام فى الواحدة تقريباً . . كى أصحو فيما بين الثالثة والنصف والرابعة . . لأذهب إلى جريدة المساء فى الرابعة والنصف .. حتى ينتهى عملى فى الحادية عشرة وأنام فى الثانية عشرة والنصف . . لأصحو فى الرابعة والنصف . . وهكذا يدور النهار والليل . . العمل . . العمل فقط . . الشان . . الشان فقط . .

وفى إحدى الليالى الباردة ، عدت إلى البيت . . أتألم ألماً شديداً فى ظهرى وصدرى ، وأويت إلى فراشى محاولا النوم ، وضغطت على صدرى بيدى فى محاولة لتخفيف الألم ، وغطيت جسدى حتى رأسى بإحكام ، وأخذنى نعاسٌ قلق فيه يضربنى الألم بقوة . . وعويتُ آخر الليل كالكلب الصغير أو القطة ، ولما استيقظت فى الفجر . . كان الألم قد انتشر فى الجسد كله . . وفى الخامسة إلا قليلا . . خرجت من البيت إلى عمل الصباح ، وعلى الدرج أكملت قفل معطفى ، وعدلتُ من غطاء الرأس فوق جبهتى . . واتجهت أمشى إلى نفق إشطاتبان بالجيرتل ، أفرغت السماء الثلج من بطنها ، ولم يتبق غير حبات قليلة من المطر تلامس وجهى ، وعندما اقتربت من شارع الجيرتل « الجزام » ، وجدت رجلا يجرى أمامى . . يرتدى جاكت الجريدة . . يحدثُ صوتاً من فمه . . مثل صوت عربة . . صوت قطار . . صوت دراجة . . يلفُّ ذراعيه يمنة ويسرة . . كمن يقود

عجلة قيادة ثقيلة الحركة ، وناديت عليه : قف أيها القطار . . قف أيها القطار . . ولما توقف واستدار . . رأيته تماما . . إنه الشيخ سيد البلاموطى . . صافحته قائلا :

ـــ ماذا تفعل يا شيخ ؟ .

سيد ـــ إنى أشعر بسعادة كبيرة ، أجد نفسى فى هذا العبث .

رؤوف ـــ كل يوم تفعل ؟

سيد ـــ كل يوم . . إن ذلك يعطينى قوة معنوية هائلة . . تعال نجرى . . وجريت معه . . ورفسنا الثلج بأقدامنا . . وضرب كل منا الآخر بكراته المتناثرة .

وركبنا العربة الأخيرة ، ونزلت عند الفست بنهوف ، تاركا الشيخ سـيد ينزل فى المحطة التالية ، وفى السابعة اشتدت آلامى ، ولاحظ بعض زبائنى علامات ما نزل بى .. فسألوا عنى بعبارتهم المشهورة :

ـــ فى جتس ؟ . (كيف حالك) .

ولما وصلت البيت قبل الظهيرة .. دخلت إلى ماما فى غرفتها الداخلية ، وأخبرتها بمرضى ، وتبعتنى إلى فراشى ، وجلست بجانبى ونصحتنى بالذهاب إلى الطبيب ، وأخبرتنى أن هناك كثيراً من الأطباء خلف الكنيسة المجاورة . . وقامت إلى غرفة سيلفيا ، وجاءت معها الفتاة ، وحاولت أن أعتدل فى نومتى .. فأشارت سيلفيا بيدها قائلة :

ـــ أخبرتنى ماما بمرضك .

رؤوف ـــ آلام بردية .

سيلفيا ـــ لأول مرة ؟

رؤوف — منذ مدة أعاني من هذه الآلام ، لكنها منذ البارحة وهي شديدة .. شديدة .

سيلفيا — هل لي أن أذهب معك إلى طبيب ؟ .

رؤوف — هذا كثير عليك .

سيلفيا — إن هـــذا لا يكلفني أدنى عناء . . خمس دقائق .. أرتدي فيها ملابسي .

وخرجت ماما وهي سعيدة . . بذهاب سيلفيا معي إلى الطبيب ، وقت لأرتدي ملابس داخلية نظيفه وملابس أخرى أرتديها أثناء التنزه . . وجاءتني سيلفيا مبتهجة ، وودعتنا ماما حتى الدرج ، وأمسكت بالدرابزون حتى لا أفقد توازني ، وأمسكتني سيلفيا من ذراعي وشعرت بدوار خفيف في رأسي ، ووخز كالإبر في صدري وظهري ، وعند أول منحنى يمين في شارع جوزيف .. عطفنا في شارع لانجاجاسا المتجه إلى الحي التاسع .. وبالسؤال وجدت سيلفيا طبيباً للروماتيزم .. وصعدنا في بناية قديمة .. حيث شقة الطبيب في الدور الثاني . . بصالة العيادة استراحة للمرضى .. مكتب جلست خلفه سيدة ضخمة الجثة .. يعلو رأسها فروة من الشعر القصير الأحمر .. وجه أبيض بارز الملامح .. ترتدي نظارة بيضاء سميكة . . تبرز عينيها الجاحظتين . . وكان على هذه المرأة أن تترك عيادة الطبيب لتعمل في معمل للطرشى ، وهناك في غرفة كبيرة تقع على باب لهذه الصالة الاستراحة الرئيسية للمرضى ودفعنا الكشف مائة شلن وأخذنا نمرة وتذكرة بها بيانات عن المريض

وتصفح كلانا مجلات وجرائد وضعت على مائدة صغيرة بهذه الصالة .
وبعد قرابة ساعة جاء دورنا .. دخلنا غرفة الاستراحة ومنها إلى باب غرفة الطبيب ، وتقدمتني سيلفيا . . حيث وجدنا فيلاً ضخم الجثة كممرضته .. يحضن مكتبه .. كمن يمسك بقارب وسط أمواج البحر ، ويبتلع خلف ظهره العريض دولاباً للكتب والأجهزة .. وحدق فينا كمن لم ير أناساً من جنسنا من قبل ، وصاح بصوت عال ، ونحن نتقدم نحوه :

— ماذا تريدون ؟

سيلفيا : ما الذى تبيعه حتى نشتريه ؟ .

الطبيب : ماذا تعانى ؟

سيلفيا — آلاماً روماتيزمية .

وصمت برهة وقال : — أين ؟

رؤوف — فى ظهرى وصدرى . .

وحدّق فى دفتر أمامه ، وتململ فى جلسته ، وهربت ذقنه فى صدره . . وقال :

— ما اسمك ؟

— رؤوف

وكتب فى ورقة كورق الرسائل . .

وأخذ الطبيب يصف لسيلفيا عنوان طبيب الأشعة . . علينا أن نحضر الأشعة اليوم . . حتى نأخذ العلاج بناءاً على نتيجة « دقيقة » .

وخرجنا من عنده . . لم ينبس كلانا ببنت شفة . . حتى وصلنا إلى الباب الخارجي للمبنى . . فقالت سيلفيا وهي تمسك بذراعي :

— هل يعامل كل المرضى مثلنا ؟ . .

رؤوف — إنه طبيب غليظ القلب . .

سيلفيا — المتعجرفون كثيرون .. سوف أدخل أنا عند العودة .

كانت عيادة الأشعة أكثر نظاماً ، يقوم بإدارتها ممرضتان جميلتان ، وفي غرفة الأشعة المظلمة . . خلعت ثيابي عدا سروالي . . ولما انتهيت .. أخبرت سيلفيا الممرضة بأني جاهز ، وقامت الممرضة بعمل الأشعة على ظهري وصدري . . وارتديت ملابسي ، وعدت لأجلس مع سيلفيا في حجرة صغيرة مع ثلاثة من المرضى الرجال ، وانتظرنا نصف ساعة ، ودخلت بعدها إحداهن ممسكة بغلافين كبيرين بهما أشعة للظهر وأخرى للصدر وقالت :

— لا شيء . . الظهر والصدر فيهما جود . .

وانصرفنا إلى عاملة الطورشي وطبيب الضفادع ، ودخلت الممرضة مع سيلفيا إلى الطبيب . . حيث اطلع على الأشعة والتقرير ، وجاءت سيلفيا ومعها روشتة بها الدواء المطلوب شراؤه . . ومن صيدلية مقابلة للمبنى ابتعنا الدواء . . حبوب . . كريم لتدليك مكان الألم . . ودواء شراب .. واخترقنا ميدانا صغيراً . . يفصل فينا الحي التاسع عن فينا الحي الثامن . . وقلت لسيلفيا ونحن نمشي في شارع الانجا جاسا :

— ألديك وقت ؟

سيلفيا — لماذا ؟

رؤوف — نتناول الشاى . .

سيلفيا — ما زال فى الوقت متسع . .

ودخلنا أحد مقاهى شارع جوزيف ، ولم يكن المشرب مزدحماً بالرواد ، وكان معظمهم من كبار السن . رجال ونساء ، وكان اهتمامى وامتنانى لسيلفيا يفوق كل شىء حولى ، وجلسنا على طاولة مستطيلة ، وابتسمت سيلفيا بسمة ملأت المكان ، عندما وجدتنى أتأملها ملياً ، ثغر متورد ، شعر معقوص على ظهرها ، ضفيرة واحدة سميكة كذيل الفرس . ولما وضعت ساقاً على الأخرى . . انفرج فستانها الشتوى الثقيل عن ساق بيضاء بضّة ساحرة ، منها تبدأ الحياة . . حضرت المتعة . . وانهمر ماء عذب فى بحيرة خصبة . . فى حضور امرأة قطنت بيتى سكت الألم . .

وطلبنا الشاى والجاتوه ، وبعد أن تناولنا قليلا منه قلت لها :

— حدّثينى عن نفسك . .

سيليفيا — حديث طويل وشاق . .

رؤوف — حدثينى عن السهل منه . .

سيليفيا — لو كان سهلاً لما أتيت هنا . .

وأخذت نفساً عميقاً وقالت :

لكل فتاة حلم يرافقها منذ الصغر . . وعندما كبرت حاولت تحقيق حلمى . . فلم أستطع حتى الوقوف بقدمى على أرض صلبة . .

فكيف يتحقق الحلم ؟ إذا كان الواقع البسيط لم يمكن تحقيقه . . فلا مجال للأحلام . . أين بلادى ؟ هدّمتها الصراعات ، وأكلتها أنياب الذئاب الجائعة . .

رؤوف — قلت لك حدثينى عن السهل منه . .

وكان لصوتها صدى حزين . . وما بداخلها أعمق وأقوى من أى حديث . . وصمتت بعض الوقت ونطقت قائلة :

— كنت تلميذة فى المدرسة الثانوية ، وسمعنا ونحن فى الفصل . . تراشقاً بالنيران ، أو صوت انفجار . . صوت شىء عارض . . وفى يوم انتهى يومنا الدراسى قبل موعده . . وتكرر هذا الانصراف . . وعادت أصوات إطلاق النار مستمرة وانفجارات لا تعد ولا تحصى ، وتسابق الجميع فى حرق المدينة ، كان للرجال حسابات أخرى يريدون تحقيقها . . غير لبنان ، حتى الذين يعشقون المدينة فضلوا الرحيل عنها . .

رؤوف : لا تنفعلى . . عودى إلى السهل . .

سيلفيا ـ عدت فى يوم من المدرسة . . لاجد بيتنا الصغير كوم تراب ، ووضعت أمى على نقالة فى عربة إسعاف ، وهذا أبى أتوا به من تحت الأنقاض . . جثة هامدة . . وتجمدت الدموع فى عينى ، وظللتُ أصرخ وأغمى علىّ ، وارتميت على الأرض .

وفى مغرب نفس اليوم . . سارت الجنازة تحمل أبى وأمى فى موكب واحد . .

قلت لها : « كفى . . لا تسترسلى ! . . » وجنت عيناها بالدموع

وشاركتها كفكفتها الدموع الساخنة على خديها بتلك الذكريات الحزينة . .

وتابعت الحديث بهدوء وقالت :

كان ذلك سنة ألف وتسعمائة وسبع وسبعين .. وأحمد الله أن أخي الوحيد ، قد سافر قبل ذلك بعام مهاجراً إلى كندا .

رؤوف : لماذا لم تسافري إليه ؟ .

سيلفيا : هذا يحتاج إلى إجراءات ، وكان من السهل أن آتي إلى فينا . . حيث أقمت عند ابنة خالي المتزوجة من لبناني يعمل هنا ، ولما أصبحت قادرة على الاستقلال .. جئت إلى ماما ماريا .

رؤوف : ألا ترغبين أن تفعلي شيئاً من أجل بلادك ؟ .

سيلفيا : الرغبة وحدها لا تكفي .. أنا فتاة ضعيفة .. كل تفكيري ينحصر في البيت والأطفال .

رؤوف : وهل هناك فتيات أخريات تركن بيروت ؟

سيلفيا : لم يعد فيها غير العسكر . . كلهن هاجرن إلى ذويهن في أوربا والدول العربية .

رؤوف : عليك أن تستفيدي من مأساتك .. وتجعليها مصدر قوة وحب .

سيلفيا : من أين الحب ؟ . إن الذي تراه بين الناس ليس حباً . . إنه شهوة ورغبة امتلاك . . الحب أجده فقط في علاقتي بربي . . ولو كان هناك حب حقيقي بين الناس لما تهدمت مدينتي .

رؤوف : ألا تسمين بكاءك على أبيك وأمك حباً حقيقياً ؟ .

سيلفيا : هذه علاقة لصيقة ، وكذلك بين الأم ووليدها .. ولكنى أردت أن أتكلم عن علاقات الناس العامة بعضهم ببعض ، أتكلم عن المجتمع بأسره وعلاقة طبقاته وأفراده .

رؤوف : لا نستطيع أن نمسك بالناس فى علاقاتهم مع الحياة ، وبالتالى لا نستطيع أن نحكم عليهم فى علاقاتهم بطريقة دقيقة .

سيلفيا : سوف ترى .. المودة الحقيقية .. والسلوك الحسن بين الناس بدأت تنقرض .. إن لم تكن قد انتهت بالفعل .

ودقت ساعة المقهى الواحدة والنصف بعد الظهر .. عندما قالت سيلفيا لرؤوف « يجب أن نعود إلى البيت » . وأوصلها رؤوف إلى محطة الترام كى تذهب إلى عملها ، واتفقا أن يلتقيا فى المساء بالبيت ، وفى هذا اليوم عرف كل منهما الكثير عن الآخر ، وشعرت براحة نفسية كبيرة وأنا أصعد درج البيت .. وكأن الساقطين تحت سقف هذه الحضارة يحملون فى رؤوسهم فكرة أو قيمة .. يتألمون من أجلها .. ويشعرون دائماً أنهم لا يستطيعون تحقيق حتى حلم .. لأنهم لا يقفون على أرض صلبة .. هل يكون الحب بين الغرباء وسيلة لتقوية هذه الأرض ؟ ـ أم أن علاقة المادة المجردة من هذا الحب هى التى تساعد على ذلك ؟ .

تاهت علىّ الأمور حولى ، نسيت لماذا جئت ، وكأن شيئاً قد ذاب فى داخلى أو انفجر خارج بيتى ، كل معانى الحب والخير

كالثلج فى رأسى ، إلا أن بقية من الإعتقاد فى داخلى ، تدفعه قوة خارجية لا أستطيع فصلها عنى ، هى التى جعلتنى أتذكر بعد حين . . لماذا جئت . . وأحدثت سيلفيا فى نفسى أثراً ، ذهبت إليه بقدر انفعالى وأقدمت إليه بلهفة ليخفف ما أعانى .

وكانت الليلة فى العمل قارسة البرد ، وعدت إلى البيت أحمل كثيراً من جرائدى ، وجاءت ماريا تسأل عنى ، وعادت إلى غرفتها لتأتينى بكوب ليمون ، وذهبت لتنام متمنية لى الشفاء . خلعت ملابس العمل وارتديت أخرى للبيت .. واغتسلت وصليت ، وتناولت كثيراً من اللحم وسلطة الطماطم والخبز . . ولما تناولت حبة دواء وملعقة شراب تغلب عليه المرارة ، استلقيت على سريرى فى محاولة لتدليك صدرى وظهرى ، ودخلت سيلفيا إلى غرفتها ولا أعرف لماذا جاءت الليلة متأخرة ، ووضعت حبات الماء الدهنية على صدرى وقلبتها واخذت أدلك صدرى كله ونجحت ، وبقيت مستلقياً على ظهرى ، وطرقت الفتاة بابى ودخلت ، وسألت عن حالى وصحتى ، وأخبرتها بأنى أحسن حالا . . ولما سألتها عن سبب تأخرها ، أخبرتنى أنها ذهبت لزيارة قريبتها ، وتحدثنا عن حالة الطقس وهى تجلس على المقعد بجانب سريرى .. ولما سألتنى عن تناولى الدواء أخبرتها بأنى انتهيت من ذلك تماماً . فقالت : وكيف دهنت ظهرك ؟ فأخبرتها بأنى لم أفعل لظهرى شيئاً ، وأصرت الفتاة على تدليك ظهر رؤوف ، وسحبت ملابسى حتى رأسى ، ودلكت اليد الناعمة ظهرى قرابة عشرين دقيقة ، ولم

أكن أعرف من قبل أن لأنامل يد المرأة مفعول السحر على ظهر رجل ، وقامت لتغسل يدها ، وعادت لتقول :

قمت بتدليك ظهر أبي كثيراً . . عندما كنت في السادسة عشرة .. هذه فرصة لأتذكر أبي ..

رؤوف — (وهو يضحك) . . إذا كانت الذكرى طيبة وجميلة فسوف أشترى علبة دهان أخرى لتستمرى على ذلك . .

وضحكت سيلفيا وهى تمسك برأسه مداعبة ، ودخل رؤوف بجوار الحائط . . ليفسح لها مكاناً بسريره ، واستلقت الفتاة بجانبه .. وتحدثا كثيراً عن المدينة والناس والعمل ، وقد داعب كلا منهما استرخاء لذيذ ، وأمسك كل منهما بيد الآخر وشعره وملابسه .

كل ما في الفتاة شرقي ، ريفية من قريتي . . هـــذا جلبابها الطويل ، وإيشارب لفت به شعرها بينما تركت بقية خصلاتها تنسدل على ظهرهـــا ، وتذكرت زينب ابنة خالتي الجميلة حين كانت تفعل ذلك قبل النوم .

سيلفيا يوسف نجيب . . من بيروت العربية . . متوسطة الطول زرقاء العينين . . وجنتان حمراوان بارزتان ، شفاه جميلة قرمزية . . يسكن فوقها أنف منمق صغير ، خمرية اللون تميل إلى الحمرة ، شعر أسود ناعم طويل ، جسد يكتنز لباسها في حبور ، يكاد الجلباب يتفتق منه . . و . . . و . .

وقال رؤوف وهو يحتضن يديها بين كفيه :

وجدتك أيتها الجميلة في بيتي . . ومنذ هذه الليلة تنبسط الأرض

تحت قدمى . . تعالى أحبك بمنتهى الرقة . . لأصل إلى المدى البعيد . . المدى الذى فيه تكونين أسعد فتيات هذه المدينة .

سحبت سيلفيا يديها برفق من بين يديه وقالت :

— لا .. سعيدة كفتاة فى بيتك . ولست كفتيات المدينة .

وقامت من جواره لتجلس على المقعد ، وكأنها تتدلل عليه وقالت:

— حتى الآن لم أعرف عنك شيئا .. قل لى من أنت .

رؤوف — رؤوف محمود حمدى .

سيلفيا — أليست كايرو واسعة عن فينا ؟ .

رؤوف — لم أجد فيها عملاً يجعلنى أحصل على بيت وامرأة .

سيلفيا — وهل وجدت فى فينا ؟ .

رؤوف — هذا هو البيت . . وأمسك بيدها . . وهذه هى المرأة أجمل من فى المدينة .

تنهدت سيلفيا وتركت له يدها يداعبها كيفما شاء .. وقالت :

— كانت لبنان تتسع للجميع . . ولم يعد فيه الآن مكاناً لامرأة تلد طفلا .. وصمتت هنيهة وقالت : إلى من أحمل قضيتى ؟ .

رؤوف : احتفظى بها فى داخلك . . ودعك من الأمور الصعبة علينا .

وشدها رؤوف لتنام بجواره ، وجمعهما غطاء واحد ، وسكنت سيلفيا إلى فراشه ، وانبعث الوجود فى كليهما سعيداً ممتعاً ، وأطفأ نور الغرفة ، وكان وجهها بجانبي كالقمر ينير بيتى الصغير ، فى ليل ينبعث حول نور المدفأة الكهربائية الأحمر ، وقلت لها :

ـــ بحق أشجانك وصدقك .. ورحلة عذابك نامى واطمئنى .

سيلفيا : كيف رأيت رجل ؟

رؤوف ـــ لن تمتد إليك يداى بغير الدفء والحنان .

سيلفيا ـــ هذا الذى حرمت منه كثيراً .. وتذكر دائماً أنى فتاة .. وحيدة فى هذا العالم الواسع .

رؤوف : إن حبى لك لن يعبر جسر الشرف .

سيلفيا ـــ هذا ما أتمناه .. خذنى إلى أحضانك برفق .. فقط .

ونمنا حتى الصباح .. وذهب كل منا إلى عمله .. كان يوماً سعيداً ، حيث وجد كل منهما نفسه فى الآخر ، وتناولا العشاء سوياً فى الحادية عشر والنصف مساءاً وقالت سيلفيا لرؤوف وهما يحتسيان الشاى :

ـــ قبل ثلاثة أيام .. حاولت أن أعثر على شىء له معنى بداخلى . فـــلم أجد حتى مكاناً لهذا الشىء ، وصحوت من نوم هذا اليوم .. وبعد ساعة من البحث والتفكير ، وجدت نفسى خارج كل المجتمعات الإنسانية ، وجن جنونى ، وارتديت ملابسى بسرعة ونزلت إلى الشارع ، فى محاولة لأتحقق من هذه الرؤية التى وجدتنى فيها ، رأيت الناس حولى وشعرت بأننى واحدة منهم ، ومشيت قرابه ساعه ، وخفت الرؤية على نفسى وعدت بين بين .. عندها كان البيت ملاذى ، ولكن قبل أن أصل إلى شارعى ، شعرت بالجوع الشديد ، إلا أننى لم أجد نقوداً بصرواتى ، وصعدت الدرج ، وفى نافذة الدور رأيت بعض النجوم التى تظهر فى سماء النهار ، ووقفت قليلا أمام هـذا المصراع

لأطل على فناء البيت ، وامتلأت رئتاى بالهـــواء البارد ، وانبعث شوق جديد للحياة .

رؤوف : وهل عثرت على هذا الشوق ؟

سيفليا — بالطبع .. هو أنت .

وأخذها رؤوف إلى فراشه فى الليلة الثانية . . أخذهـا إلى صدر واسع .. تمنى امرأة تذهب إليه بقلبها قبل جسدها ، وكانت سيلفيا التى ذهبت بكل الشوق واللهفة ، وكان صدر رؤوف قبل هذه الليلة أجوفاً ناقص التعبير ، وعاد الآن صدرا حنوناً صادقاً يمتلىء بالدفء والحنان .

وقالت له وهى ترتجف بعض الشىء :

أذكرك .. أذكرك أنى فتاة وحيدة .

رؤوف — لا تخافى إننى أحبك فقط .

سيلفيا — إفعل .. إفعل عند الحد الذى تتفنن به العذارى .

الجزء الثالث

جورجيت فتاة فى العشرين . . شقراء لها وجه جميل ، متوسطة الطول تحمل فى هذا الوجه عينين زرقاوين ، فاتنة الجسد والملمح . . تعمل مانيكاناً فى أحد محلات الأزياء الراقية ، تنتهى من عملها كل يوم فى السادسة مساءاً عدا أيام العرض التى تقام كل شهر ، وفى أحد الأيام . . تأهبت للعودة إلى بيتها ، فارتدت ملابسها خلف ستارة بالمحل مع زميلاتها ، ضحكن كثيراً وثرثرن ، وكانت أكثرهن مرحاً وسعادة على غير عادتها ، وخرجن جميعهن من المحل وعند ناصية قريبة افترقن . . ذهبت كل منهن إلى سبيلها ، وسارت لتأخذ الترام حرف دى المتجه إلى فينا الحى الثامن ، حيث بيتها فى منتصف شارع جوزيف أيضاً ، وتبعها رجل فى العقد الثالث من عمره . . لمحته وعرفت من هو . . هو الرجل الأعمر . . ذو الشعر الطويل الأغبر ، رأت الشرر يتطاير من عينيه . . أسرعت الخطى وارتعدت وتعثرت الخطى ، واخترقت شارعاً واسعاً فى لحظة ، ولما تلفتت خلفها رأته يهرول واصطدم بسيدة طاعنة فى السن ، ورجل دفعه بيده وقذفه بوابل من الألفاظ النابية ، ولم يبال . . وفى رصيف الشارع الكبير ضربت قدماه الرصيف فتعثر ووقع . . وكاد رجل يتبعه ليتحرى أمره . . لكن الرجل الذى يتبع الفتاة اختفى عن ناظريه . . فأسرعت الخطى وكلما حاولت أن تهرب من ملاحقته . . كأن تدخل فى شارع ضيق . . أو تدخل محلا

لتظهر كأنها تسأل عن شيء .. وعندما تعود أدراجها تجده ينتظر . -
قالت لنفسها : لن يفيد التزام الليلة .. لا بد لهـــا أن تفر . وشعرت بالخوف قوياً . . اعترى كل أوصالها . بدت وكأنها ترتعد . كمن أصيب بأنفلونزا حادة أو حمى . . واستطاعت أن توقف تاكسياً . . وقفزت إليه فوقع إيشارب صغير كانت تلفه حول رقبتها . . ورأت الرجل يتلقفه في يده ثم دسه في جيب بنطلونه .. وركب إحدى عربات الأجرة وتبعها ، صـاحبة العربة امرأة في الأربعين تقود ببطء ، ولما سألته إلى أين ؟ . قال لها : نفس الشـــارع .. رفعت بصرها إليه في الكرسي الخلفي فوجدته يميل برأسه إلى الامام مادا رقبته نحو النافذة ولاحظت عليه الارتباك، وتأكدت أنه يبحث في السيارات الأمامية عن شيء .. يلاحق أحداً . . وقرأت وجهه الحاد الغاضب .. ولم تجد مانعاً أن تقول له :

— أهناك شيء يقلقك ؟ .

— لا شيء .

— أتبحث في السيارات عن أحد ؟ .

— لا . . (قالها بحدة وصوت عال)

وفي لحظة تلاحقت السيارتان فقالت جورجيت لسائقها : « أسرع »
وكان السائق حالماً على نفسه .. لا يشعر بالحركة حوله .
وقال : هذه سرعة سيارتي ! .

أما السائقة صاحبة العربة فلم يعد لديها شك أن زبونها يلاحق هذه المرأة . . وأيقنت أنه شرقي من ملامحه .. وأنه مقبل على عمل من أعمال

العنف . . فتالكتها الشفقة على المرأة .. وعند أول ناصية من الطريق أوقفت عربتها بعنف قائلة :

ـــ السيارة لا تستطيع متابعة السير .. خمسة وثلاثون شلناً .

قالتها بغضب . . وأمسكت بكتلة من المفاتيح بيدها اليمنى وعندما نقدها أجرها وبدأ ينزل ، ضربته بقوة على ذراعه بضمة المفاتيح ، ولم يبال ، وخطا مسرعا يبحث عن الفتاة . . وقبل أن تنطلق سائقة العربة فتحت زجاج سيارتها وقالت وهي تبصق في الهواء :

اذهب أيها الوغد الحقير .

ومن شارع جانبي أخذ يركض ، ثم انعطف ناحية ميدان صغير تكتنفه كنيسة قديمة .. ودخل شارعا تتوسطه مجموعة من الأشجار الضخمة .. وخلف إحداها رأى جورجيت تدخل الممر المؤدي إلى البيت . وكادت إحدى العربات تدهمه وهو يحاول اللحاق بها . . ولمحته يتبعها فخفق قلبها ، وتعثرت في خطاها ، وانكفأت مرة نحو الأرض ، وتهدجت أنفاسها وخارت قواها .. وما زال أمامها فاصلا من الهرولة لتصل آخر الفناء .. حيث مدخل البناية وباب البيت .

أما الرجل فقد جرى وراءها كالمجنون .. غير مبال بالمارة ، حتى أنه اصطدم برجلين وسيدة أثناء ملاحقته ، وفي لحظة سبق المرأة ووقف أمامها .. واستوقفها ممسكا بذراعها وقال :

ـــ لماذا تهربين يا خائنة ؟

جورجيت : أنا أهرب لأني خائفة .. خائفة من عنفك وتهورك .

الرجل : أنا أحبك ! .. وأمسكها من كتفها بيده وهزها بعنف .

جورجيت : أمثالك لايعرفون الحب .

أزاحت يده من عليها .. وتابعت تقول : لا تفرض نفسك علىّ نحن فى مدينة لا تعرف ملكية الإنسان لغيره .. أنا عاشقة للحرية قبل الحب .. لو كان الحب يحد من حريتى لطلقته إلى الأبد .. حياتى معك لم تكن إلا نزوة أو أيام قضيتها معك .. وليس بينى وبينك غير .. باى باى .. فيدا .. أتفهم ؟ .. من فضلك .

قالتها وهى تستأذن السير إلى بيتها بأدب .. إلا أن صوت جدال الرجل والمرأة كان عالياً ، وكانت سيدة عجوز قد فتحت نافذتها الواقعة بالطابق الأول ـ فبان لها وجه المتشاجرين وصاحت قائلة :

ـــ ماذا هناك ؟ . أتتويان الشجار ؟ .

وانتبهت جورجيت ولوحت لها وحاولت أن تلفت نظرها إلى خطورة الأمر .. لكن المرأة لم تلق إليها بالا وتابعت تقول :

ـــ تشاجرا بصوت خفيض !

وحدقت فيهما بغضب ، وعادت أدراجها داخل البيت .. وبينما كانت تحاول غلق النافذة بإحكام .. رأت من خلال الزجاج وقوع إيشارب امرأة من يد الرجل وسقوط حقيبة جورجيت من يدها على الأرض .. فاحتضنت السيدة العجوز المصراع وبدأت المراقبة .. وامتدت يد الرجل إلى جيب سرواله وأخرجت المدية لتغوص فى صدر الفتاة .. ثم نزعها وأعادها ثانية وثالثة فى صدر نزلت منه الدماء تخز بغزارة لتكون بركة حمراء فى أرض الفناء .. وصرخت السيدة

من المصراع حتى باب شقتها إلى ردهة البيت بالدور الأول .. تولول .. تصرع .. تطرق باب السكان .. قائلة :

— اذهبوا إلى الفناء .. أمسكوا به .. قتيلة .. قتيلة .. قاتل .. إلحقوا به .

التوت المرأة تصرخ صرخه واحـــدة عالية .. والثانية عوت فى داخلها .. انكفأت للأمام تمسك بصدرها فخضبت الدماء يدها ولما رفعتها لوجهها غطت الدماء الوجه كله والشعر ... ولم تدر جورجيت بطعنتين فى الظهر المستســـلم وارتمت على الأرض جثة هامدة تنبض نزيف الحياة الأخير .. وتجمع العشرات وفتحت المصاريع والفرندات المطلة على الفناء ليروا المنظر المروع عند الوسط .. وسلم مصطفى عجور نفسه لأول رجل يضع قبضته حول ذراعه .. خائر النفس .. منهوك القوى .. لم يكن يستطيع حتى أن يخطو خطوة واحدة .. وأمسك به رجل آخر .. وجاءت عربة البوليس برنينها المألوف تصحبها عربة إسعاف ، وطوق رجال الشرطة المكان كله .. وأخذت جورجيت ملفوفة بملاءة بيضـــاء ، فى مركبة المستشفى ، واقتادوا القاتل إلى عربة البوليس .. وفى منتصف الطريق إلى مركز الإسعاف فارقت الفتاة الحياة إلى الأبد .

ولم تدر أسرة القاتل الذى أرسلته ليأتى بالمال وليكافح من أجل لقمة العيش .. أن ابنها مهندس جاهل غبى .. أم مصطفى أسيوط امرأة ريفية حافية القدمين .. اشترى لها أحد أقاربها حذاءاً .. ففضلت أن تمسكه بيدها أو تضعه تحت إبطها .. كان منعزلا لا يعرف

أحداً ، ولا أحد تقرب لمصادقته لتجهم وجهه . . وشراهته فى تدخين السجاير . . ونظرة عينيه المرتعدة . . ولقـــد قال أحد باعة الجرائد المصريين عن الحادث إن الخطأ ليس خطأه بل خطأ الفتاة أن صادقت جلفاً مثله . . وقال آخر : ما ذنب الفتاة؟ كانت تعرف طالباً من إفريقيا وسافر إلى بلاده منذ عام . . وكانت تعتقد أن ترى فيه هذا الأفريقى .

ورد عبد الرحمن وهو من أرق وأفضل باعة الجرائد ثقافة ونظافة وخلقاً : هذه الفتاة اعتقدت أن بداخله إنساناً . . كثير من الناس هنا وخاصة المرأة تظن أن فى داخل كل رجل إنساناً . . ولم تعرف أن كثيراً من هؤلاء الباعة جاءوا بعقدهم وأمراضهم الاجتماعيـة ... واستطرد يقول : ليكن عبرة لكل الباعة . . ولكن هى عبرة لبنات جنسها . . آه . . وتنهد قائلا : على باعة الجرائد أن يفهموا . . يتأدبوا . . وعنـدما نعود إلى أم مصطفى المرأة الريفية الساذجة سوف تقول : فعندما تسير فى شوارع القرية تحملها قدمان حافيتان وإذا ذهبت إلى السوق حملت حذاءها أو ذهبت لمعارفها فعلت ذلك حتى باب البيت ، وترتديه قبل أن تدق الباب ، وقالت لإحدى صديقاتها عندما سألتها عن طريقة تعاملها مع الحذاء أثناء السير حافية : إنها تريد أن تسرع الخطى والحذاء يطرحها أرضاً . . يزحلقها . . وفى حالة ارتدائها للحذاء حتى يعرف الناس أنها ليست حافية . . والحذاء تحت إبطى سلاح أستخدمه أو أخلعه عند اللزوم .

هى زوجة لرجل يكبرها بعقدين من العمر ، يمتلك نصف فدان

من الأرض الزراعية وبقرة باعها عند سفر مصطفى ، وحماراً ومعزتين وكلباً ، وفى البيت تقوم فهيمة بتربية عدد من الطيور ، تذبح كل شهر واحداً منها حين يحضر مصطفى من المدينة ..ليقضى بعض أيام الإجازة ثم يعود لدراسته ، وفى أثناء غياب الإبن . . تقوم الأم كل أسبوع بشراء كيلو من لحم الرأس ، أو إثنين من أرجل الجاموس أو البقر .

وكان مصطفى كغيره من شباب قريته أو محافظته قد قرر أن يسافر فور تخرجه وأداء الخدمة العسكرية . .هو الإبن الأكبر . . وأمل أبيه وأمه وشقيقته خضره وشقيقه دسوقى ..ولم يكن هناك غير فينا التى ذهب إليها الكثيرون من كليته بعد تخرجهم ، وفى سوق القرية للحيوانات باع يوسف عجور بقرته الوحيدة من أجل ابنه ، بعدها يسافر ويأتى الفرج ، ويشترى بدلا منها أربعة ، وقال الرجل : إذا صدق ابنى فى وعوده .. سأصبح غنياً ميسور الحال ، وكان عجور يحلم أن يكون عنده بقرتان للعمل فى المحراث والساقيه ، وجاموستان لدر اللبن ، ولما باع البقرة .. جلس مع زوجته فهيمه تحت ظل شجرة على رأس الحقل .. وبكيا .. بكيا البقرة وحدها ، ولم يعلم أحد من أبنائهم ، أن البقرة عزيزة إلى هذا الحد عند يوسف وفهيمه .. وقبض مصطفى أربعمائة جنيه ثمن البقرة . . سافر إلى القاهرة ليحصل على التأشيرة ، ويترجم شهادته إلى الألمانية لغة النمسا .. عند المترجم المعتمد .. السيد رمسيس صافنجى . . وحجز على الطائرة المتجهة إلى فينا .. قضى بالعاصمة أسبوعاً .. بعده عاد إلى قريته .

ومن زلعة صنعت من فخار قديم بها جبن عتيق ، أخرجت فهيمه عشرين قطعة جبن .. ومع قليل من المش رضعتهما فى برطمان صغير .. وأقفلته بإحكام.. بأصبارة من النيل المجدول ، وفى كيس من البلاستيك وضعت به نصف كيلو من زبد البقرة ، وخمسة أرغفة كبيرة من خبز القمح .. وراسين توم .. وكيساً به ملح .. وعشرين بصلة صغيرة .. وبعض الطورشى .. وخياراً وليمونا وفلفلا .. وذبحت له دجاجة وطهتها .. لتكون له لحماً طرياً فى طريق سفره .

وفى حنان فهيمه الأم .. ويوسف الأب .. لفت اللفائف الصغيرة والكبيرة فى حنان ورفق .. ووضعت فى حقيبة سوداء كبيرة .. كان يستخدمها الإبن فى أخذ مؤونته كلما سافر إلى المدينة .

وفى الليلة التى سبقت نهار سفر ابن العجور .. جاء الأهل والجيران جميعهم بأقدامهم الحافية وملابسهم المزركشة .. إلى بيت قريبهم يوسف وقريبتهم فهيمه لوداع مصطفى .. ومن الساعة التاسعة حتى الثانية مساء هذه الليلة ، ودسوقى الشقيق الصغير يقوم بعمل الشاى .. احتفالا وابتهاجاً للضيوف وفرحة بسفر الفالح .. كان الجميع يعرف أن مصطفى مسافر إلى أوربا .. ترى لماذا ؟.. بعثة .. ؟ سوف يعود حاملا أعلى الشهادات وأرفعها .. هكذا أجمع الأهل والأقارب .. الذين جاءوا للسلام والوداع هذه الليلة .. السطح يعيش حتى فى عقول أهل القرى.. إنه نوع آخر من السطح .. سطح من الشوك الخشن .. وفزع مصطفى لهذا الاعتقاد لديهم .. وتركهم دون أن يعلمهم شيئاً من الحقيقة ..

من غير المعقول أن يحصل على بكالوريوس الهندسة .. ويذهب إلى فينا لبيع الجرائد .. كان سيدهس بأقدامهم الحافية .

ومرت الأيام والشهور .. ونجح مصطفى فى تجربته الجديدة .. وأرسل كثيراً من المال لأبيه .. اشترى الرجل بقرة وجاموسة .. وأكل أسبوعاً من الأوز والبط كل يوم واحدة منها .. وغرقت ذقونهم بالمرق الدسم ، وأصابعهم الخشنة تنعمت وامتلأت .. وسرت فى عروقهم مجرى تضخ دماً جديداً وعهداً من الرخاء قد بدأ .

مضى من الشهور ستة .. بعدها تعرف مصطفى على جورجيت .. ولم يكن هذا « الجردل » قد أنشأ أقل علاقة نسائية فى بلده ، حتى يأتى إلى فينا ويحب بطريقة أسيوط أو كايرو ، وكانت جورجيت تمر بفترة ملت فيها الرجل الأبيض ، ورأت أن كثيراً من رجال الجنس الأسود ملأوا المدينة ، وفى كل يوم أحد تذهب إلى حمامات السونا المشتركة للتسحم ، هناك رأت عجوزاً .. رأته وهو عار .. ورآها هو .. ومن يبحث عن شىء يجده .. مصطفى يريد امرأة .. وتواق أن تكون له صديقة .. ولو كانت عجوزاً . . وكانت جورجيت تهوى النظر فى مكان واحد من الجسد ، أما مصطفى فكان يبحلق فى كل جسد المرأة .. وقالت هذا هو . . وكانت جورجيت بالنسبة لعجوز صيداً ثميناً .. هذه بداية .. انتقل فى نفس اليوم هذا العجوز إلى بيت جورجيت . ولم يمر شهران حتى تعرفت جورجيت على عادل ندا .. وذهب هذا الأخير لتناول الشاى فى بيتها .. بحضـــور مصطفى الذى دبت فى

لأوصاله الغيرة من عادل ، ودهش من تصرف الفتاة المتغير .. ولما ذهب عادل قالت له :

كل شيء يجب أن يمر بسرعة فى هذه الحياة ، وعلينا أن نقضى حاجياتنا كذلك .

مصطفى : لكنى أحبك فكيف تأتين برجل إلى بيتنا ؟!

جورجيت — هذا بيتى أنا .. وأنا أحببتك مدة شهر ونصف .. بعدها أريد رجلا آخر غيرك .. أظن هذا أمر عادى إن لم يكن بالنسبة لك ، فهو عندى عادى جداً وبسيط .

مصطفى : إفعلى ما تريدين .. كنت أعتبرك نهاية مطافى وملاذى

جورجيت — ما زال لدى كثير من الزمن حتى أعتقد فى هذا الملاذ .

وعاد مصطفى بحقائبه إلى زملائه فى السكن .. بالحى السادس عشر ، وفى اليوم الثانى لبدء إقامته معهم .. ذهب كل إلى عمله فى الصباح الباكر .. دخن مصطفى المطبخ وتناول مدية متوسطة الحجم ، ومشطها بالمبرد .. وفى هذه اللحظة نسى لماذا جاء .. نسى أمه وأباه .. نسى كل شيء عدا جورجيت وعادل ندا .

وفى الثامنة صباحا غادر البيت ، وتوجه إلى عادل ندا فى شقته .. التى لا يخرج منها إلا فى العاشرة متوجهاً إلى كليته .. وفى الوقت الذى تأهب فيه لارتداء ملابسه .. بعدها يستطلع بعض دروسه ثم يخرج كعادته اليومية دق باب البيت بعنف .. وافتح دهش لوجود مصطفى أمامه .. ولم ينبس عجور بكلمة واحدة .. وتقدم خطوه نحو عادل ..

بينما كان صاحب البيت يقول :
أهلا .. أهلا .

وامتدت يد القادم بعنف .. تطعن صدر عادل بسلاحها الحاد .. ويرتعد عادل خوفاً وذعراً يحاول دفعه ، لكن دون جدوى .. فالقادم ما زال يوجه طعناته .. وارتمى صاحب البيت مخضباً بدمائه .. وسد الجسد المصاب باب البيت ، حيث كانت رأسه وصدره خارجه .. وباقى الجسد داخل باب الشقه .. وفر مصطفى بعد أن ألقى بسلاحه على الدرج .. ونجح فى الفرار طول اليوم .. إلى أن لاحق جورجيت فى المساء .. وتم نقل عادل إلى المستشفى بواسطة الجيران .. وتم إسعافه من النزيف .. ولم تكن إصابته خطيرة .. وظل البوليس يتحرى ويبحث عن القاتل .. حتى عثروا عليه بجانب جثة جورجيت .. وبعد أيام نشرت صحف القاهرة الحادث .. وعلم يوسف وفهيمه .. وخضرة ودسوقى .. علموا بالأمر المحزن .. سالت الدماء فى فينا بيد مصطفى .. وتجمدت عروق الدم فى رأس يوسف وفهيمه .. وبعد ثلاثة شهور مات والد مصطفى متأثراً بحسرته .. بعدها أصيبت الأم بالشلل .. وبقيت فى البيت لاقوة لها ولا حيلة فى شىء .. وكان الفرج الوحيد أن تزوجت خضرة بعد عام زواجاً حزيناً صامتاً من ابن عمها ، ورحل دسوقى بعد حصوله على دبلوم الزراعة إلى العاصمة .. ليعمل ماسحاً للأحذية فى ميدان المحطة .

* * *

ـ قام البوليس بتمشيط المدينة من الأجانب الذين لا يحملون تأشيرة صحيحة للإقامة .. ورحلت اعداد كبيرة من المخالفين ، غالبيتهم بائعو جرائد ، وأخذت الجرائد والمجلات تكتب عن الحادث لمدة تزيد عن أسبوعين ، وكثير من علماء النفس اعتبر مصطفى فى حالة دفاع عن النفس ، حيث عاملته جورجيت بعنف وقسوة ، إنها دفعته للجريمة ، وهو بفعله محب صادق ، وكان القتل دليل الحب الذى احترق فى داخله ، وفعل ذلك لأنه محب ، وقال بعض علماء الاجتماع : إن القاتل كان جاهلا بعلاقات المدينة ، ولو كان يعرف طبيعة هذه العلاقات مافعل ، بدأت علاقته من حمام السونا .. بدأت بالجنس وحده .. وقال بعض الصحفيين إنه فوجىء بعلاقة الفتاة مع عادل ، وأن جورجيت كانت ملاذه الأخير ، وكان بالنسبة لها تجربة على الطريق ، وكان العنف هو الحل عند الرجل الذى جاء من جنوب بلاده ، هناك يقتل الناس لأتفه الأسباب .

بعد ذلك مرت الأيام .. وفى يوم وصلتنى رسالة من زميلى عمر الفره الذى كان يعمل فى جريدة الكورير ، الذى سافر إلى أحد بلاد الشرق .. فضضت الرسالة وقرأتها معى سيلفيا :

عزيزى رؤوف ..

بعد التحية ..

آسف لأنى لم أخبرك بسفرى ، أقوم بعملى فى شركة زراعية حيث تخصصى الدراسى وهى البستنة ، لا مشاكل فيه ولا برد ولا وقوف

فى الشوارع ، علمت قبل سفرى بأنك تعانى من آلام روماتيزمية ، والشمس هنا ساطعة والناس طيبون ، فى هذه المدينة ستجد كثيراً مما يبحث عنه .. أتمنى أن تأتى إلى هذه البلاد للتستريح . ولن تضيع أبداً فى مدينة تقول الله أكبر .

عمر الفره
مدينة الحدائق

وفى آخر الرسالة كتب عنوانه ، وطويتها فى جيبى .. وقالت سيلفيا :

— هل تراسله ؟

فأجبتها : ليس الآن .

واعتقدت أن سفرى من فينا إلى مدينة أخرى .. مغامرة غير مضمونة العواقب .. لن أجد هؤلاء النساء فى تلك المدينة ، من يغادر فينا ؟. إن آلام البرد ستشفى من تدليك أصابع سيلفيا الدافئة .

كان العالم حولى ضالا لا يرى أى ضياء ، فهل أحب الظلام ، أهناك مثلى من يجرى إلى العتمة ، السكر .. العربدة .. نساء الليل .. وأنا أتحنجل كالحمار على قارعة طريق . . أيها السادة . . كنت نصف ضال . . فهل أكمل ضلالى ؟ .. إن العالم حولى بريق ساطع جذاب .. وهذه مدينتى . اتخذت فينا مدينة لى .. قدمت إليها عبر آلاف الأميال ، باحثاً عن شىء واحد ، وقطنت إحدى البنايات فى شارع جوزيف ، وفى أول مرة نزلت إلى الشارع ، وجدتنى أبحث عن أشياء أخرى . . غير التى جئت من أجلها . . لم تسحرنى امرأة واحدة . . وسحرنى كثير من

النساء ، ومن هنا كان ضلالى .. رجل يبدأ من النساء وسحرهن ، أو من عبير عطرهن ، أهيم بنفسى .. أحلق عبر الآفاق .. فلا أجد غير بقايا إنسان ما زال يعيش على السطح ، لايعرف كيف يضع نفسه فى درب ، لكنه يرى أن كل الطرق مناسبة له ، يتفرج على الآخرين ويدس بنفسه بينهم .. لا من أجل أن يعيش حياته .. ولكن ليعرف شيئاً عن حياتهم ، وكان هناك عالم من الخوف والحذر يلفنى بسياج قوى .. يأخذنى بعيداً عن أضواء المجتمع وأحداثه .. وكان العالم بحراً عميقاً .. ليتنى أذوب فيه كذوبان الماء ، العالم واسع بلا حدود والبحر ممتد مترامى أطرافه عبر بلاده ، وأنا والرجال والنساء صوت هذا العالم .. أحداثنا قد تكون أعماق هذا البحر .

وبمرور الأيام بدأ الخوف ينجلى وكأنه ليل بهيم ، وفتحت الأسيجة مصاريعها .. لتتفرج واحدة بعد الأخرى ، اقتربت الحيـــاة منى .. وغرب ضباب الأفق الكثيف .. وبدأ المطر يهطل .

كان شغفى بكل النســاء حباً للنفس أكثر منه حب .. ولم أكن خليقا بحب امرأة واحدة .. لأنى سأذهب إلى غيرها .. لأنى أبحث عن نفسى .. ولا أحب غيرها .. وقد يكون حبى لكل ما هو جميل فى أية امرأة .. هو حب للحياة كلها .

.. وحيد ذهب مع صديقته بغير حدود . الغول وحجازى يغرقون فى الحب مع صديقاتهم ، وآخرون غيرهم يستريحون من عناء الحياة .. بالركون إلى نسائهم .. المدينة تسبح فى الحب بلا تكلف أو فلسفة .

المدينة تخترقها مادة حارقة .. من لا يتعامل بها ينصهر عند الإقدام .. يداس كتراب طريق أغبر .. يصبح رماداً .. وفى الحقيقة عند هذا الحد .. أنا حمار .. لأنى لا أعرف غير أن يركبنى كل من فى المدينة .

.. سيلفيا فتاة بيتى .. تهيم على وجهها .. حيث تصاحب زميلا يدعى مصطفى التونسى ، لجأت إليه بعد شعورها بخيبة أمل نحو رؤوف الخائف .. وكان رؤوف يعتقد أن النساء ستجىء إليه كما فعلت سوزى .. لم يكن رجلا مجربا ، بل رجلا جرب فيه بواسطة امرأة قوية .. وكانت سيلفيا فى مفترق طرق ، لكنها فى نهاية الأمر .. فتاة فى مدينة الحرية .. تريد تجاوز الحد مع رجل .. ولم يفعل رؤوف .. لم يتفاهم معها بل تجاوزه ، وتعرفت على زميله .

فراحت كل يوم أحد تقضى وقتا معه .. لكنه لم يفعل شيئا .. حتى عبث العذارى .. أو الحد الأدنى منه .. كان التونسى يلتقط أنفاسه مريضاً من كثرة تداول النساء .. كانت آخرها امرأة بولندية .. تركها زوجها وسافر لأمريكا للعمل .. سددت إليه ضربات فى الجسد أجهزت عليه .. كما تمتص النحلة الجائعة رحيق الزهر .. ثم رحلت عنه إلى الضواحى . ولما التقى بسيلفيا . رحب كل منهما بالآخر .. لكن كان لكل منهما هدف .

— سيلفيا تريد رجلا يتجاوز معها حدود الشرق ، والتونسى يريد سيلفيا كفتاة شرقية بريئة ، لا يفعل معها غير الرقص .. حتى قبلاته قصيرة باردة . ولما اختلت به يوما وجدته ضعيفاً مرتعشاً ..

ولما صارحته برغبتها . . حدثها عن المرأة البولندية . . وكيف أنها تركت فى جسده ما أعياه . . وأنه لم يعد يرغب فى ذلك النوع من الحب . . إنه فى حاجة لأن يعبر حدود الغرب ليذهب إلى الشرق . . وسيلفيا هى الطريق إلى ذلك . . ومنذ هذا اليوم ذهبت سيلفيا عنه . . ولم يكن هناك غير البيت . . وقالت وهى تبتئس :

ـ هناك رجل . . حتى ولو كان خروفاً . . مع الأيام يصير كبشاً لى وحدى . .

وفى ليلة عندما كانت تنام معى قالت :

ـ ماذا تعرف عن مصطفى التونسى ؟

رؤوف : أتسألينى عن رجل وأنت فى أحضانى ؟

سيلفيا : لو كان رجلاً ماحدثتك عنه . .

رؤوف : كيف ؟ . ألم تخوضا تجربة ؟

سيلفيا : كنت واهمة فيه . . سامحنى . . لقد عاملتنى بقسوة لم تأخذنى إليك بقوة . .

احتضنها رؤوف وأخذها إليه بقوة . . وقال : هكذا القوة ! . .

سيلفيا : اجعلنى أحبك . . أريد أن أتغنى بالحب كالعذارى . . خذنى إليك وامنحنى القوة التى يمنحها الرجل لأمرأة . . وسكتت هنيهة ثم قالت :

ـ أنت الرجل الوحيد فى مدينتى . . أعطيك كل حياتى . . ما يهمنى هو الحب أريده منك . .

رؤوف : أنا لا أبيع الحب . .

سيلفيا : أنا لا أشتريه . . أقول لك . . أنا أريد . . وامنحنى الحب إن كان لديك . .

رؤوف : لا أستطيع أن أفعل كما يفعل الناس فى المدينة . . وهل هذا هو الحب ؟ . .

اندهشت سيلفيا من كلامه وقالت :

ــ ألا تعرف ما هو الحب حتى الآن ؟ .

رؤوف : جميعنا يتكلم عن الحب . . حتى عاد كالبصقة على قارعة طريق . . أى حب هـــذا بين الناس ؟ . هل الحب فعل يروق للناس عمـــله وهم فى حالة ضعف ؟ ! ما هو الحب الذى تريدينه كامرأة ؟ .

سيلفيا : حب العذارى . . وما بعد العذارى إذا كنت تريدنى ؟ .

رؤوف ــ تطلبين الحب . . لماذا . . ؟

سيلفيا ــ وهل يحيا الإنسان دون حب ؟ . . لماذا تقسو على مشاعرى ؟ .

رؤوف ــ أنا أكره تقلب المرأة . . تنقلبين من رجل إلى آخر . وتطلبين الحب فى منتهى البساطة . . تريدين الحب وأنت تتسوقين . . لحظات الحب لدى النساء هى الحاضر .

سيلفيا : (والدموع تسيل على خديها) والمستقبل .

رؤوف : الحب لحظة حاضرة . . غير مضمونة الدوام . . الحب

فى الحياة كالحياة نفسها . . يتغير بتغيرها .. لا أمان للحياة ، وبالتالى لا أمان للحب .

سيلفيا : . لا .. وحبى لك .

رؤوف : لحظة ضعف .. هذه دموعك الغزيرة تنساب على وجهك منتهى التحايل .

سيلفيا : (وهى تجهش بالبكاء) . . أنت لا ترى غير نفسك . . ولا مكان للعواطف والمشاعر فى داخلك .

رؤوف : ليس الحب وحده هو الحيـــاة .. والحياة كلها ليست الحب .. الحب هوالفعل الخلاق الذى يضيف للإنسانية معانى نبيلة . . لكن هـذا الفعل لا يستطيع كل الناس القيام به . . الحب ليس فعلا عاديا .. الحب فعل استثنائى يقوم به بعض الناس عند حالة معينة من التوافق ، وقد يحدث مرة أو مرتين فى حياة الإنسان ، وليس فى مقدور الإنسان دائماً إحداث الحب ، ولو أتينا بكل أحداث الحب فى هذه الأرض .. لوجدناها لاتساوى شيئاً بجانب الحب الحقيقى . . حب الله . . حبنا مهما كان نبيلا فلن يصعد إلى السماء .. وإن تقبل الله حباً واحداً منه . . فإنما يتقبله رحمة بنا . . حبنا مهما كانت درجة إنسانيته هو حب ناقص أجوف . . لأنه ينغمس بطين الأرض الثقيل؟

انقلبت سيلفيا على ظهرها وأخذت نفساً عميقا وقالت :

ـــ أشعر كأنك تقتلنى . . أنا لست فى حاجه إلى هـذه الفلسفة ، ليس بهذا التعقيد يعيش الناس . . هـــذا أسلوب صعب للتعامل مع

امرأة .. للتعامل مع الحب.. لماذا هذه الجلبة ؟ قلت لك أنا امرأة فى حاجة إلى الحب .. إذا كان لديك مشاعر إنسان فهمت هذه المشاعر .. إذا كان قليل من الحب لديك يكفى .. يكفى فى مدينة كهذه لامرأة تطلب هون رجل . . ليتك لا تتكلم .. الكلام منك قوى لا أتحمله.. دع الرجل فيك يتكلم واترك رأسك بأفكاره جانباً .. إن حب الله شىء عظيم . . ليس لنا به من شىء ؟ . . دعنا نحب حب البشر الناقص .. اللا واعى .. دعنا نصرخ .. دعنا نهوى . . تعال نحب ولا نتكلم عن الحب .. كل شىء فينا ناقص .. تعال نقضى وقتاً جميلا .

رؤوف : أنا وأنت مضطران لأن نفعل .. ولا نفعل لأننا نريد .

سيلفيا : كأن الحب نصف شىء .. أو لا شىء ! .

رؤوف : لا نستطيع تناول الحب ونحن نسير على عجل .

سيلفيا : إذن الحب شىء كامل يحتاج تناوله إلى روية وتعقل ؟

رؤوف : الحب قد يكون شيئاً كاملا ولكننا نجهله .

دفنت سيلفيا رأسها بين ذراعيها ، وأغمضت عينيها ، ثم وضعت الوسادة فوق رأسها . . كمن تحتمى أو تلوذ بالفرار . . لكن رؤوفاً يشعر بآلامها.. فتابع يقول :

فى هذه المدينة أو غيرها لا مكان للحب .. هناك محاولات لذلك ، فى فيناحركة وفعل للحب .. لكن أى نوع من الحب .. لكن فى حركتهم يحدثون أثراً عميقاً فى الحياة الاجتماعيـــة . . يثرون المدينة بأحدث العاطفة الملتهبة .. يفعلون وينصهرون ولا يتحدثون أبداً .. لكن

مدناً أخرى .. تتكلم كثيراً عن الحب .. عن العادات والتقاليد .. ولا تفعل شيئاً من أجل الحب .. ولكن على كل مدينة أن تفعل الحب الخاص بها .. لكن عدم وجود العلاقة الوطيده بين القيم والدين والحياة .. جعلت شعوبا كثيرة تهذى وتهوى بل وتفعل تقليداً كغيرها ولا توجد علاقة اجتماعية واحدة خاصة بمدينتنا لكن فى المدينة عدداً منها ليس من صلب المدينة .. لكنها تقليد لمدن أخرى .

قذفته سيلفيا بالوسادة وقالت :

ـــ ليس كل الناس فى حاجة إلى هذه الفلسفة .. تتفلسف دون أن تقدم للفلسفة شيئاً ! .

وسكتت برهة ثم قالت :

ـــ ماذا تريد أن يفعل الناس ؟ . ليس فى الناس مثاليه .. رغم أنه من السفاهة أن كثيراً من الناس يعتبرون أنفسهم مثلاً .

وصمتت برهة أخرى وطفقت قائلة :

ـــ كارثة .. لانستطيع أن نجعل الناس مثاليين ، لكن ما يعزينا أننا نطلب من الناس محاولة الذهاب إلى المثاليه .. عند حد معين يسقط الإنسان صريع المادة ، تموت المثل والقيم معه .. ولكننا نستطيع أن نفعل الكثير .. لو وضع الإنسان حداً لنفاقه .. نحن نستمع ونطيع ولا نرى .. نسمع وننفذ للذين يأمروننا لأنهم يملكون ، ولذا مصلحة معهم ، ولا نرى العاملين والكادحين والصادقين لأنهم لا يملكون شيئاً .. فى كل مجال من مجالات الحياة أحزاب وشلل وعصابات .. من أجل المادة والسلطة ، وليس من أجل قيمة أو معنى .. لقد سقط كل المنادين بالخير والحب عند الأقدام .. ووصل الأشرار إلى قمم هذه الحياة ،

لأنهم تجردوا حتى من أقل صفاتهم الإنسانية .. الحيـــاة الآن غابة حقيقية .

قام رؤوف من فراشه كمن انتابه الفزع وقال :

ـــ هيه .. هائل .. أنت الفيلسوفة الحقيقية .. هل تدعين إلى ثورة في العلاقات بين الناس ؟ .

سيلفيا ـــ ليتني أستطيع .. نحن في حاجة إلى اليقظة .. إلى شيء من نور ..

وصمتت بعض الوقت .. وسحبت نفسها لأعلى .. لتضع رأسها على سطح المنضدة المجـــاورة للسرير ، وخرجت الكلمات من فمها ضعيفة واهنة .. لكنها كانت متتالية ذات صدى مؤثر :

ـــ لقد تعودنا على الحزن .. والسبب الأساسي لأننا نخاف .. ومن شـــدة خوفنا أننا لا نقول ما نريده .. لكننا نقول ما يريد أن يسمعه الآخرون .. وإذا تكلمنا بصدق عن سبب أحزاننا .. فلا يجب بأن يكون لنا ثالث .. أو نتكلم بين جدران أربعة .. هذا إذا تأكدنا من عدم وجود أجهزة تصنت .

ورد عليها رؤوف وهو يعتدل في جلسته :

ـــ نحن لسنا سبب تلك الأحزان .

سيلفيا : إنهم يجبروننا عليها .. وهذه إحدى صور القمع ..

رؤوف : القهر تحت شعارات براقة .. النتيجة : الضعف .. الجهل .. الخوف .. الفوضى .. الغابة التي نعيشها .

سيلفيا : والغابة التى تركناها ..

رؤوف : دعينا نعود إلى الحب .

سيلفيا — آراؤك فى الحب معقدة .. إلى أين تريد أن تدفع المرأة ؟ المرأة ليست فى حاجة إلى فلسفة لكى تحب .. والرجل لا يحبها فيلسوفة .. لكن من المقبول جداً أن تحب المرأة مفكراً فى عمر أبيها . ولكن المشكلة أن الرجل الآن لا يعرف ماذا يريد تماما ، يطلب من المرأة الكثير ، أو هو الذى دفعها لأن تقدم الكثير .. خاصة بعد خروجها إلى العمل خارج البيت ..

.. ثم نهضت سيلفيا من فراشها ، لتقف بأرض الغرفة ، وتمشى حافية القدمين . وكأنها تقبل على عمل ما .. شربت بعض الماء ، واقتربت نحوى وهى تشد الكرسى الخشبى وجلست عليه وهى تخرج زفيرا عاليا .

وضعت ساقا على الأخرى .. وأزاحت القميص عن ساقيها .. وقالت وهى تتفرس وجه رؤوف فى الظلام :

أنا امرأة ضعيفة مثل بقية نساء الأرض .. أستطيع أن أقوم بعمل البيت ، وألد الأطفال ، ما بعد ذلك محرمة لى .. إن جيل هذه الحرية من النساء يتمزق .. لقد تمزق بالفعل .. وبالتالى فأى جيل من الأبناء تحصد هذه الإنسانية ؟ ! . إن الإنسانية الحقيقية لا تستطيع التعامل معها معاملة السوق : عرض .. طلب .. بيع شراء .. ولكننا

الآن نتعامل معاملة سوقية فى هذا المجتمع بكل فئاته وطبقاته .. وهذه هى المعاملة المناسبة .. هل تعرف لماذا ؟.. لأن هذه الإنسانية ليست حقيقية .. لقد خرجت من إطارها الطبيعى ، يوم أن ضحكوا على المرأة بالحرية وعملت خارج البيت .

رؤوف : وتحكم الرجـــل فى المرأة خارج بيتها .. لعب بها .. خطط لها .. وبدلا من أن تتبع المرأة رجلا واحداً .. هو زوجها .. أصبحت تابعة لرجل آخر أو أكثر خارج بيتها .. ومن هنا كان الخراب الإجتماعى .. وليس التقدم .. إنه السطح الأملس ... الطريق الخادع .

سكت هنيهة ثم قال :

ـــ نتكلم وكأننا نعيش هذا العالم وحدنا .. هيه .. علينا أن نعود إلى أنفسنا .

ردت سيلفيا متلهفة :

ـــ ومتى نعود ؟

رؤوف : حين تتوقف أصابع اليهودى عن الحركة .

سيلفيا : أين هو ؟

رؤوف : فى أماكن كثيرة .

سيلفيا : هل ذهب إلى بيروت ؟ .

رؤوف : يذهب إلى أى مكان .

سيلفيا : نعود فى يوم تتوقف فيه يد الرجل عن الحركة .

رؤوف : سيأتى عليه .. كل واحد يأتى .. يلعب شوطا واحدا

سيلفيا : ومن يلعب لنا ؟ .

رؤوف : يلعب لصالح الرجل اليهودى .

سيلفيا ـــ كيف ؟ .

رؤوف ـــ ليساعده اليهودى رأنصاره وقت الأزمة .

سيلفيا ـــ أزمة . . ! ؟

رؤوف ـــ هذه أزمتنا . . إنها أزمة أحزابنا .

سيلفيا ـــ آه . . أيها البلاء .

* * *

مرت الايام التالية كأنها دهر . . تكاسلنا فيها كثيراً وتفلسفنا . . وعندما تكون الفلسفة كلمات تخرج من شفاه ضعاف . . ماذا تجدى ؟ إن السادة والأقوياء يخرجون من شفاههم شعارات جوفاء ، وكلمات ثقيلة خرساء . . ولأن لها قوة ومكاناً . . فإنها تجدى . . لا يهم أن يكثر الظلام . . والضلال . . والحزن والخوف . . لا يهم . . المهم أن سادة الحياة ما زالوا أقوياء . . فى غابة الحياة .

أنا ابن من ؟ . .

ابن الشارع . . ابن الجريدة . . ابن الشلن . . ابن ماما ماريا .

ابن الظلم . . ابن الخوف . . ابن العدالة الضائعة . . ابن الذين ينتظرون حتفهم الطبيعى . . ابن الذين يتصورون أن العدالة ستدق بابهم فى يوم . .

ابن الذين يموتون من الجوع .

وفى ليلة من الليالى ، وبعد أن تناولنا طعام العشاء ، شعرت بشىء

ـــ لكنى .. لكنى .. لـ ..

سيلفيا بصوت رقيق :

ـــ أيها الرجل .. لاتنتظر .. لا تحتزن ربيع حياتك . .

.. أنت أبله يا رؤوف .. قالتها وابتسمت .

انقلب رؤوف على ظهره .. واحتضن صدره بكلتا يديه . .

وتعلقت عيناه بسقف الغرفة وهو فى دهش شديد وقال :

ـــ أنا لا أعرف كيف أحبك . أنا أحبك لكنى لا أعرف .

وقالت سيلفيا وهى تعبث بأصابعها فى وجهه :

ـــ اضربنى .. على رأسى .. على جسدى . . حطم ساقى . .

العب بى الكرة . .

وابتسمت وتابعت قائلة :

ألا تعرف كيف تضربنى ؟ .

أحب بفطرته كالطفل الذى يرضع ثدى أمه .. أحب نوعا آخر من النساء غير سوزى .. فى ليلة شعر فيها أنه ملك .. ولم يعد للفضيلة بقية داخله .. لا يجب أن أدعى أنى فضل بعد اليوم .. وخرج شىء كان يداخلنا إلى آفاق هذا العالم الضائع .. فهل يندهش هذا العالم منا ؟ .. مادام هذا حديث الطبيعة فينا فإن العالم يسعد بنا .. وأدركت أنه فى اليوم الواحد تشهد الدنيا ما يخدش هذه الفضيلة كثيراً .. وكأنه الفعل السوى والدائم .. هل يستغنى الله عن هذا العالم ؟ .. نقترب إلى الجحيم .. رغم أن هذا الجحيم يبتعد ، عاولا

بودود يندمج مع نفسى ، وسرت رعدة فى داخلى مرت سريعة ، لقد كانت اللذة ... عرفتها . . لذة الألم مع كل هـــذا العالم . . ما الذى يعتريني ؟ . . العالم يأخذنى ويلفنى . . أيتها النفس الصغيرة الضعيفة . . لم تمتلئين بهـذه العفوية ؟ . . هل تحبين الأشرار من الناس ؟ . . أم تحبين غيرهم ؟ . . أم تحبين نفسك . . من خلال هـــذه الدنيا الفسيحة . . ؟ لم أشعر فى حياتى بمعنى العشق . . العشق الحقيقى . . كما أنا عليه هذه الليلة . . أنا عاشق لنفسى . . أياً كانت هذه النفس .

. . . هـذه غرفتى التى تطل على هذا العالم . . هى أجمل بيت فيه . . وهذا هو السحر . . عطر . . قميص . . سيلفيا . . وماذا بعد ؟ . . لم لا تكون نهاية هذا العالم ليلة السبت هذه ؟ . . كان الفراش نظيفاً مرتباً . . والعطر يعبق فى كل الأرجاء . . حتى أرضية الغرفة الخشبية تعطر به . . قصر صغير جميل . . واسع مترامِ إلى أبعد مدى أراه . . كأنه قارات الدنيا الخمس .

استلقت سيلفيا على السرير فى قميص أخضر شفاف قصير . . فبان كل الجسد . . الرقبة البيضاء ممتدة كرقبة غزال . . والشعر المنسدل على كتفيها . . وهذا الوجه ينخرط فى حياء . . يستلق فى أمان منادياً الحب . اقتربت من وجه امرأة يتحدى . . وكان فى عينيها نداء هامس طويل وكأنه سرمدى .

سيلفيا : أنا امرأة . . هذا أنا . . أترانى ؟ .

وتلعثمت الكلمات بين شفتى وقلت :

إعطاءنا فرصة الابتعاد عنه ..

.. وفى منتصف الساعة التى تسبق الفجر ... ذهب الذى كان واحداً .. ولما انبلج الصبح لم يكن هناك أجمل من الطبيعة .. ولم نكن ندرى شيئاً بأنفسنا .. ولم يعد فى داخلنا شىء واحد طبيعى.

كانت سيلفيا تتألم .. فترددت فى الاقتراب منها بعد مرتين من الحب .. لكنها قالت وهى تحتضننى :

— ابعث طاقة الحياة السحرية فى قليل من الألم مقابل متعة أبدية. لا تبال بألمى .. حطم ضلوعى واجعلها تذوب فى أحضانك .. لا تبال بدموعى .. إنها اللذة المتألمة فى داخلى .. لا تصدق دموعى .. أنا امرأة كاذبة ضعيفة .. تتداعى عواطفها ومشاعرها لك .. لن تجف دموعى دون عنفوانك .

وفى الضحى أخذنا نسترق السمع إلى أصوات الحياة التى تدب فى الشارع ، ومن خلال زجاج النافذة علت الشمس وسطعت وبان ضوء النهار ، وأخفت سيلفيا وجهها تحت الغطاء ... وارتعد جسدها كله بقوة .. وراحت فى النوم .. إن حركة الحياة فى داخلها أخذت مساراً آخر .. وبدا وكأن شيئاً قد دب فى أوصالها المرتعشة .. كنت أصيب بالحمى .

فى المساء ملأت السماء سحابة ضخمة ، اقتربت من أسطح البنايات وأعالى الشجر ، وشرع المطر يهطل بغزارة .

وقامت سيلفيا متثاقلة تقضى بعض حاجياتها ، وارتجفت فى مشيتها

وجرت قدميها كأنها تجر أكياس رمل ، ودلفت إلى الحمام ، غسلت ملابس لها ، وخلعت قميصها لتستحم ، وفتحت صنبور الماء الساخن ، وانسابت حبات الماء بقوة فوق جسدها العارى ، كانت فرحة وحزينة ، مبتسمة وعبوسة ، خليط من إحساسين متناقضين ، وتركت نفسها تحت الماء نصف ساعة .. تغنى بأغنيتين .

وارتدت ملابسها ، ومشطت شعرها على المرآة ، وانتابتها أفكار أخذتها إلى شيء مثل الخوف .. وقالت لنفسها : إلى أين ؟ .. هذا مؤسف .. يجب أن أتوقف .. أتعقل ، وتساءلت وهى تقمص شعرها إلى الخلف وتحدق فى المرآة كمن تحاول رؤية نفسها :

.. هل أخذ الزمن بيدى ؟.. أم أنه رفضنى .. أو ضمنى إلى رحابه الواسعة .. إلى دائرة نساء فينا .

لكنها سرعان ما تنبهت ، ونفضت عن نفسها أفكار الخوف وقالت وهى تعود إلى الغرفة محدثة رؤوفاً :

— من يرد السعادة لا يهمه شيء مثل الخوف يوقفه عنها .

رؤوف : أتريدين الحياة أو السعادة ؟ .

سيلفيا : أريد أن أسعد .

رؤوف : ليست السعادة فرع شجرة نتناوله فى أى وقت نشاء .

سيلفيا : قل لى كيف تستمر سعادتى ؟ .

رؤوف : تناولى الحياة بقوة .. واغرقى من كل إناء فيها .

سيلفيا : أتناولها بالعقل أو بالعاطفة .

رؤوف : تناوليها بأى منهما .. دون الإضرار بالآخرين .

سيلفيا : دعنا من أفكارنا المعقدة .. كل ما أعيه .. أن أعيش حياتي كامرأة .. امرأة هى أنا وأنا كامرأة .

وفى الخامسة ودعت سيلفيا .. أنط الدرج ، وفى الشارع انطلقت ماشياً .. لكن بخطوات غير ثابتة .. خطواتى كانت متأرجحة ، وقدماى غير ثابتتين فى الأرض ، وعند إحدى زوايا شارع جوزيف .. شعرت بظلام دامس . . حلق فوق رؤوس المارة ورأسى .. وحركت المظلة يمنة ويسرة حتى لا أرى هذه الظلمة .. لكن الحلكة السوداء كانت أكبر من مظلتى الصغيرة . . ولم تفعل غير أن تمنع عنى حبات المطر الثقيل .

وهبت رياح شديدة ، وزمجرت السماء ، ونزل البرق قريباً من سقف البيوت يخطف الأبصار .. وكاد الشارع يخلو من المارة ، وهرع الناس إلى بيوتهم وحوانيتهم ، ودخلت السيارات فى أرتال متزاحمة .. هاربة من ثورة الطقس ، وتمزقت المظلة وابتل رأسى ومعطفى وحقيبتى بالماء .. وكأنى خارج لتوى من البحر ، وزادت حركة الطقس هذه من تأخرى فى الذهاب إلى العمل ، وحاولت مرة الاختباء فى جوف حانوت . . لكننى لم ألبث دقيقة ، وواصلت السير متحدياً عوامل الطبيعة القاسية ، ولما وصلت إلى إشطانبان .. ركبت العربة الأخيرة ، ولم يكن معى غير سيدة أعياها الشراب .. وحملقت من النافذة لأرى

المدينة كلها تحتى .. حيث تسير عجلات هذه العربات فى مستوى يقارب أسطح بنايات المدينة .. مازلت أرى العالم وأسيطر عليه .. ولا يرانى أحد غيه ... وشعرت بالسعادة .

ولما نزلت من الأوبان .. مشيت بلا روية ، اجتزت قضبان المحطة بصعوبة .

تثاقل الجسد وغاص القدم فى أوحال المطر التى انتشرت بين مسارات العربات ، وشعرت بندم .. الندم على حياتى كلها .. وكأن السوط يضربنى على رأسى .. ولما كنت أعرف أن الله خلق هذا للعالم الكبير .. وأن هذا العالم أصبح ناقصاً بفعل أبنائه فماذا تنتظر من هذا العالم ؟ . ينتقل من سىء إلى أسوأ .. لأن الناس نسوا قدرة الخالق العظيم .

وصلت الجريدة متأخراً ، وأدخلت مرتجماتى فى بطاقة منفصلة ، وانشغل وحيد وحجازى بالحديث داخل السيارة ، واشتريت بعض المجلات الجديدة ، وعند باب الكافتيريا الكبير ، وخلف مجموعة من السيارات .. جلست على سور الفناء فى بقعة يكسوها الظلام .. انطويت على سرى ، وتفحصت مبنى الجريدة طابقاً بعد الآخر .. وراقت لى أنوار المصاريع ، ثم رحت أتأمل البنايات المجاورة والحدائق والطرق .. وشعرت بالحقد والحسد لكل من يعيش حياة طبيعية .. واحتقرت نفسى .. هل أنا مصنوع من بعض صخور الجبل ؟ .. هل أنا غبى لأقوم بعمل شاق وصعب ؟ .. أيها العقل لم لا تأتينى بعمل

آخر ؟ .. أيها العالم الكبير قربنى من أبى وأمى لأولد من جديد .. لتمنحنى عدالة الأرض إذا ولدت معى عملا جديداً عند ناصية الهرم .

مات أبى .. وأمى بيتها من الخشب .. أرض من طين .. وعندما كبرت .. كبرت من طعام خشن .. خبز من دقيق الذرة وجبن قديم وبصل قديم أيضا .. وعندما كبرت مرة ثانية .. كان نفس البيت ونفس الطعام القديم .. وكبرت معى فكرة البحث عن البيت والخبز والطعام .. شىء واحد خرجت من أجله إلى هذا العالم .. خرجت إلى هذا العالم فى هذه المدينة لأتحدى الفقر .. تاركاً خلفى عدالة ممزقة .. واستأجرنى هذا العالم الجديد عبداً .. فى مدينة غير مدينتى .. أنا عبد .. أقوم بأحط الأعمال فى أسوأ ظروف عملى .. لكن لى بيتا جديداً ونظيفا .. ولى طعاما وفيرا وسمينا ولى مالا ونساءاً .. أنا عبد هذه المدينة .. عبد له كرامة .. امتدت إليه يد الغرباء .. لتعطيه نصيبا كافيا من ثروة المدينة الغريبة عنه .. أليس من الأجدر أن أكون ابن هذا العالم .. ؟

وسالت الدموع من عينى بغزارة .. ساخنة تملأ وجهى .. وانتحبت وحدى .. دون أن يرانى بقية الذين استأجرهم هذا العالم معى .. ودخلت الدموع فمى .. مالحة ثقيلة .. كملح أفرغ فى كأس عتيق .. يتعاطاه مريض فى ظلام الليل ، واشتدت ظلمة الليل .. ليل شديد الظلمة قارس البرد .. فطوانى ومعى أحزانى .. قد تطلع الشمس غداً وتتبدل أحزانى .. وهذه آمال فارغة دون عمل .. أنا قدرى على كف

من الجليد أتزحلق فيه وحدى .. وطالما يتزحلق الرجال ينتهى أمر هذا العالم بالتزحلق ..

قمت لأضرب السور الحديدى بقبضتى .. وأدخلت رأسى بين قضبانه .. وسال فى عروقى وتدفق شىء ينساب ويريح رأسى .. لأن ما أراه حولى بدأ يقترب منى ويألفنى .. حتى هذا الجزء الطبيعى من العالم الذى أحقد عليه .. وصرخت صرخة عالية .. ومن يسمع صراخ الضعفاء الذين فى سقوطهم ليس لهم مكان فوق الأرض .. إنهم حين يسقطون فمكانهم تحت الأرض أيضاً .. وإن صنعوا الحياة .. فإن بيتهم من جزء عائم على سطح ماء .. وعندما ينجحون فإنهم لا يستطيعون الإطباق على نجاحهم ، كالطيور فى أعالى الشجر .. تقتات طعامها حين تعوى الرياح .

وعندما ذهب الرأس فى السور بسهولة .. لم يكن انتزاعها ميسوراً .. الرأس كبير والفتحة عمودان من الحديد يمسكان بها ، وأمسكت القضيبين بيدى .. ودفعت بجسدى إلى الخلف .. محاولاً جذب رأسى بتحريكه يمنة ويسرة .. لكنى لم أفلح .. وحاولت ثانية ، فتحركت قليلاً .. هل أصرخ ليأتى من ينقذنى من هذا الفزع ؟ . وحاولت ثالثة .. وألقيت بالحقيبة على الأرض ، ووقفت عليها بأطراف أصابعى .. ودفعت برأسى إلى الأمام فخرجت من الناحية الأخرى للسياج الحديدى ، وباتت رقبتى بين العمودين ، الجسد فى ناحية والرأس فى الأخرى ، وصعدت من على الحقيبة إلى قاعدة السور ، وتحركت الرقبة

حين الحديد إلى أعلى .. ومن ثم الرأس الذى عاد حراً طليقاً فى أعلى السياج .. وعدت أقف على الأرض ، وتبللت أوصالى بالعرق، وسرت منكفىء الوجه إلى مخزن استلام الجرائد ، وجاءنى وحيد يعلمنى بأنه سينصرف وعلىّ أن أركب مع عماد ، لم أكن أرى وجوه زبائنى ، وفى الكنيسة المجاورة دقت الساعة الثامنة .. هبط الليل بعدها دامساً .. واختنق قلبى واشتدت ضرباته .. ولأول مرة أرى أن المدينة كابوس ثقيل .. كيف وهى أجمل المدن ؟ .

— ومر الوقت بلا روية أو تمييز ، ولم أعد أمتلك أى شعور ، وأصيب رأسى بدوار بين الفينة والأخرى ، واقترب منى رجل له وجه شرقى .. يتنحنح قليلا وأعطانى ورقة .. وانصرف غير مكترث ، وفتحت الورقة وأخذت أقرؤها بتلهف شديد :

« الإنسانية تضيق بأعمالنا المشينة .. وهذا العالم يتحسر على قلوب كثيرة .. قلوب لم تعد قادرة على تنفس الهواء النقى ، إننا حين نهيم بالمراقص والحدائق فإننا لا نجد فيها ما يغنينا .. مادام فى داخلنا روائح كريهة .. فى داخل كل إنسان بقعة سوداء يحاول إخفاءها وراء زهرة يمسك بها ، ووراء كل مرآة ظلال سوداء تظهر عندما يغيب شىء . الفضيلة الحقيقية أن تقام العدالة وتشيد أسس ومبادىء الحرية والعدالة .. وهذا هو الحل لتتوقف مأساة البشر الذين يعيشون خارج بلادهم أو داخلها .. » انتهت .

وقلت لنفسى : لابد من الإمساك بهذا الرجل : . ثلاثة رجال حتى الآن .

اشتد برد الليل . . الرياح تحط من بيت لآخر . . تمسح أسطح البنايات . . تحف الغبار المتراكم . . وبدأت السماء ثانية تنثر صبات المطر . . وبقى من وقت العمل أقل من ساعة .

. . كانت سيلفيا قد وصلت البيت فى العاشرة . اغتسلت من غبار العمـــل وأوساخه . . وجلست أمام المرآة تترنم بأغنية . . وتتلمس خصلات شعرها . . وضعت ساقاً فوق الأخرى ، وبدا لها أن الثوب طويل ثقيل . . فقامت وخلعته وارتدت آخر شفافاً قصيراً ، وجلست فى غرفتها الصغيرة أمام المدفأة ، وضعت يديها فوق النار الحامية ، وسطعت الحرارة فى الساق ، وسرى فى الساقين والجسد دفء غريب ، وقامت إلى دولابها لتحضر علبة كريم أبيض له رائحة الزهـــور . . ومدت ساقاً بعد الأخرى ودلكتها ثم عطرتها بعطر اشترته اليوم . . اشترته خصيصاً من محل إشطافا بشارع ماريا هيلف . . ونثرت على منحنيات الجسد وجباله وأسراره كثيراً منه . . حتى شعرهـا المنثور على كتفيها . . توجته عطراً بكفيها .

ولما تذكرت أن عليها إعداد الطعام . . قصت شعرها فوق رأسها ، ودخلت غرفة رؤوف . . وغنت بصوت عال . . وعلى المنضدة الصغيرة رتبت الأطباق ، وأعدت عنـد الموقد طعاماً من لحم وأرز وشرائح بطاطس وطماطم وخبز . . ومن الفاكهة ملأت طبقاً بالموز وآخر

بالتفاح وبعض الحلوى . . وبمفرش من ورق السلوفان غطت المائدة بعد أن وضعت عليها الطعام الوفير ، وقفزت إلى السرير فرحة مغتبطة ولفت أغطية الفراش كمخدة واحتضنتها .. وراحت فى نوم يقظ تحلم بالأمر مع رؤوف . . رؤوف الذى بدد ظلمة حياة المدينة التى باتت فى داخلها زمنا . . إلى أن جاء وبدد اليأس وأزاح الجمود .. تفتح القلب ونبض ملء مساحات الحب فى قلوب كل فتيات الدنيا . . هكذا تهيأت . . وذهبت فى أحلامها السعيدة . . ومن حين لآخر ترفع رأسها تسترق السمع . . تنتظر قدوم رؤوف . . لكن الرجل تأخر عن موعده ، وملأها الخوف لحظة ثم ذهب . . وقامت إلى المرآة . . فكت شعرها المعقوص لينساب على كتفيها . . وقالت وهى تطوح رأسها إلى الخلف : أهناك امرأة مثلى ؟ ألست جميلة حقاً ؟ .

وتأملت الوجه بالعينين بالفم . . وقالت ثانية لنفسها : لا يكفى أن أكون جميلة . . يجب علىّ أن أنتبه وأحافظ على رؤوف .. لن تستطيع أى امرأة وإن كانت فينوية أخذ هذا الرجل منى . .

وأخذت تروح وتجىء فى الغرفة بخطى ثابتة واثقة . . كمن تتحدى . . خلعت القميص وقالت :

— بحق هذا الجمال سأحبه وحدى . .

قالتها بصوت مسموع . .

ولما فتحت النافذة . . وجدت أن السماء قطرت الندى على أوراق الشجرة الكبيرة فى الفناء . . وقالت ثانية بصوت مسموع :

ـــ هذا دليل على أننا أصبحنا من سكان هذه المدينة . .

أما رؤوف فكان قد انتهى من عمله كالمعتاد فى الحادية عشرة غير أن الترام لم يأت فى موعـــده . . أخرت ردامة الطقس سيره عشرين دقيقة ، ونزل محطة البرلمان ، وسار فى الشارع المتجه إلى بيته ، وفى الطريق وجد فتاة لا تقل عن العشرين عاماً .. تفترش الأرض ، توقف ومال عليها يتفحصها ، فوجدهـــا باكية حزينة . . متفتحة الجفون كالتى ذرفت كل دموعها فى يوم . . ترتدى بنطالا ضيقا من الجنز الرمادى اللون ، وفوقه بلوفر سميك من الفرو ، ومعطفا أسوداً مفتوح الأزرار ، وتنتعل حذاءا برقبة طويلة .. كالذى ترتديه لاعبات كرة السلة .. ولما سألها بالانجليزية :

ـــ هل تنتظرين أحداً ؟ .

قالت بالانجليزية :

ـــ لا أحد .

رؤوف : لماذا تجلسين هنا ؟ . من الذى أتى بك فى مثل هـذا الوقت ؟ .

الفتاة : أتيت من أجل الحب .

رؤوف : ومن يأتى للحب يجلس فى الشوارع ؟ .

الفتاة : لم أجده .. سافر دون أن يخبرنى إلى بلاده .. سويسرا .

رؤوف : وأين بيتك ؟ .

الفتاة : فى الضواحى . . ولم أستطع العودة لأننى وصلت فينا فى التاسعة مساءاً .

رؤوف : وتأكدت من سفره ؟

الفتاة : ترك ورقة مع حارس البيت .

رؤوف : لا تحزني .. تعالى معى .

ومد لهـــا يده فتعلقت بها ، وجذبها نحوه ولفت ذراعها حوله واحتضنته من ظهره وطوقها بذراعه عند الكتف ، وشدها من شعرها بعنف وابتسمت .

انفتح رؤوف على النساء ، وكأن القيم والمبـــادىء التى كان يعتنقها ، كانت مرهونة على أن يعرف امرأة واحـدة . . بعد ذلك يعرف كل النساء .

. . وفى غرفة صغيرة يسكنها صلاح دردير أحد باعة الجرائد . . يقطن فى البناية الملاصقة لبيت رؤوف منذ سنين ، وصلاح لا يمانع فى استضافة أية إمرأة ، ولم تمانع الفتـاة ، وباتت معه ثلاث ليال ، بعدها سافرت إلى بلدتها .

واحتضنت سيليفا رؤوفاً بكل قوة ، ولما حكى لها عن الفتاة الضائعة فى الشارع وأنه أتى بها إلى صلاح . . دبت الغيرة فى داخلها ، وأخذت نفسها بعيداً عنه ، وذهبت فى حـــديث صامت مع قلبها . . ألم أملأ حياته . . أعطيته بالامس كل شىء . . ويحادث فى الطريق امرأة ؟ . . مهما كان الموقف إنسانياً ، عليـه أن يجعل قلبه على المرأة التى أعطته فقط . . وجلست متهاوية على المقعد ، وسفحت العبرات من مقلتيها وقالت :

ـــ أتهيأ لك طول اليوم . . وهذه ليلتى وحدى . . وتلامس فتاة

أخرى وتأخذها فى أحضانك .. وتأتى بها إلى رجل ؟ .. أتريد أن تذهب إلى بقية النساء بعد ليلة واحدة معى .. ؟ إذا كنت ستستمر فى ذلك قل لى .. لأكف عنك وأرحل ؟!

وانكفأت بوجهها على المخـــدع ، وشهقت بصوت عال وكأنها تتشنج .. ولم ينبس رؤوف ببنت شفة ، وذهب إلى الحمام يغتسل ، وامتعض وهو يجلس على قاعدة التواليت ، وتألم لجهله بالنساء ، وأنه أفسد على نفسه بيته وحياته ، وندم على ما حدث منه ، ومضى وقت طويل .. يتدبر فيه كيف يصلح الجو الذى أوجده مع سيلفيا ، وكانت المرأة تتمشى فى الغرفة بعصبية ، مرة تكفكف دمعها ، وأخرى تمسك خصلات شعرها بعنف ، ولما وقع بصرها على الطعام ، شغلتها الحاجة إليه ، وجلست عنده تنتظر ، فى صمت دخل عليهما ، وفرش السجادة وأقام الصلاة وهو يرتعش ، ولمـا انتهى كان يرتجف وأسنانه تصطك ببعضها ، وجلس إلى المائدة دون كلمة واحـــدة ، وتناولا الطعام ، وراحت الرعشة عنه، وانشغلت أسنانه فى التهام الطعام الشهى ، ولاحظت سيلفيا مبلغ جوعه فابتهجت قائلة :

ــ هل آتى بالمزيد ؟.

رؤوف . لا أستحق طعامك .

سيلفيا : سأتغاضى عن فعلتك هذه الليلة .. وإذا عدت .. (وسكتت)

رؤوف : ماذا تفعلين ؟ .

سيلفيا : سأحاول طردك إلى الشارع ... حيث تجد واحـــدة على الرصيف .

وهزت كتفيها واستطردت تقول : ولكنى لا أستطيع .. إنه قلبي الرقيق .. لو فعلت النساء ذلك مع أزواجهن .. لبقيت النساء فى البيوت دون رجل واحد.

رؤوف : تصرفت مع الفتاة لأنقذها من المبيت فى الشارع .. ولم أكن أقصد إيذاءك .

سيلفيا : أرجوك لا تفعلها ثانية .

قاما واغتسلا .. وعاد إلى الغرفة، وتناولت من بنطالها ورقة وأعطتها لرؤوف قائلة :

ـــ إقرأ هذه الورقة .. أعطانى إياها رجل وأنا أعمل فى المقهى اليوم ، كتبت بالعربية .

وقرأت الورقة بنهم شديد كما أفعل دائماً:

« علينا أن نتزوج .. وأن نحب من نتزوج .. علينا أن نكشف عن البحث والتجربة .. إن طموح الرجل فى امرأة والمرأة كذلك دون حق شرعى هو الذى يجعل الحياة خراباً حولنا .. إن شوق الإنسان إلى العالم اللا محـــدود .. هو الذى يفتح علينا مجالا فسيحاً وقوياً وجارفاً .. لا نستطيع أن نصل إلى مداه .. هـذا هو الضياع أو التيه .. » (انتهت) .

وقال رؤوف : يا إلهى .

سيلفيا : لقد قرأتها .. بها معان كثيرة وقوية .

رؤوف : هذه الورقة الرابعة التى أحصل عليها .

سيلفيا : احتفظ بهذه الأوراق .. من الذى يكتب هذه الأفكار ؟

رؤوف — هذا ما أبحث عنه .

سيلفيا : كفانا سفسطة .

رؤوف — وماذا نفعل ؟ . ما أحلى الكلام !

سيلفيا : افعل ما يصلح بينى وبينك .

رؤوف : أطفئ الأنوار . .

* * *

ومرت الأيام .. نبحث عن الحب .. عن كثير من الحب . . نعود إلى أنفسنا فلا نجد غير الضعف . . نلوذ بضعفنا .. نشعر بوجودنا الكبير .. نجد عالمنا بين أيدينا .. نذهب فى عالمنا إلى آخر مدى .

وفى يوم بدا على سيلفيا الجد والحزن ، ولما اقتربت منها ابتعدت عنى قائلة : دعنى .

رؤوف — لماذا ؟

سيلفيا — كفى .

وقعدت من فوقها ، وضمت ركبتيها بيديها إلى صدرها ، ووضعت رأسها على الساق المضمومة ، وراحت فى نوبة بكاء عالية ، وارتجف الفراش من شدة نشيجها ، وحل الخوف والقلق محل الشوق ، وهزها رؤوف بعنف . . يستحلفها بمصارحته بما جرى ، إلا أنها استمرت فى عويلها .. وحاول تهدئتها إلا أنه لم يكترث بحدة بكائها لأن ماما ماريا

لن تسمعها . . وحمد الله على أنها مسافرة منذ مدة ، وأنها لا تعلم ماجرى بينهما . . وتركها تنتحب وقام وفتح النافذة . . فدخل الصقيع شديداً . . ولم يبدد جو الغرفة الحزين ، وحاول رؤوف التنفس بقدر يسير ، لكنه لم يستطع ، كأن شيئاً ثقيلا يجسم فوق صدره . . وعاد إليها وقال متوسلا :

— بالله عليك قولى ماذا ألم بك . . ؟

ولم تتفوه ببنت شفة .

وتناول زجاجة صغيرة فارغة ، وألقى بها فى عنف بأرض الفناء المظلم القابع فى سكونه ، وخرجت سيلفيا من ألمها لذات اللحظة . . كالذى ضرب الماء بحجر ثقيل لتخرج سمكة إلى السطح ويلتقطها ، وصفع المصراع ورفع ذراعيه لأعلى باسطاً قبضته ، كمن يريد أن يطبق على رقبتها ليخنقها ، واتجه نحوها واقترب ، فصرخت قائلة :

— ما هذا ؟ . .

تراجع رؤوف ولم يمسك بنحرها ، فعل ذلك من شدة غيظه ، ورفع يديه لأعلى ليقبض على فراغ الغرفة ، وشب على أطافره محاولا مسك السقف ، لكنه لم يستطع لطول المسافة بينهما ، وعاد وجثا على ركبتيه مقابلها وقال :

— بحق السماء . . بحق هذه المدينة . . أستحلفك بأى شىء فى هذا العالم ، قولى ماذا حدث ؟ . ما أستطيع أن أفعل ؟ .

سيلفيا — (وهى تخبىء وجهها بين ساقيها) نحن بعيدون عن حق السماء ، أما حق هذه المدينة فلا أعرف أى حق تقصد . . حقيقة

الناس فيها .. أم حقيقة السطح الذى يحملها كأوراق الخيلة ؟ .

رؤوف : قولى بحق أى حقيقة لديك .

رفعت رأسها من بين ساقيها ، وتفرست وجهه وحاولت استجماع قواها وقالت :

— لماذا تصلى ؟

وتململ وهو يجلس بجانبها وقال :

— أصلى شكراً لله .. لأنى كنت أصلى فى بلادى وتابعت صلاتى .

سيلفيا — وماذا بعد ؟

رؤوف — أشعر براحة لا حد لها بعد كل صلاة .

سيلفيا — إنها راحة بلا عمل .. راحة النفس الأنانية .. ألم تفكر فى العلاقة بيننا ؟ .. شهور وأنت تعاشرنى دون .. وسكتت .

وسكت كلاهما .. وضرب رأسه بكفه وقال :

— تريدين ؟..

سيلفيا : أريد أن.. أن تتزوجنى .

رؤوف : قوليها مرة واحدة .. هذا هو الحق .

سيلفيا : أنت موافق ؟

رؤوف — الحق شىء واحد .. لاينكسر أبداً .

سيلفيا — بكيت كثيراً قبل أن أقولها لك .. لأنه كان يجب أن تقولها أنت .

رؤوف : حسبتك لا تريدين الزواج .

سيلفيا : أنا لست من فينا .

رؤوف : فى خلال يومين سنتزوج رسمياً .. إعطينى فرصة السؤال .

وامتنعا عن اللقاء .. وطلب رؤوف منها أن تنام فى غرفتها حتى يتم الزواج ، فوافقت عن رضا .

وفى أول يوم أحـــد .. ذهبنا إلى مبنى الشباب الأفروآسيوى ، وجلسنا فى كافتيريا المبنى .. حتى وصل رجل باكستانى اسمه خالد محمد .. وتم عقد القران فى ركن بالمسجد الصغير ، وعثرت على شاهدين .. واحد اسمه عبد المنعم الخالدى من بلاد النهرين وآخر من كان يدعى أحمد حداد ، وكلاهما يدرسان ويعملان منذ سنين .. وأمام كاتب العقد والشاهـدين أسلمت سيلفيا ، وشربنا عصير الليمون ، وودعنا الثلاثة عند باب المبنى ، ومن سوبر ماركت اشترينا حاجياتنا من الطعام والحلوى والعصائر ثم ركبنا الترام إلى البيت .

ومرت الأيام .. كم كان الحب ، وكيف كانت السعادة تغمرنا من كل جانب ! رحبت الحيـاة بنا .. والشباب يزدهر فى كل يوم مرتين وثلاثاً ، واغترفنا من نهر الحب ما يكفى عشرة من الرجال والنساء ، وعادت سيلفيا قطعة من الجمال تبهر العين ، شعرها الكستنائى الحريرى ، أحلى من أى تاج يعلو جبين امرأة .. وفى كل مساء عند النوم .. يحلو لى التأمل فى وجهها المشرق .. وكأنه أنشودة جميلة ، كم صدح صوتها العذب بأغنيات رقيقة كل صباح ومسـاء .. وكثيراً ما ذهبنا أيام الآحاد إلى الضواحى ، نتمتع بحدائقها الخضراء .. نأكل ونشرب كولا وليمون ،

ونضحك ونثرثر ونركض هنا وهناك ، نتدحرج على المروج والعشب ، نشم رحيق الزهور ، ونتسلق جذوع الشجر ، وفى المساء نعود إلى البيت وقد تشابكت أيدينا . . وتعانقت قلوبنا . . يرتمى كل منا فى أحضان الآخر ، فننام من تعب لذيذ أصابنا فى النهار . . وإذا صحونا فى الليل نسبح فى بحر الحب . . وكأن الحب جاء إلينا . . لا يعرف فى الدنيا غيرنا . . نقول له تعال لا تدعنا ولا تذهب عنا . . لم أعشق امرأة قبل سيلفيا ، والمرأة التى أحببتها فى بلدى ، كان حبها منحوتاً شعراً وكلاماً منثوراً . لم يأت بفعل ، وكل ما قيل عن لذات المرأة وجمالياتها . . بجانب حبى لسيلفيا وتعلق وشغفى بها لا يساوى صفراً . . كان كل منا يعشق الآخر ، أيام وأسابيع وشهور مرت . . لا نحب أن نرى فيها أحداً غيرنا . . حتى لا يضيع وقتنا .

وفى ليلة من الليالى ، دعانا وحيد وصديقته لقضاء ليلة أحد فى بيتهما ، ولما ذهبنا وجدنا الغول وصديقته وحجازى وصديقته ، ولم يكن انا سابق عهد بهذه الليالى الأحدية فى فينا . . وجلس الجميع على كراسى بالصالة ، وقدمت صاحبة البيت الشراب من الويسكى والكونياك ، وأحضرت لى ولسيلفيا كأسى ليمون وطبقاً مليئاً بالحلوى . . وثرثر الجميع وتمازحوا . . وعلت الموسيقى ، ولما اشتد إيقاعها بدأ الرقص ، رقص حجازى وفرجينا ، ثم نزل الحلبة الغول وربنا ، ثم أصحاب البيت ، ورأينا كيف تكون ليلة من ليالى فينا فى بيت الفينوية جورجيت . .

من هم صحبة الليل ؟. من أين أتوا ؟. وماذا يريدون ؟.

حجازى يبلغ من العمر ثلاثين عاما .. عمل مهندسا زراعياً عدة سنوات ، من حى سمادون ، له زوجة تعيش مع أسرته . . يرسل لها بين وقت وآخر مبلغاً من المال ، كل عام يذهب لزيارتها ، وسرعان ما يعود حيث صديقته فرجينا والمال والمدينة المتلألئة . . شعره ناعم طويل ينسدل أثناء الرقص على جبهته ، ذو وجه شاحب ضيق العينين .. بارز الوجنتين وأنف متوسط الحجم . . وأذنين كبيرتين .. شفاه غليظة تضم بينهما فماً واسعاً غير محدد ، شارب صغير خفيف كرقم أحد عشر يسكن تحت أنفه ، فارع العود .. ارتجالى التصرفات .. عنوى كفلاحى كفر بجاهد .

فرجينا صديقته .. فتاة قصيرة سمينة الأرداف والساقين ، ونصفها العلوى شديد النحافة . . ليست بالجميلة . . لكن لها جاذبية معينة فى مواضع من وجهها وجسدها .. فهذا خصر رفيع فوق ردفين مختمرين عاليين . . وفى الأعلى صدر صغير بارز ، والوجه تسكنه عينان خضراوان ثابتتان .. ويتدلى من رأسها شعر أصفر حتى الأكتاف ، وغالباً ما يترك الشعر بلا تمشيط .. من ريف فينا .. تعمل ممرضة فى أحد المستشفيات ، وتعيش وحدها بالمدينة .. فى شقة صغيرة بحى كارلزبلاتز .. ومن وقت لآخر تذهب لزيارة أسرتها ومعها حجازى..

أما جورجيت فهى أجمل الحاضرات واحلاهن وجهاً وأكثرهن خفة ورشاقة .. خمرية اللون .. تبدو نحيفة عند ارتدائها الفستان ، لكنها فى البنطال ملفوفة بضة .. افترشت الأرض مع وحيد فانكشح

فستانها عن ساقيها .. تتدليان من ثوبها محبورتين لامعتين في بياضهما .. كأن بهما ثورة تتحدى أعتى الرجال .. تعمل جورجيت في محل لبيع الملابس بالشارع التجاري ، و فضّل وحيد أن يكون بائع جرائد بجوار جورجيت على أن يكون محامياً يتسكع في المقاهي والأزقة بحثاً عن قضايا تافهة ملفقة ..

وحيد شخصية هادئة يغلب عليها الصمت .. متوسط القامة قوي البنية .. له وجه أبيض ، لطيف الطلعة .. وعينان سوداوان .. نوع من الرجال اختزن كثيراً في صدره .. يبتسم بحساب ويتكلم كذلك .. خيِّر وطيِّب .. لم يسافر إلى بلاده منذ خمس سنوات .. من حيّ العبان بالعاصمة ..

داود الغول .. فوضوي .. عنيف .. طويل القامة له شعر أسود خشن .. ينفش شعره فوق رأسه كعرف الديكة الرومية ، مفتول العضلات ، يميل إلى السمرة ، عيناه عسليتان وأنفه عالي الشكيمة مذبب ، يشرب كثيراً .. يأكل كثيراً .. يرقص في صخب .. يعيش لليوم فقط .. من عاداته ضرب النساء قبل ممارسة الحب معهن ، يعرف الكثير منهن .. من أتريس .. مات أبوه وأمه في الحرب .. له شقيقة واحدة متزوجة وتقيم في وردان .. يرسل لها النقود حين ترسل في طلبها .. وكان يعمل محاسباً ..

أمّا زينا صديقته فهي واحدة من ثلاث يتسابقن على السهر معه ، تعمل موظفة بأحد البنوك .. طويلة لها وجه الممثلات وعيون

القطط . . خفيفة الحركة . . وعندما يشتد إيقاع الرقص ، يمسكها الغول من وسطها بيديه ، فتدور حوله فى خفة . . كالفراشة حين تطير . .

وفى هذه الليلة ، وبعد منتصف الليل بقليل عدنا إلى البيت . . وتركنا الصحاب يتسامرون حتى الصباح . .

ولما جاء يوم الأحـــد التالى ، وجدنا أنفسنا نذهب إلى بيت جورجيت . . التقينا بالصحبة ، وكما حدث فى ليلة الأحد الفائتة . . حدث الليلة . . ولم نغادر البيت حتى انبلج الصبح ، وفى الثانية شعرت سيلفيا بتعب ، ودخلت لتنام فى فراش جورجيت ، وبعد قليل من الوقت سكتت الموسيقى . . وأودعت الكؤوس ، وفرغت القناني ، وخيم على البيت سكون ، وعبقت فيه رائحة ؛ هى خليط من الدخان والخمر ، وعطر النساء وروائحهن . . وذهبت سيلفيا فى نوم عميق . . حيث شدت الغطاء حتى رأسها ، وعلا منها شخير خفيف . . ونام وحيد وجورجيت شبه عاريين تحت ملاءة ثقيلة بالصالة . . وكذلك أخذ حجازى فرجينا ونامـا فى ركن بالصالة ، وقد تغطيا بغطاء ثقيل . .

وفى منتصف الصالة دوت صفعة على وجه ريتا . . نهرها الغول بقوة ، وفى سرعة البرق ، ولما تأوهت المرأة تركها ، وذهب ليرتمى على أريكة صغيرة فى غرفة الطعام . . وأسرعت إليه ونامت على صدره وكأنها تتوسل . .

هكذا يذهب الرجال بالنساء . . وتوقع النساء الرجال فى ليلة من ليالى الأحد . . الفجور والعطر المسفوح ، ورائحة خليط ، وعرق

مألوف .. ورجال ضيعهم الزمان ، ونساء فى بلادهن غير خاسرات ..
أَلِلنساء لدى حق المطالبة بوقف رحيل الرجال ؟ .. أيحق للنساء أن يكون لهن ثورة خاصة بهن .. ؟

وشعرت بأنه لو كان لدى قليل من النخوة .. لأخذت زوجتى وعدت بها إلى البيت .. ولكنى لم أفعل .. يجب على أن أكون بارداً .. وذهبت إليها فى غرفتها .. وفى عصبية خلعت سروالى وسروالها .. كان فى رأسى حرارة .. وفى عقلى ورم .. كان شيئاً مثل كل يوم .. لكن به نوعاً آخر مما أثاره الآخرون فينا .

.. وبدأنا ندنو .. لكن ما وجدناه فى بيت جورجيت .. كان لذيذاً وممتعاً .. وأخذت أقاوم عادة الذهاب إلى هذا البيت ، وتحدثت مع سيلفيا فى هذا الأمر . غير أنها أعربت عن رفضها لهذه الفكرة .. لأنها نزهتنا الوحيدة كل أسبوع ، إلا أنى استطعت أن أقنعها بعدم الذهاب .. لاننا زوجان ويجب أن نعيش حيـــاة هادئة بين جدران أربع .. ومضى علينا أسبوعان دون أن نذهب الى جورجيت .. وفى ليلة الأحد الثالثة جاءتنا الصحبة ثلاثتهم بنسائهم إلى البيت .. وحملونا إلى بيت السهر .

وفى هـــذه الليلة .. سقط الذى كان واحداً للمرة الثانية .. حيث رقصت سيلفيا وأخذتنى معها أرقص .. وعلمتنى كيف أرقص .. وشربت سيلفيا الخمر فى كأس قدمته جورجيت .

وتوالت ليالى الآحاد .. وفى ليلة بناءاً على رغبة النساء وزوجتى ؛ أن يتبادل الراقصون والراقصات بعضهم البعض فى الرقص .. ورحب

الجميع بالفكرة .. وكان صمتي حزيناً .. ولم أكن قادراً على تحقيق الرقص أو حتى إعلانه . . تهاويت سأراقص نساءاً غير سيلفيا . . أي أنني قد رحبت .. وكان حزني لأن سيلفيا ستراقص غيري .. ادخل إلى الحرية يا رؤوف . . وشعرت بأن أول الحرية الحقيقية هذه الليلة . . الليلة تركبني سيلفيا الزوجة كالحمار بمراقصة رجل غيري .. الحرية أن تركب الزوجة زوجها حماراً .. هكذا تريد النساء ويريد الرجال حين يطمح كلاهما في الحصول على نوع جديد من طعام الآخرين . .

جاءتني جورجيت . . ورقصت سيلفيا مع وحيد ، وفرجينا مع الغول ، وحجازي مع رينا ، بعـــدها رقصت مع فرجينا ورينا . . ورقصت زوجتي مع الجميع .. وفي آخر الليل حدث نوع من الانسجام بين الغول وسيلفيا ، وعند آخر الرقص همس في أذنها قائلا : دعيني أقضي معك بقية الليل .. وسعدت بدعوته وقالت : ألا يكفيك هذا الرقص ؟! فرد الغول مبتسما : ودعينا نذهب إلى المزيد . . أنت أحلاهن . . . .

مالت برأسها في حياء نحو الأرض، ثم رفعت وجهها إليه ،وهدلت من خصلة في شعرها انسدلت على جبهتها . وضربت بقدميها الأرض بعنف .. وشوحت بيديها .. وانهمكا في رقص شديد . . فيه توافقت رغبة كل منهما نحو الآخر . .

واندمجت مع رينا الفراشة الطائرة . . وكان رقصي معها ضعيفاً وكأنها لاعبة أكروبات ، ورقفت كثيراً عن الرقص أتفرج عليها . . وتناولت الكأس بيدها تشرب وهي ترقص ، تتملق بيدها في الهواء..

وتمد الأخرى نحوى تمسكنى ، يرتفع شعرها لأعلى ثم ينسدل .. وكان أحدى ساقيها تراقص الجميع .. والأخرى تعلمنى كيف يكون الرقص.. أما ردفاها وخصرها وصدرها .. فقد داعبوا وطاروا ولوحوا لكل من رقص هذه الليلة فى فينا ..

وقلت لنفسى ، وأنا أجلس على المقعد : كلما تعيش أيها الخريج سترى .. إننى لم أر شيئاً إن هذا قليل من الصخب ..

وانتهى الرقص .. حجازى ووحيد كل يحتضن صاحبته .. أما أنا والغول فكل منا معه امرأة غيره .. رميت الكئوس .. ضربت الكراسى بالأرجل .. ركلت النساء بعضهن البعض ، ونامت ريتا على الأرض وهى تضـــغ رأسها فى حجرى ، ومدت يديها تداعبنى ، ولم أكن منتبها لها .. وكان على العقل أن يلحق صاحبه .. أيجب على رجل مثلى .. حتى ولو كان مغفـــلا أن يترك زوجة مقابل صديقة ؟ .. انتبه يا رؤوف .. كن رجلا فاضلا ..

لم أكن فاضلا .. كان هناك بقية من الفضيلة .. حتى هـذه البقية مترنحة، فكيف تكون فضيلة ؟.. وانتزعت نفسى من أحضان ريتا .. ضممت ملابسى وأزحتها بيدى من طريقى فوقعت على الأرض ، ودخلت الغرفة مندفعا ..ورأيت الغول يضرب بيده على رأس سيلفيا ليوقظها.. ولما رآنى اعتدل .. وحدق فىّ مندهشاً ، وخطوت نحوه وقلت فى صوت عال وأنا أضم قبضتى اليمنى استعداداً للكمه : « اذهب من هنا ...»

انتزع نفسه بسرعة فطارت اللكمة فى الهواء ، ووقف مستجمعا قواه التى خارت من كثرة الشراب وقال : ألم أترك معك امرأة ؟!.

رؤوف : إذهب إليها ألا تسمع ؟

ولم يرد بكلمة واحدة ، وترك الغرفة متثاقل الخطى ، تفحصنى بطرف عينيه ، كمن يسخر منى ، وقال عندما اقترب من الباب « أنت فلاح جلنف ، وبصق على الأرض .. وصفقت الباب خلفه ، وقفلته من الداخل بالمفتاح ، وأخذت سيلفيا فى أحضانى تحت الغطاء ، ورحنا فى سبات عميق .

الانحلال شىء طبيعى ! . ضرورى للحياة ! . الزيف سلوك يومى عادى .. وهذه بيوت المدينة وأحداثها .. وهذا هو مضمون الحياة !.

وكأن كل شىء فى أى مدينة غير فاضل وكل المضامين زيف .. مرت الأيام ، وتصادف أن يكون يوم أحد عيد ميلاد جورجيت ، ونزل وحيد وصديقته لشراء الحلوى والخمور ، من محلات السبت صباحاً ، وفى الظهيرة عرجا علينا . وأبلغانا بهذه المناسبة وذهبا إلى بيتهما ، ونزلت إلى الشارع لألحق محلا لبيع الحلوى ، واشتريت علبة كبيرة لجورجيت ، وعدت لأجد زوجتى أعدت طعام الغداء .

فى كثير من ليالى السبت ننام مبكراً ، استعداداً للسهر ليلة الأحد ، إلا أن أهالى المدينة رجالا ونساءاً .. لا ينامون الليلتين ، يقضون النهار نوماً والليل لهواً .. وهذا دليل على أنى وسيلفيا مازلنا نحبو .

وفى السادسة من مساء يوم الأحد .. كنت وسيلفيا أول من وصل بيت جورجيت ، وقبلت صاحبة البيت زوجتى بحرارة ، وشددت على يدها مهنئاً ، وتبادلنا التحية مع رحيد ، وقعدنا بالصالة أنا ورجل

جورجيت . أما النساء فقد دخلن إلى المطبخ يثرثرن وهن يمددن الطعام .. وبادرني وحيد قائلا : « جاءتني رسالة اليوم »

رؤوف : من كان ؟ .

وحيد : نعم .. من فتاة كنت على علاقة بها أيام الجامعة .

رؤوف : وماذا تريد ؟ .

وحيد : تريد أن تأتي .

رؤوف : من أجلك تأتي ؟ .

وحيد : لا . . تأتي من من أجل العمل . . حيث تريد تجهيز بيت لها وإتفقت مع خطيبها على ذلك .

رؤوف : وماذا أنت فاعل بصدد الرد عليها ؟ .

وحيد : إذا جاءت .. قد تكون الأمور لغير صالحي .

رؤوف : أي أمور . . ؟

وحيد : أنا أعد للزواج من جورجيت ، لأنها الطريق الوحيد للحصول على فيزة الإقامة .. حيث أني استنفذت سنوات الرسوب .

وسكت هنيهة ثم قال : لكني لست مضطراً للزواج منها .. يجب أن أعقد زواجي عليها حيث مضى عليّ في بيتها أكثر من عام ... الزواج منها ضروري .

رؤوف : طالما هناك حب ...

وحيد : دعك من هذه الأناشيد . . هـــذه قضية انتهينا منها في بلادنا .. إنني أتزوج منها لأن هـذا هو الواقع الكبير . . وما الحب

إلا جزء صغير منه .. لا يوجد فى حياتنا أو عشرتنا التى نحياها تحت سقف هذا البيت خيالات أو رومانسيات .. لسنا مضطرين لأن نفعل ذلك .. إننا نتمتع بحياتنا ونعيشها بكل مباهجها وأوساخها .. جورجيت تفعل لى ما تعجز ظروفى وإمكانياتى عن تحقيقه .. وأنا أفعل لها ما تطلبه من رجل .. وأحاول أن أكون أفضل رجل لها .. حاجتى وحاجتها تمثل حياة ، وهذا هو الحب إن جاز أن نسمى ذلك حبا .

رؤوف : لكن الحب له معانى أخرى .

وحيد : معان نظرية .. عاجزة .. كنا نفعلها فى بلادنا .. حب منحوت لا يقدم المرأة أى واقع .. دليل على الفشل .

ووضع ساقاً على الأخرى وتابع يقول بعصبية : نحن أربعة فى بيت .. من الأقوى فينا ؟

رؤوف — الذى له مبادىء وقيم .

ضحك وحيد وقال : ماذا تقول ؟ القوى هو الذى يملك الأرض .. جورجيت أقوانا جميعاً . هى صاحبة البيت وأهل المدينة ..

رؤوف : تريد الزواج بأصحاب الأرض ؟ .

وحيد : هذا هو شاغلى .

رؤوف : ماذا ستفعل بشأن صاحبة الرسالة ؟

وحيد : الرجال من المصريين يذهبون إلى نساء من أهل المدينة لحل مشاكلهم ، وهذه الفتاة لن تفيد رجلا واحداً منهم .. فلن تكون هى مناسبة لرجل مصرى .. من السهولة تدبير العمل وليس من السهولة تدبير السكن .

مضى بعض الوقت .. حيث ساد الصمت بين رؤوف ووحيد .. وأخذت المرأتان تعدان الطعام والعصائر والشراب والحلوى على المنضدة المعدة لذلك .. وهل بقية الصحب .. الغول وحجازى وفرجينا وريتا وحمل كل منهم هديته لجورجيت .. وتولى حجازى الحديث بصوت عال .. كيف مشوا من شارع الجيرتل حتى وصلوا ، والمطر يهطل فوق رؤوسهم ؟.. بينما لم ينبس الغول ببنت شفة ، وكان يحدق فى رؤوف من حين لآخر ، وبدت على وجهه وعينيه علامات احتقان وتجهم كمن شرب كثيرا ونام طويلا .. واشتركت جميع النساء فى إعداد وترتيب الأطباق بالطاولة .. وبدا عليهن جميعاً أمارات البهجة والسرور .

ودعت جورجيت الجميـــع بصوت عال قائلة « هيا للطعام » جلس الرجال فى صف واحد .. بينما اتخذت النسوة الجانب الآخر ، ولأول مرة منذ قدومى فينا .. أرى طعاماً وحلوى بهذه الكمية .. وأكل الرجال بشراهة فى صمت ، بينما ثرثرت النسوة كثيراً وهزرن .. ولما فرغنا من طعامنا وانفضت المائدة عما عليها .. عملت فرجينا الشاى .. وأحضرته على صينية كبيرة .. فى أكواب متوســـطة من زجاج لامع ، وأدارت ريتا اســـطوانة لموسيقى صاخبة ، وأحضرت جورجيت الشموع يتوسطها هرم من الحلوى .. أما سيلفيا فقد لاذت بجانبى .. تضع رأسها على كتفى ، وأشعلت سيجارة أخذت تدخنها فى شراهة ، وبدأ واحد بعد الآخر يخلع ثيابه الثقيلة .. ويلقى بها على الأرض أو مقعد أو .. وسرت نار المدفأة فى البيت .. وملأ دخان السجاير أرجاء الشقة .. ناهيك عن تأوهات النساء الحارة ،

وعروق الرجال المنتفخة بالحرارة تتصبب عرقاً . ورموا أحذيتهم ..
وبدأت أولى جولات الرقص .. الغول مع فرجينا صاحبة حجازى ..
وحجازى مع ريتا بطلة الرقص .. واستأذنني وحيد وأخذ سيلفيا ..
ولم يبق غير جورجيت التى انشغلت بعض الوقت فى تنظيف البيت ،
وتلاعب الغول بحركة فأوقع فرجينا على الأرض ، وقامت وضربته
على صدره ، وحجازى يرقص فى بطء ، ولفت حوله ريتا ودارت ..
وما هى إلا دقائق ؛ حتى جلس على الأرض .. فاستلقت بجانبه وأخذا
يتحادثان .. أما سيلفيا فقد ذهبت مع وحيد ترقص فى رقة ..
اليد باليد .. الخد بالخد .. الساق بالساق .. وجاءتنى جورجيت
وضربتنى على ظهرى وقالت : ألا تشرب فى ليلة ميلادى ؟ ..

رؤوف : أكلت كثيراً وهذا يكفى ..

جورجيت : الكأس ضرورية .. كأس واحدة ..

رؤوف : معذرة .. شربت كأساً من الشاى ..

وجلست بجانبه على المقعد ، وأخذت تعبث بأصابعها فى شعر رأسه ،
وقالت : لماذا أراك حزيناً .. شريد الذهن ؟ .. افتح لى قلبك ..

رؤوف : حزين على موت صديق لى .. وشريد الذهن لأنى أفكر
فى أمى ..

جورجيت : وقلبك ؟ ..

رؤوف . أليست لغة القلب لغة قديمة .. ؟

جورجيت : من حق استخدام لغات كل العهود لأعرف ما فى قلبك ..

رؤوف : قلبى مع هذه المرأة .. (وأشار بأصبعه إلى سيلفيا) ..

جورجيت : لا توجد امرأة هنا تستحق قلب رجل . .

رؤوف : حتى أنت ؟ ..

جورجيت : حتى أنا . .

رؤوف : لماذا إذن تبحثين عن ما فى قلوب الناس ؟ ..

جورجيت : لأصل إليهم . .

رؤوف : وهل وصلت إلى وحيد ؟ . .

جورجيت : وصلت إليه .. ولم أصل إلى قلبه . . ومنذ وقت وأنا أضجر من رقته المتناهية .. لكن أريده كرجل ضرورى فى حياتى ..

رؤوف : ما هى ضرورته ؟ . .

جورجيت : رجل يجد فى حياته معى ضرورة وأنا أشاركه فى ذلك .. لكن ماهى هذه الضرورة بالضبط ؟ .. سأبحث عنها ..

رؤوف : إلى كم نوع من الرجال تتوقين ؟ . .

جورجيت : نوعين حتى الآن .. وأمسكت بيدى قائلة : تعال نرقص .

أخذتها بين ذراعى وجذبتها نحوى بعنف ، وقبلتها فى وجهها كثيراً ثم فى فمها ، ولاذت بجسدها فى جسدى ، وفاحت رائحة الخمر من تهدجاتها .

ورقصت المرأة فى ثمالة ، وأصبحت ثقيلة بين ذراعى ، وهربت كل أفكارى من رأسى ، حتى قلبى ولغاته القديمة ترنحت ، وأطفئت الأنوار إلا واحداً منها يشع نوراً خافتاً ، وشدتنى المرأة إلى الغرفة الصغيرة وذهبت فى لحظة ، وأتت تمسك ملاءة ، وخلف الطاولة افترشنا الأرض ، ووضعت فوق الشرشف ، ودلفت بجانبى ولاذ كل منا بالآخر . .

هو تكلم الجسد لامرأة ثالثة، وتثقف من امرأة ملء هذه المدينة فى عيد ميلادها . .

أين سوزى ؟ .. أين سيلفيا ؟ .. أين جورجيت ؟.. امرأة تسلمنى لامرأة .. من ستكون المرأة الرابعة ؟ . .

وبعد هذه الليلة ، أدركت أنه لا مكان للفضيلة عند أى رجل ، وعند أى امرأة . . وازداد ضياعى وشرودى ، ولازمنى الوهم . . أنا الذى تمسكت به ، هواية فى البحث عن شىء حقيقى يعيدنى إلى ما كنت عليه . . فبعدت عن الواقع الحقيقى . . وكنت أدعو إلى الفضيلة بين زملائى باعة الجرائد ، وكانوا يصدقوننى ويعتقدون فى أنى رجل طيب . . لأنى فى حديثى معهم ، كنت أمس الرذيلة التى يعيشونها وأقول لهم : كيف نخرج منها إلى الفضيلة ، لكن المشكلة أننا كنا جميعا نبحث عن المال . . فكيف نترك الرذيلة لنذهب إلى الفضيلة ؟ . . المال والنساء والمدن الصاخبة دائرة الحياة اليومية العادية . للجزء الكبير من تصرفات مجتمع وإفرازات الناس الذين يعيشون فيه . . ولم تكن الفضيلة يوماً ما دائرة حياة يومية عادية . .

وأغرب ما شعرت به بعد ذلك . . هو جروحى لأن أخوض أعمق التجارب الإنسانية فى هذا المجتمع . .

ولم يبق بينى وبين سيلفيا إلا أننا زوجان . . سيلفيا مثل نساء المدينة . . وأنا لست زوجاً . . وكان علىّ أن أدرك أن أبواب البيوت مهددة بحرية هذه المدينة . . اعتدى على بيتى . . وأنا اعتديتُ على بيت الآخرين . . وبدلا من أن أبتعد عنها وأهجرها . .

مارست معها الجنس بشراهة وعنف وقسوة .. ظللنا على هذا الحال لمدة أسبوع . . ولم ينبس كلانا بكلمة عتاب للآخر عما حدث تلك الليلة ،وفى ليلة لازمنى شعور بقتلها .. وتذكرت حادثة مصطفى عجور.. وأمسكت بتلابيب نفسى وهدأت من روعى . . وأيقظتها من النوم طالباً منها أن تنتقل إلى غرفتها .. وقامت إلى غرفتها ، وقفلت بابى من الداخل ونمت هذه الليلة هادئاً .. ومنذ هذه الليلة انقطعت صلتى بسيلفيا ، ولم تعد تأتى لتنام فى البيت ، وسألت وحيداً مرة عنها ، فأخبرنى أنها عند الغول . . ومر يومان حزنت فيهما حزناً مفرطاً .. ليس الحزن على نفسى وحدها أو سيلفيا . . بل على الضياع والزيف والبوهيمية . . واستطعت أن أضع حداً للعنف الذى بات يمربد فى داخلى، انطويت على نفسى وانقطعت عن الشلة .. حتى عن وحيد فى العمل . .

ولما كان زواجى لم تعمل له مراسيم كنسية ، ولم يكن لأية جهة رسمية هنا علم به ، فقابلت وحيداً وحجازياً .. وعرضت عليهما عقد الزواج .. ومزقته أمامهما .. وقمت بتطليقها.. وأوصيت الاثنين بنقل ما حدث إلى سيلفيا وبأن طلاقى لها نهائى .. وأنها لم تعد زوجتى بعد اليوم .. وفعلا ذلك حيث أبلغاها فى نفس اليوم مساءاً عند الغول ..

وفى صباح أحد الأيام . . بان على عينى ورم كأن نحلة لدغتنى ، ورأيت بصعوبة ،وتأملت أحداثى بعمق .. وبعد أسبوع من هذا اليوم لم أصل إلى شىء ، وكأن أحداث الحياة لا تستحق التأمل ، إنها جميعا تؤدى إلى الزيف ، وحتى لا يتعب الإنسان من نتيجة التأمل ، عليه أن يتأمل قليلا . .

وفى الرابعة من صباح أحد أيام الأحد .. ترك رؤوف البيت إلى الشارع .. كان يريد أن يغسل ندى الفجر رأسه ووجهه ، فى محاولة لليقظة أو بدء حياة جديدة ، ومشى فى الشوارع الخالية الصامتة البيضاء ، وقال لنفسه : من يريد أن يغتسل يأتى معى .. وتكلم كثيراً مع نفسه ، ولم يسمعه أحد . وسار حتى بيت جورجيت .. وعند البيت توقف .. كان البيت يحيطه سياج قصير من الطوب الأحمر الكالح دلالة على قدمه ، وفى داخله حديقة غير معتنى بها .. تناثر العشب الأخضر فيها دون انتظام ، وأخذته خطواته إلى الداخل ، وجلس على قطعة خشبية استخدمت كمقعد عند الباب الداخلى ، وانتظر حتى ينزل أحد من الشلة .. كان يريد أن يرى من ينزل أولا .. مجرد أن يرى عالمه القديم ، ولما تذكر سيلفيا والغول .. لم يشعر بأى حقد أو كراهية نحوهما .. ولا أى نوع من الشعور .. فأحس بالفرحة .. وتذكر جورجيت .. فألمت به نفس الفرحة ، وكان عليه أن يعود تاركا وراءه عالما قديماً لا يذكر منه شيئاً ، وشعر ببعض التعب وعند أول منعطف على اليسار .. صاح بأعلى صوته : آه .. آه .. واستمر فى المشى ، وضحك بصوت أعلى .. ها .. ها .. ها .. وضرب بقدمه الأرض بعنف مرتين وثلاثا ، وفى الرابعة قذف برجله اليمنى قنينة فارغة .. فتطايرت لتتهشم على رصيف الترام .. وتناثرت قطعاً بلورية صغيرة .. أحدثت رجة فى الشارع .. ومن حى لآخر وصل فينا الحى الأول .. واتجه إلى شارع جوزيف ، وعند مبنى البلدية انبلج الصبح .. ودلف إلى بناية بيته ..

وصعد الدرج مهدود القوى ، ورمى بنفسه فوق فراشه دون أن يخلع حذاءه . . وشد المخدة فوق رأسه ، لحظتها أيقن أن ماما ماريا أفضل نساء هذه المدينة .. وهنا راح فى نوم عميق .

وفى ليلة شديدة البرودة . . أظلمت السماء فيها ، اشتدت الرياح وعوت كالمسعورة ، حجب الضباب النجوم وقتل القمر ، مشى السحاب متثاقلا يحمل فى طياته غزير المطر ، حتى أنوار الشوارع خافتة ، كأن يداً نزلت فخفتت الضياء ، خلت الطرقات من الفتية والفتيات ، وبان فى الأفق غبار ، ولما زعقت الرياح بقوة .. انتفلت بحدة صفيرها من شارع إلى ميدان ، حتى المركبات المقفلة بإحكام دخلتها الرياح ، فاذا مرت عربة أو ترام حيا قائدها أى إنس أو جان وجده فى شارع هذا الليل المهان ، سرت فى أوصالى رعدة وبدأت أخاف ، وسالت الدموع من عينى تنهمر بغير انقطاع ، ولمـــا وضعت كف يدى اليمنى على صدرى .. رق قلبى وتشنج ورحت فى بكاء شديد . . مثل نحيب كلب صغير تركته أمه دون رضاعة ، ولم أفق .. ولا أعرف كم مضى من الوقت . . وفجأة وجدت يداً تمسكنى من الخلف ، فدق قلبى هلعاً . . وشهقت بصوت عال . . وتبعثرت جرائدى على الأرض .. واندفعت إلى الأمام خطوة أو خطوتين كنت أثب فيهما لأعلى ، ولما عدت لأقف من جديد كانت اليد مازالت تتشبث بى ، والخوف يهبط ويعلو ويخفق معى . . رأيت رجلا صغيراً لم أره من قبل . . يمد يده اليمنى مسدساً مصوباً على رقبتى .. وكان يتفوه بكلمات سريعة صارخة لم أفهمها ، ويبدو أن الصفير الحاد حدد مدلول كلماته .. ولكنى فى لحظة اندفعت

نحوه قائلا وأنا أضع يدى فوق رأسى وأنحنى إلى الأمام :

فاروم .. فاروم ؟ . . (لماذا ؟ . .)

ولم يرد بكلمة واحـــدة . . بل ازداد عنفا وبدأ يركلنى بقدمه ، وتمكنت من السيطرة على قبضة يده التى يمسك بها المسدس .. ودخلت إلى صدره كأنى ألوذ به .. ونجحت فى جعل فوهة النار بعيدة عن جسدى ، ونزلت النار . . طلقة . . طلقتين .. ثلاثاً تحفر الأرض بين قدمى . . بعدها لم أر إلا ضباباً .. ولما كنت أمرق بأصابعى فى قبضة يده وقع المسدس على الأرض ، فأبعدته بقدمى كمن يركل كرة بقوة ، وأمسكنى بيديه من قفاى .. وحاول خنقى من الخلف ، واستمر وقتا يحاول وأنا أقارم يديه . . وجذب رأسى إلى الوراء وضرب عليها بجسم صلب ، وترنحت مرة ومرتين وسقطت على الأرض . . وعلت صرختان منى ملأنا المكان . . وفى ضعف ووهن جال بصرى إلى دم يكسو جاكت العمل ، ولما مسحت وجهى بيدى ووضعت الأخرى على رأسى كانت اليدان تضخان دما غزيراً قاتماً .. وتقدمت إحدى اليدين تحمل الدم نحو وجهه وكأنى أقول له : بالله عليك اتركنى عند هذا الحد .

وفى اليوم التالى .. بينما عقارب الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحاً ، وجد رؤوف نفسه فى غرفة صغيرة بمستشفى حى السمرنج ، وقام من فراشه فزعا ، ثم عاد إلى نومه .. كأن الألم فى رأسه لا يساعده على النهوض ، ونام على بطنه وأمسك رأسه بيده اليمنى ، ولاذ بعينيه إلى الأرض وأخذه النوم .. سنة من النوم .. واستيقظ بعدها رويداً رويداً . . فوجد لفافة كبيرة على رأسه .. تهنك جلد الرأس وضربة

مؤثرة فى عظمة المؤخرة . . وتمت خياطة الجمجمة بواسطة طبيب وممرضته النوبتجية ، وحقنوه إبرتين . وأخذ يتساءل من الذى أتى به إلى هنا . . فلم يتذكر شيئاً ، ونام على ظهره وتعلقت عيناه بسقف الغرفة ومرت به الممرضة قائلة :

— فى جيتس ؟ .. (كيف حالك) . .

فرد عليها : « حسن » . قالها بطرف عينيه . .

ووقفت عند مؤخرة فراشه . . تأملته وقد ارتسم على محياها علامات الرقة والشفقة . . وقال لها بصوت واهن : من الذين أتى بى إلى هنا ؟

الممرضة : البوليس . وأشار بيده إلى رأسه وقال : من فعل هذا ؟ . .

الممرضة : أحد الأشقياء .

رؤوف : أمسكوا به ؟ . .

المرضة : حين كان يلوذ بالفرار

رؤوف : أين جاكت العمل والنقود ؟

الممرضة : كل شىء موجود . . لا تتكلم كثيراً . . كفى حتى يتم التئام الجرح . .

هز رؤوف رأسه دلالة على الشعور بالامتنان . . وخرجت الممرضة للمرور على باقى النزلاء ، ولازمنى شعور بأننى أريد أن أصرخ . . أصرخ من شدة العنف . . وأصرخ لنزول الرحمة مع العنف . . لن تتحملنى هذه المدينة كى أصرخ . . ولو ذهبت إلى مدينتى فلن تسمح لى بالصراخ . . لقد زادت رقعة أحزانى واتسعت إنسانيتى . . وإن عمق

هذه الإنسانية فى أحزانى عليها .. ومرت على ممرضة أخرى بعد منتصف النهار .. قامت بتغيير الماء وإعطائى بعض الحساء .. ولما جاء الليل جاءتنى ممرضة ثالثة .. ناولتنى كوب ليمون .. وآخر عصيراً .. وحقنتنى حقنة كبيرة ومشيت . . وفى الصباح جاءنى أحد الأطباء . . ووضع ترمومتر الحرارة فى فمى .. واطلع على درجة الحرارة ولامس وجهى مداعباً ومشى .. وقبل الظهر جاءتنى الممرضة الأولى بالغذاء .. وأطعمتنى لقمة بالخضار وملعقة شوربة وقطعة لحم .. حتى نفذ الطعـــام الذى أحضرته . . وانصرفت . . وقالت إنها ستحضر فى المساء . . ومضى وقت النهار بين النوم واليقظة .. فيه ذهبت مرة واحدة إلى دورة المياه بنفس الغرفة ، وفى المساء حيث كان الوقت الثامنة .. حضرت الممرضة وجلست عند رأسى ودار بيننا الحديث التالى :

الممرضة : من أى بلد أتيت ؟ ..

رؤوف : كان .

الممرضة : لماذا أتيت ؟

رؤوف : من أجل أمى

الممرضة : أمك هنا ؟ . .

رؤوف : لا .. إنى أمزح . .

الممرضة : أجبنى .. لماذا أتيت ؟ . .

رؤوف : لماذا أتيت أنت ؟

الممرضة : لأعمل

رؤوف : وأنا أيضا .. أمك هنا ؟ ..

الممرضة : أمى فى الضواحى .. أعيش مع جدتى فى فينا .. توفيت هذه الجدة منذ شهرين .. أعيش وحدى دون هذه الجدة الغالية ..

واستطردت بعد أن سادت فترة صمت :

ـــ بعد موت جدتى أشعر بالغربة حين تطأ قدماى أرض الشارع .. وإن أسعد أوقاتى فى الصباح والمساء وقت عملى بالمستشفى .. بعد أن كان البيت كل سعادتى لأنى مع الجدة ..

رؤوف : ألجدتك بيت كبير .. ؟

الممرضة : منزل صغير فى فينا الحى السادس عشر .. حيث يقطن غالبية أهل فينا الكادحين .. منزل له حديقة صغيرة وسور وباب صنعا من الخشب .. حوله عدد من الأشجار .. يتسلق جدرانه من كل جانب نبات أخضر له ورق عريض .. يوحى إليك من الخارج أنه غابة صغيرة ...

رؤوف : منذ متى تأهلين فينا ؟

الممرضة : منذ سنين طويلة .. أذهب خلال الأجازات لزيارة أمى ..

رؤوف : وأين يعيش والدك .. ؟

الممرضة : مات من عشر سنين .. مات من صعوبة عمله فى عملة السكة الحديد بالقرية .. وكان يعانى من مرض فى صدره .. فمات صغير السن وأنا فى الثالثة عشرة .. وبسرعة أحضرتنى أمى إلى جدتى .. حيث واصلت تعليمى ودخلت مدرسة الممرضات ..

رؤوف : لم لا تأتى أمك وتعيش معك ؟ ..

الممرضة : تزوجت من رجل يملك محلا لبيع السجق والهمبوجر .. تزوجت منه بعد وفاة أبي بعام واحد . .

رؤوف : هذا حقها .

الممرضة : حقها .. (قالتها بانفعال) ..

وسكتت هنيهة وقالت :

— كان عليها أن تتزوج في بيته لا في بيت أبي . .

رؤوف : لا يضير إن كان بيته أو بيت أمك ..

الممرضة : بيت أبي وليس بيت أمي . .

رؤوف : ألا تحبين زوج أمك ؟

الممرضة : إني أكره أمي فكيف أحب زوجها .. ؟!

رؤوف : كثيراً ما لا يملك الرجل بيتاً يتزوج فيه . . إن كثيرا من الرجال عندنا يعيشون عن امرأة لها بيت ، وإن وجدت هذه المرأة فإنها تبيع وتشتري في الرجل وكأنه يعمل عندها خادماً .. عموماً في بلادنا لا تجدين بيتاً ولا امرأة لها بيت . . لكنك تجدين رجالا كثيرين يهيمون على وجوههم في الشوارع بلا عمل . .

قامت الفتاة قائلة : سأتركك الآن . . تكلمت معك بما فيه الكفاية . .

رؤوف : متى تأتين ؟

الفتاة : بعد غد .. في الصباح .. وقد تغادر المستشفى في نفس اليوم ..

رؤوف : إلى أين ؟ ..

الفتاة : إلى بيتك

رؤوف : ليس لى بيت

وضحكت بصوت عال وقالت : أسُّو !.. (ياه) .

وافتربت وهى تقول : ما اسمك ؟

— رؤوف

— ديانا . .

وضحكت ثانية ومشت إلى باب الغرفة وقالت مداعبة : سأبحث لك عن امرأة لها بيت .

غمرنى شعور بالغبطة والسرور ، ونمت نوماً هانئاً . لم أنعم منذ وقت طويل .. ولما استيقظت فى الهزيع الأخير من الليل . . بدأت أفيق على حدثى .. ترى لماذا كان يريد هذا الرجل قتلى ؟.. من هو هذا الرجل ؟ .. يجب أن أترك عملى بالجريدة وهذا المكان .. لأننى سأموت فى مرة قادمة .. ليتنى أذهب إلى ديانا وأعيش فى بيتها . . أنا فى حاجة إلى هيزة إقامة .. لأنى استنفذت مرات الرسوب ، وهى ثلاث سنوات ، فى مدرسة تعلم الألمانية .. وحصلت على عام رابع بعد دفع مبلغ من المال .. وإننى فى حاجة إلى امرأة فينوية .. أتخذها زوجة .. لتنتهى .. مشاكل الإقامة إلى الأبد . ومرت فكرة العودة إلى كايرو برأسى . . لكنها لم تلبث طويلا . . كان الحديث مع هذه الفتاة وبيتها والهيزه يشدنى أكثر .. لو كنت قروياً حقيقيا عاش فى قريته « شنشور » . . مدة أربعة عشر عاماً لرجعت إلى قريتى مسقط رأسى ، ولو كنت من العاصمة عشت فيها خمسة عشر عاماً لعدت إليها . . حقاً إنها قاهرتى . . ولو كنت من مدينة الساحل عشت فيها ثلاثة أعوام .. لحزمت أمتعتى

عدت إلى شواطىء هذه المدينة . . التى طالما قضيت فيها أجمل أيام عمرى .. فى ليل الصيف بشاطىء الساحل الكبير ..

لم ينتصر طريق واحد من ثلاثة.. وانتصرت أنا.. أغانيتى.. انتصرت مدينة فينا لأنها الحاضر .. لأنها سوزى .. وسيلفيا .. وديانا .. لأنها المال . . والصخب والطعام . . أنا الآن فينوى . . يا لها من أصالة . . أصالة رقيقة هشة .. إن المرأة والمال والطعام الوفير .. والبيت جعلوا طريق الحياة ناعماً أملس . . تنافس فيه الناس جميعاً . . وانغمسوا فى كل أركانه .. دون ملل ..

وفى اليوم التالى . . أخرجنى الطبيب المعالج . . قبل الموعد الذى حددته ديانا .. وتركت عنوانى لديانا عند سكرتيرة المستشفى، واسترحت يومين فى البيت ، وفى اليوم الثالث ذهبت لمبنى الجريدة لتصفية حسابى، واستغرقت عملية إنهاء عملى بالجريدة يومين . . وقال الشيف هيرست وهو يسلمنى شيك التأمين : لن يعتدى عليك أحد مرة ثانية ...

— وكيف أضمن هذا يا شيف ؟

— فتح درج مكتبه وأخرج جورنال الكرونا .. قلب فيه صفحة بعد أخرى .. وقدم لى الجريدة قائلا : هذا هو الرجل .. أتذكره ؟ ،

وجدت صورة لرجل صغير كما ذكرت لا يتجاوز خمسة وعشرين عاماً يقتاده إثنان من رجال البوليس . . المكان ناصية الكوبالجا نفس الساعة من الليل التى حدث فيها الاعتداء . .

— لماذا كان يريد قتلى يا شيف ؟ ..

الشيف : أربع سنوات ولا تستطيع قراءة جريدة أنت تبيعها !؟

رؤوف : معذرة.. إنى أتكلم اللهجة فقط لكنى ضعيف فى اللغة ..

الشيف : هذا الرجل اعتدى عليك لأنك أردت سرقة فتاته ..

رؤوف : أنا ؟ . كيف ؟ !

الشيف : أثناء التحقيق قال إن بائع الجرائد هذا عند الكوبالجا اعتديت عليه لأن فتاتى بدأت تميل إليه . .

رؤوف : إننى لم أصادق فتاة من السمرنج كله . . لكن أحادثهن فقط . .

الشيف : يبدو أنه اكتشف ذلك منها هى .. وعلى العموم .. كان غريب الأطوار ، وفى الليلة السابقة على حادثتك سرق أحد البنوك .. وصافحت السيد هيرست مودعاً . .

وبعد يومين استدعانى البوليس العام للتحقيق حول الحادث . .

رجل البوليس : لن يطول وقتنا معك . . هل تعرف الرجل الذى فاجأك ليلتها ؟

رؤوف : لم أره من قبل . .

الرجل : قال إن فتاته تعرفك . .

رؤوف : أعرف كثيراً . . إنهن زبائن فقط . . ولم أقض وقتاً مع أية واحدة منهن . .

الرجل : هيه . . (وأخذ يكتب فى ورقة أمامه . . ولما فرغ من كتابته قال :) لا شىء عليك .. لقد تحرّينا عنك .. وما يهمنا معرفة حقائق أكثر ودلّتنا التحريات أنه اعتدى عليك قبل ذلك فى حديقة ..

رؤوف : نعم فى أول مجيئى . .

الرجل : نعتذر عن اعتداءاتنا المتكررة ..

رؤوف : لا شيء ..

الرجل : لو كنت تعمل بصفة دائمة .. لألزم القضاء إدارة الجريدة بدفع تعويض لك .. لكن باعة الجرائد جميعهم مؤقتون ..

رؤوف : شكراً يا سيدى .. لا يهم ..

وخرجت من مبنى البوليس العام .. وأنا أشعر أننى خائر القوى .. وأقول لنفسى : كفى .. عند هذا الحد يكفى .. وفى البيت نمت ثلاثة أيام متتالية .. لم أر فيها الشارع ، وتحدثت فيها بعض أوقات النهار مع ماما ماريا ، وفى نهاية اليوم الثالث كرهت خزينة الطعام ..

وفى مساء اليوم الأخير .. حكيت لماما كل أحداثى مع سيلفيا وجورجيت وشلة الأحد .. وعن الحادثة الأخيرة .. ولما بكيت على أحداثى بكته السيدة معى وذرفت كثيراً من الدمع ، وتركتنى بعد ساعة ونيف وهى تربت على ظهرى ، وقمت برأس تستسلم للرقاد ثانية .. ووقفت لحظة جامداً لا أريم ، ثم قعدت على الكرسى ، وأجلت بطرفى إلى النافذة ، وجدت العتمة قد شرعت تهبط ، وساخت وقتاً طويلا قلقاً أختنق من شدة الظلام ، ونقرت ماما الباب ، ودخلت تحمل صينية صغيرة .. عليها فنجان شاى وقطعتا جاتوه .. وأخرجت ورقة من جيبها قائلة : خذ .. هذه ورقتك .. اقرأها .. تاملها ملياً .. لا تعبأ بأحداث الحياة .. كتبتها فى التو .. كما كنا نفعل بالكنيسة .. نكتب رسائل إلى كل سكان المدينة مترجمة إلى كل

اللغات ، من أجل تنبيه الناس عن الغفلة .. أو لمقاومة الانحراف، ثم قالت وهي تخرج : سأذهب لأنام . . أراك في الصباح سعيداً بحق الرب ..

. . وأومأت برأسي لماريا . . . وابتسمت وتثاءبت تثاؤبة عريضة . . وأوصدت الباب خلفها .. وفتحت الورقة لأقرأ ما كتبته على طريقة الشعر المنثور :

تفتحي أيتها الزوجة على الرجال !
رجلك لا يكفي لملء حياتك !
خوني هذا الزواج أمام عينيه .
الأزواج مترددون وجبناء.
رجال يحبون التجربة .
يجب على الزوج أن يرى ويصمت.
حطمي أيتها المرأة جدار الرجل . .
جدار الرجل الهش .
ليصبحوا جميعاً مكتوفي الأيدي .
ليالي فينا هي ليالي كل المدن .
هذا العالم أباح هذا الحب .
دعي الرجل يراك واستمري .
إلى أن يفيق .
أن يفيق .
وتذهب النساء في كل الطرقات..

من تدفع ؟.. من القوى ؟..
السفيه ؟.. الكريه ؟.. الجاهل ؟..
القوى مادياً هو كل هؤلاء .
هذه الدنيا بزيفها الجديد .
لا تقلق لا تبالى .
هذا هو الحب يملأ الحياة .

« ماريا »

قرأتها مرة ومرتين وطويتها ، ثم وضعتها مع الورق الذى أحتفظ به ، وأدركت أن الكنيسة تقوم بهذا الدور لغرض الإصلاح ومقاومة الفساد ، وعلمت فى حديث مع الشلة أن هناك ناسا آخرين خارج الكنيسة يقومون بذلك ، ونزلت من سريرى وجثوت على ركبتى ، وظل رأسى دفيناً بين يدى لمدة طويلة ، ودارت رأسى وشعرت بإغماءة خفيفة .. ثم أخذتنى على نحو موصول ، واستطعت أن أقف على قدمى بعد مدة فى غير ما عناء ، وذهبت إلى فراشى دون أن أحمل أدنى فكرة فى رأسى ، وسلخت وقتاً طويلا نائماً ، وأخذت نوبات من القلق والتوتر تنتابنى ، ورفعت بصرى إلى سقف الغرفة حزونا ، وتركنى العناء لحظة غرقت فى النوم .

ومع الأيام التى نظن أنها طويلة .. لأننا نعيش فى نهارها المعاناة والألم .. تمر مهما كان امتدادها .. تطوينا أطرافها .. وتشدنا أعمدتها المصنوعة من الحديد .. وتلوى أذرعنا أحياناً أخرى .. وتلوح الوجوه فى مرآة التاريخ لهذه الأيام .. وكأنها الأفق الساكن فوق

رؤوسنا الممتلئة بالوهم والطموح ، والغريب أن ما يشدنى لأن أكون شيئاً هو وجوه النساء .. وأولهن وجه أمى .. إن وجه هذه الأم يجعلنى أثبت على الأرض فى سكون وهدوء لا نهائى .. إن العالم كله يروق لى، لأنى فى الليل أتطلع إلى سماء الله فلا أجد غير السعة ، لكننى فى النهار أهرب من الناس .. لأنه لم يعد فيهم شىء واحد خالص .. هل عمت الفوضى الحياة ؟ !

ولم أنم .. ومر الهزيع الأول من الليل، بعدها خرجت إلى الشارع أهيم على وجهى ، أحاول إيجاد وسيلة للاستقرار فى فينا أو الرحيل .. لكن إلى أى بلد أرحل ؟.. واجتزت كثيراً من المقاهى والحوانيت التى ما زالت عامرة بروادها ، ونزلت إلى نفق الأديان لأصعد من الجهة الثانية للشارع ، وقصدت الحديقة المواجهة لمبنى البرلمان ، وارتميت على أول مقعد قابلنى ، ومن كثرة الأفكار التى تدور برأسى .. امتلأ وجهى واستعاد سيماء المملوءة بالقلق والتوتر .

ولم يمر وقت طويل .. حتى ذهب رؤوف فى النوم .. ورأى فى منامه .. أن والده يرتدى طربوشاً بلون أحمـــر لف بشال أبيض ، وجلباب رمادى جـــديد طويل ، يمسك فانوساً بيده اليمنى ، ويحمل باليسرى شادوف سافيـــة ، يدور الرجل فى مدار الثوار الذى يجر الناعورة .. والماء ينزل غزيراً من عيون الساقية إلى مجرى واسع .. حيث ينساب إلى أرض مترامية الأطراف ،وآلمه أن يتحمل والده كل هذا العناء فقال له : ألا توجد بقرة يا أبى؟

ابتسم الرجل له .. ولم ينطق بابنت شفة . .

رؤوف : لماذا تتحمل هذه المشقة ؟

ورد عليه والده بغضب شديد : الأرض أرضى والساقية ساقيتى . .

وتابع قائلا وهو يدور فى الناعورة : من أين آتى بالبقرة . . باعتها أمك من أجلك . . أربع سنوات وأنت فيها كالثور تجوب أرض مدينة ساطعة لامعة .. قل لى ماذا جنيت ؟ .. أنا أعرفك يا بنى .. لن تعود إلى أمك .. وإن عدت فلن تعود سالماً ...

بعدها سبات عينا الرجل جافلة نحو الأرض، ودار الرجل فى الساقية مرتين ثم اختفى ..

. . صحوت فزعاً على دقات ساعة البرلمان تعلن الواحدة .. ووجدت صعوبة بالغة فى الانتقال من الرؤيا إلى حديقة فينا ، ليتنى أمسكت به، وشعرت بأننى فقدت شيئاً .. لا يمكن تعويضه ، ولو كان هناك بقية صدق لذهبت غدا إلى قريتى ... وعدت إلى نفسى قليـــلا .. أتلمس بأصابعى مؤخرة رأسى المصاب ، وقمت أرتقى درجات سلم صغير ، وقفت على تبة تعلو أرض الحديقة فى مستوى بعض الأشجار الصغيرة، وسلخت وقتاً طويلا أتسكع على قمة التبة ، وراودتنى رغبة أن أمسك بالمدينة وأهلها فى قبضة يدى ، وغارت ذقنى فى أعلى صدرى ، وكنت غيظى من نفسى لعدم قدرتى تحقيق ذلك ، وجحظت عيناى وتفرست المدينة حولى.. كانت الأضواء تنزل خافتة عبر أوراق الشجر وفروعه، بسطت الأرض بنور ظليل ينام على جنادل الحديقة .. التى ترعرعت جنباتها بالخضرة والورد ، وأسقط المنظار الخلاب على نفسى بعض

الهدوء .. لكنى أدرك أن ذلك لن يستمر .. وسكن الليل .. وهبط من السماء شجرة كبير طائر كبير ، نقر الأرض مرتين ، واف حولى ثلاثاً ثم طار إلى أعلى ، وخفيف أقدام تمشى على الرصيف المجاور لسياج الحديقة ، وسمعت همهمة بعض المارة .. بعد ذلك ساد الصمت .. صمتى .. وصمت المدينة .. ولم أعد أسمع غير خشخشة أوراق الشجر .. ولم أهتد إلى قرار يخلصنى من معاناتى .. وأوصلنى حزنى وصمتى وأنانية لازمتنى كثيراً . إلى أننى غير قادر على أن أعود إلى بيت ماما ماريا .. هل غابت إرادتى مع هذه الحرية ؟ .. وحاولت قبض زمام انهيار فى داخلى ، فجلست بأرض الغبة ، وحملتى خليط من اليأس والاستسلام كأنه الهزيمة .. لتعدد الخيارات فى رأسى ، إن رائحة هذه المدينة ليست رائحة تعودتها .. إنى أحب وأعشق رائحة الزرائب فى قريتى حيث ولدت على إحدى المصاطب .. إن رائحة قاعة الشتاء فى بيتنا القديم .. أقوى وأذكى من رائحة نساء هذه المدينة ، إن أنفاس الغنم والبقر والجاموس كانت تدفئنى ، وأنام من النوم العميق حين يمتلىء أنفى الكبير بها .. إن رأسى الكبير تعوّد على رأس فحل الجاموس الكبير فى الحظيرة ..

جئت من أجل المال .. هل انتهت قضيتى ؟ وسفحت كثيراً من الدمع .. واستجمعت قواى ووقفت على قـــدمى .. ودعوت الله أن أعود لأمى ..

خرجت من الحديقة إلى بيتى .. بيت المرأة الفاضلة .. كانت أوصالى ترتعد من شدة البرد والخوف .. وضعت يدى فى جيب وانكفأت بصدرى إلى الأمام .. ودفعت بشىء خرج منى كأنه الألم .. فى هذه اللحظة

خرجت إلى دائرة جديدة . . وجربت بأقصى سرعة حتى البيت . .

وفى صباح اليوم التالى ، ذهبت لأغير نقودى ، من شلنات تساوية إلى دولارات أمريكية . . وكان جملة ماجمعته من مال طيلة هذه السنين ، هو مبلغ خمسة وخمسين ألف دولار . . أخذتها فى حقيبتى ، وخرجت من البنك قاصداً شركة الطيران النمسوية ، وحجزت على طائرة مسافرة بعد يومين . . ولم أخبر أحداً بسفرى . . حتى وحيد لم أخبره . . لقد تملكنى الخوف من الناس جميعاً . . ورتبت ملابسى وأدواتى فى حقائبى ، وقبل السفر بيوم أعلمت ماما بسفرى . . واعفونى أن أحدثكم عن الانفعال والعويل والبكاء الذى أهدرته السيدة من أجلى ، وحاولت بشتى الطرق أن تجعلنى أعدل عن فكرة السفر ، واشتريت كثيراً من الملابس والهدايا . . وجهزت حلة جديدة أرتديها فى رحلتى .

وفى الليلة الأخيرة التى ينام فيها فى بيت ماما . . جاءته المرأة وافترشت أرض الغرفة لتنام بجواره مودعة . . وفى الصباح أعدت له الفطور الشهى ، وحضر إليه وحيد فى التاسعة والنصف صباحاً ، حيث أخبره أنه يريده لأمر هام . . حيث يجلسان قرابة الساعة فى أحد مقاهى شارع جوزيف . . وكان يبدو على وحيد التململ والارتباك ، أما رؤوف فكان غاضباً من نفسه لأنه لم يخبر وحيداً بسفره ، وجاء إليه الرجل يوم سفره . . وفكر أن يقول له فى المقهى ، ولما جلسا داخل البار الصغير ، شربا الشاى وقال وحيد لرؤوف : جئتك فى أمر . . (وسكت ثم تابع) أمر . . يعجز لسانى على أن أقول شيئاً . .

رؤوف : لماذا ؟ . قل يا وحيد .. أنت تعرف أنى أحبك دون الناس جميعاً .. قل .. لماذا تعجز عن الكلام معى ؟.

وحيد : أنت تعرف .. أنت تعرف .. أننا عندما جئنا إلى هنا .. جئنا من أجل هدف واحد وهو المال .. ولكن .. ولكن بعد أن جمعنا المال وكل منا دارد رزته فى هذه المدينة وأراد أن يعود لبلاده أن يعود لبلاده .. أن يعود .

رؤوف : يعود لبلاده .. ثم ماذا ؟.. قل .

وحيد : أنا مثلا يا رؤوف ممنوع من السفر .. لا أعرف متى أسافر إلى بلدى .

رؤوف : من الذى يمنعك ؟ .

وحيد : أنا وحجازى والغول ومحب والحلبى وصبحى وغيرهم .. لن يسافروا إلا حينما يؤذن لهم .

رؤوف : من يأذن لهم .. ؟

وحيد : الرئيس .

رؤوف : أى رئيس ..؟

وحيد : هل تتذكر مقتل فؤاد لبيب ؟ .

هلع قلب رؤوف بين ضلوعه ، وكاد أن يسقط من على مقعده وقال : ما علاقة هذا بسفر هؤلاء ؟

وحيد : عمل .

رؤوف : أى عمل ..؟

وحيد : أعمال كثيرة غير المخدرات . . لقد أرسل لليهودى صاحب جريدة الكرونا بإيقاف عدد من الباعة عن العمل ، ومن ضمنهم أنت .

ضرب رؤوف الطاولة بيده وقال: أنا ؟ .

وحيد — لا تغضب ولا تنفعل . . نحن معاً .. علينا أن نتروى ونتصرف فى هدوء وتعقل .

رؤوف : ونقودى ؟

وحيد : أليست بالبنك ؟

رؤوف : سحبتها جميعاً . .

وحيد : لن تعود ولن تذهب نقودك بعيداً عن هذه المدينة . .

وكاد رؤوف يسقط مرة ثانية ، فأمسكه وحيد من ذراعه . . وقال : نقودنا بالبنك نحن أيضاً . . لن تكون أفضل منا . .

رؤوف : وماذا نفعل بها هنا ؟ .

وحيد : وماذا تفعل بها هناك ما دمت هنا ؟ .

رؤوف : وأمى؟

وحيد : أرسل إليها القليل كما تفعل . .

رؤوف : من هو هذا الرئيس ؟

وحيد : الرئيس بريجل . .

رؤوف : هل وقعنا ضمن مخطط ؟ .

وحيد : هل قابلت الرئيس بريجل ؟ .

رؤوف : لا . .

وحيد : سيقول لك فى المقابلة . .

رؤوف : عن ماذا ؟ . .

وحيد : كلمتين فقط . .

رؤوف : ما هما ؟ .

وحيد : أنتم رجال أقوياء . . ستكونون خير رجال فى الشرق . . حين تعودون . .

رؤوف : أكثر من كلمتين . .

وحيد : سيقول أيضاً : المال تستثمرونه فى يوم . . هنا فى مأمن سنرسلك إلى أميركا . . ستحصل على أعلى الشهادات العلمية . . عندها ستكون رجلا فذاً . . ستتولى أخطر المناصب وأعلاها بفكر جديد ثاقب تسانده القوة . . وتعود . .

رؤوف : ومتى سأقابله ؟ . .

وحيد : أخبرتنى سوزى بأن المقابلة معك غداً . .

رؤوف : سوزى ! . . سوزى ! !

وحيد : سوزى التى عشت معها . .

رؤوف : ومن الذى أعلمك ؟ . .

وحيد : أنا أعمل معها قبل مجيئك . .

رؤوف : أنت خطير ! .

وحيد : أنا مسوق لهـــذا الخطر . . ليس باختيارى أن أكون خطيراً . . منذ سنين وأنا أتحرك بمهارة مثل قطع الشطرنج .

* * *

وبعد يومين ذهبت للرئيس بريجل . . ركبت سيارة فارهة ماركة شيفروليه . . يقودها سائق أسود يرتدى نظارة سوداء . . أخذنى من بيت جورجيت ، وركبت بالكرسى الخلفى ، وجلس بجوارى شخص لا أعرفه ، طويل القامة . . ذو وجه صارم وعينين جاحظتين حادتين ، ولما انطوت العربة خارج المدينة . . أخذت اتجاهاً نحو الضواحى . . حيث سارت فى طريق مرتفع ملأته الأشجار على الجانبين ، وكأن السيارة تتسلق غابة كثيفة . . واستأذنى الرجل التى يجلس بجوارى . . ووضع عصابة على عينى . . بعدها بدقائق دخلت المركبة من بوابة كبيرة . . حيث طريق يمتد إلى مدخل قصر بنى على طراز قديم ، وأحيط بحديقة رائعة فى جمالها . .

وفى الدور الأول أجلسنى الرجل فى إحدى الغرف ، وبعد دقائق جاءنى صوت رجل قوى . . بدأ حديثه معى بتحية المساء ، بعدها قال ما قاله وحيد بالحرف ، إلا أنه أضاف : أنت رجل قوى ، تملك الصبر والجلد وسلامة العقل والبنية ، عدد الساعات التى أنفقتها فى هذا العمل ، كبائع جرائد ، بالإضافة إلى المجهود الذى بذلته من وإلى الجريدة ومع زبائنك ، يكفى لاستصلاح خمسين فدانا فى قلب الصحراء . . نحن نقدر هذا المجهود الرائع ، . .

قلت له : شكراً . .

قال : من فضلك . . تريد امرأة صديقة لك . . وتريد بيتا خاصاً بك ؟ .

رؤوف : بالطبع . .

الرجل : من تريد من النساء ؟.. فرجينا . . ريتا . . جورجيت

اندهش رؤوف وقال : سوزى . .

الرئيس بريجل : سيأخذك السائق إلى بيتها . .

رؤوف : دنكيه . . (شكراً) . .

الرئيس بريجل : فيدا . . مع السلامة . .

* * *

أيها السادة . هل قلت إن أمى أرضعتنى ابن حمار .. وابن بغل .. وابن فرس لكى أعيش ؟.. وعاش ولدها . .

عاش الغبى . .

ابن الحمار . . ابن البغل . . ابن الفرس . . عاش وانحدر . .

[تمت بحمد الله وعونه]

الرواية حاصلة على الجائزة الثانية للرواية المصرية الطويلة لعام ١٩٨٦
وهى المسابقة التابعة لوزارة الثقافة المصرية
وينظمها نادى القصة المصرى